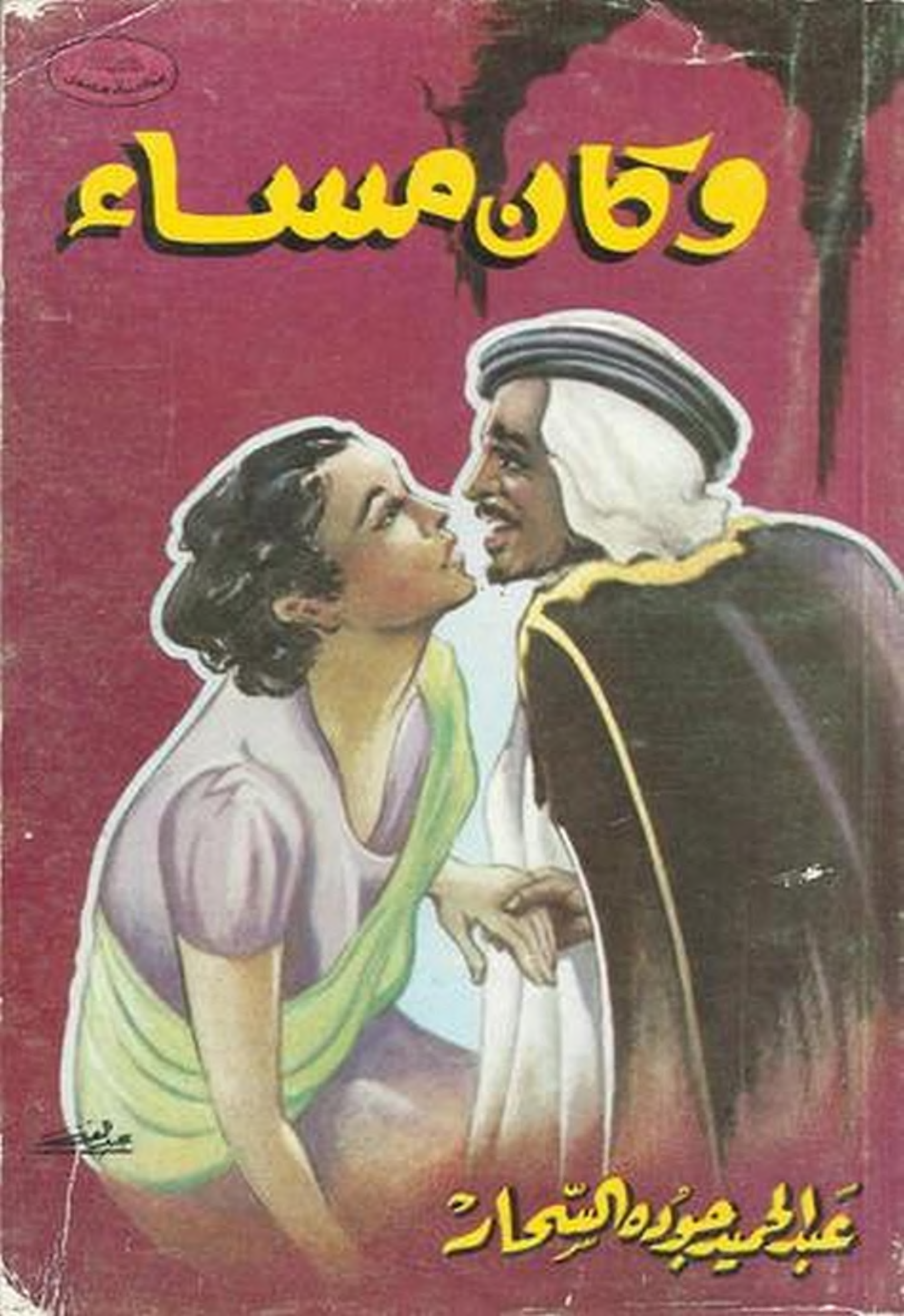

وكان مساء
عبد الحميد جودة السحار

مطبوعات مكتبة مصر

وكان مساء

تأليف

عبد الحميد جودة السحار

يطلب من :

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقي "الفجالة"

دار مصر للطباعة

سعيد جودة السحار وشركاه

٣٧ شارع كامل صدقي - الفجالة

ت : [illegible]

وكان مساء

١

لماذا قبلت ؟

سؤال رن فى أعماق وأنا جالس فى مقصف مطار القاهرة ، وصغرى بناتى قابعة فى حجرى ، وقد أسندت رأسها إلى صدرى ، وأنا أدير عينىّ الذاهلتين فى أبنائى الكبار الذين سأتركهم فى رعاية أخى ، وفى إخوتى الذين خفوا لتوديعى ، وفى هؤلاء الصفوة من الأصدقاء الذين تجشموا الحضور فى البكرة .

واستقرت عيناى على وجه زوجتى المصفر ، تلك الزوجة التى غادرت المستشفى بعد عملية خطيرة منذ عشرة أيام ، وأبت إلا أن ترافقنى فى غربتى ، وإذا بالسؤال يرن فى أعماق مرة ثانية فى نبرات تنم عن الضيق والعتاب :

ـــ لماذا قبلت ؟

ورن فى أرجاء المقصف صوت المذيع يدعو ركاب الطائرة السعودية إلى التوجه إلى الطائرة ، فنهضت وحملت ابنتى الصغيرة ، وأمسكت ابنى فى يدى ، وانطلقت مسرعا لا ألوى على شىء ، فإنى أبغض لحظات الوداع .

وأحسست وأنا أوسع من خطاى أن زوجتى بعيدة عنى تخلفت تودع هذا وذاك ، وتتزود من أبنائها آخر النظرات ، فتمهلت فى سيرى دون أن ألتفت خلفى ، فقد خفت أن أضعف ، وتفضح ملامحى تلك الانفعالات التى بدأت تمور فى أغوارى .

وجف حلقى ، وسمعت أصوات إخوتى وأصدقائى وأبنائى خلفى يتمنون لنا السلامة ، فإذا بالدموع تنبثق فى عينى . وأحسست التابعة العجوز تدنو منى وفى يدها ابنتى الثالثة التى كان عليها أن تغترب معنا ، فمسحت عبراتى بظهر يدى .

ولحقت بنا زوجتى وهى ضعيفة واهنة ، وتقدمنا أنا وزوجتى والتابعة العجوز وأبناؤنا الثلاثة الصغار نحو الطائرة ، لتحملنا إلى المجهول الذى ينتظرنا .

وفى مثل لمح البصر مرت فى ذهنى صور أبنائى الذين خلفتهم ورائى ، فشعرت بغصة ، كتب علينا الفراق ، وإنى أتجرع الليلة مرارة كأسه . ولكنى ما لبثت أن كبحت زمام عواطفى ، وأقنعت نفسى أن فراقا يحدوه أمل فى اللقاء يوما ، خير من فراق لا لقاء بعده . كتب علينا الفراق ، وقد اختار الله لنا أخف مراتبه مرارة ، فشكرا لله .

وبلغنا سلم الطائرة ، وتقدمت زوجتى تصعد فى الدرج متمهلة ، وأنا أرقبها فى إشفاق . هدها المرض ، وحام حولها الموت ، ومع ذلك أبت إلا مشاركتى فى غربتى ، وأن تحمل على عاتقها الواهن أثقل أعباء الزوجية .. هجرت بيتها الوثير ، وتركت بعض أبنائها فى رعاية الله ، وغادرت فراش المرض إلى الطائرة مباشرة ، لتسهر على راحتى ، وهى أحق الناس بالرعاية والسهر .

وصعدت التابعة العجوز وابنتى التى لا تتجاوز سنها الثامنة ، وصعدت خلفهم ، وغبنا فى بطن الطائرة ، وأغلق الباب خلفنا ، وبدأنا فى التحرك . فلم ألق نظرة من النافذة على الأهل والأصدقاء ، وإن كنت قد رأيتهم جميعًا بعين خيالى يلوحون لنا بأيديهم ، فقد وطنت النفس على أن أستقبل ميلادى الجديد

صافى النفس ، سليم القلب .

وحلقت الطائرة بنا ، والتفت إلى زوجتى والتابعة العجوز وأبنائى الصغار ، فإذا بالصوت العاتب يرن فى أغوارى مرة ثالثة :

ـــ لماذا قبلت ؟

عرض على أن أعمل خبيرًا فى السعودية ، فلم أتردد ، وإن كنت أعلم أن معنى ذلك تركى بعض أبنائى فى القاهرة ، وأخذى بعضهم معى ، الذين هم فى حاجة إلى رعاية أمهم . سأفصم عرى أسرتى بيدى ، وسأحرم من سنخلفهم وراءنا العطف والحنان .

قبلت العرض و لم أتريث أو أطلب مهلة أفكر فيها . علمتنى تجاربى السابقة أننى لا أرسم خط حياتى ، فأنا مسوق فى طريق مرسوم لى ، كلما حاولت أن أعرج منه إلى طريق آخر ، أرغمتنى المقادير على العودة إليه .

أردت أن أكون ضابط بوليس ، وكانت جميع الظروف مواتية ، كنت لاعب كرة ممتازًا ، ولعبت أكثر من مباراة مع فريق مدرسة البوليس فى الصيف ، وأمرت بحلق شعرى فقد قيل لى إن التحاقى بالمدرسة أمر مفروغ منه ، ولكن تقوض فجأة كل شىء ، وفسد كل تدبير . مرض الرجل الذى كانت له الكلمة الأخيرة فى اختيار طلبة البوليس ، والذى كان يجزم أننى من أوائل المقبولين . وحل محله آخر لا يعرف عنى شيئًا ووقع اختياره على طلبة لم أكن منهم .

مصادفة سيئة ، وجميع حياتى مصادفات .

والتحقت بمدرسة التجارة العليا رغم أنفى ، كانت المدرسة الوحيدة التى فتحت أبوابها لمن أغلقت فى وجوههم أبواب الجامعة والمدارس العليا الأخرى ، وقبلت الواقع راضيًا ، وعكفت على دروسى ، وأصبحت المدرسة

العليا كلية و لم يبق إلا شهور على تخرجي . وسرت أنا وأبي يوما نرسم مستقبلي ، كان أبي تاجرًا فراح يحدثني عما أعده لي عقب تخرجي ، راح يقول لي إن في حي الجمالية مصنع صابون ، لا يعرف أصحابه كيف يديرونه ، وأنه يرقب تخرجي ليشتري لي ذلك المصنع ، وهو واثق أنني سأنجح في إدارته .

وقبل تخرجي بشهر واحد مات أبي ، ومات معه المشروع كله . فما كان معي ما أشتري به المصنع ، وحتى إذا اشتريته فما كان معي أبي ليأخذ بيدي في مسالك التجارة العملية الوعرة ، التي أجهل أسرارها .

وكانت مصادفة أخرى غيرت مجرى حياتي .

وبدأت عقب تخرجي أطرق أبواب الوظائف ، كانت أمنيتي أن أكون خبيرًا في وزارة العدل ، وركزت كل هجومي لأقتنص إحدى الوظائف المشتهاة ، ولكن أسلحتي لم تكن ماضية ، كانت تنقصها الوساطة ، السلاح البتار الذي يشق جميع الاستحكامات .

وقابلت مصادفة أحد أصدقائي في ميدان الأزهار ، وشكوت إليه إعراض وزارة العدل عني ، فإذا به يأخذني من يدي وينطلق بي إلى وزارة الحربية ، ويدخل معي على صديقه وكيل الوزارة ، وما انتهت الزيارة حتى كنت موظفًا من موظفي الدولة .

وحتى زواجي كان لعبة من لعبات القدر : أحببت فتاة منذ كنت طالبا ، وقبل تخرجي تعاقدنا على الزواج ، وفجأة اختفت من حياتي ، بحثت عنها دون جدوى ، كأنما انشقت الأرض وابتلعتها ، وساق القدر فتاة أخرى في طريقي ، كانت صديقة لأختي ، وراحت أختي تزين لي الزواج منها ، وفي لحظة من لحظات يأس قبلت ، وتزوجت لعل الفتاة الجديدة تضمد جراح قلبي .

وأبنائى لم أدبر أمر مجيئهم ، و لم أفكر فيهم قبل أن أراهم ، بل لقد حاولت جاهدا أن أمنع بعضهم من أن يروا نور الحياة ، وأن أجنب نفسى سخطهم على يوما ، إذا ركبوا رءوسهم وحاولوا أن ينطحوا صخرة القدر ، ولكن باءت جميع محاولاتى بالإخفاق .

أصبحوا مصادفة قلادة فى عنقى ، وصار على أن أهتبل الفرص التى تهيئها المصادفات لى لأبذل غاية جهدى لإسعادهم .

وأصدقائى جميعًا عرفتهم مصادفة ، لم أدبر أمر مصادقتهم ، بل قادتنى الظروف إليهم ، وقد أثر بعضهم فى مجرى حياتى ، وتركت أثرًا فى حياة بعضهم .

إننى أعمل ما وسعنى الجهد ، ولكنتى لا أحاول أبدا أن ألوى عنق القدر . أو أكون « دون كيشوت » آخر يحارب طواحين الهواء ، إننى أندفع مع تيار الحياة ، وأستغل هذا التيار لتحقيق مآربى المشروعة ، نقى القلب ، دون أن أوذى غيرى من البشر .

وعاد الصوت يرن فى جوفى واهنا يتساءل :

ـــ لماذا قبلت ؟

وإذا بصوت ضميرى يقول :

ـــ قبلت السفر لأننى قبلت ما اختاره لى القدر . وأنا واثق كل الثقة أن سفرى إن هو إلا مصادفة جديدة تقودنى إلى سلسلة أخرى من المصادفات ، لن تنتهى حتى ينقطع مصادفة طريق الأمل . سأعرف أناسا جددا ، وستتوطد بينى وبين بعضهم صداقات ، وسأضيق ببعضهم ، وقد أسخر منهم ، ولكن قلبى لن يبغضهم أبدا ، فقد روضته على الحب ، وأن يتلمس للناس جميع الأعذار .

قبلت السفر لأنني أومن أن هناك قوة عليا قادرة ، تسيطر على أقدارنا ، وهى التى فتحت لى هذا الباب ، ولو أنفقت العمر جميعًا فى تدبير أمر فتحه ما انفتح . وأن إيمانى بهذه القوة ، وثقتى فى حكمة تدبيرها وتسليمى كل أمرى إليها ، هو سبب ما أنعم به من راحة نفس ، وعلو أنف ، وخلو بال ، وهذا غاية ما أبغيه من الحياة .

وانسابت الطائرة فى الفضاء تحملنا نحن الغرباء إلى دنيا جديدة ، لا أهل ولا أصدقاء ، لنندمج فيها ، ونحتل مكاناتنا بجهودنا ، ونفتح بشخوصنا القلوب المغلقة .

إننا على أعتاب حياة جديدة ، ميلاد جديد . إننا ننصهر فى بوتقة جديدة من بواتق الحياة العديدة ، وإن تفاعلنا مع البيئة وتأثرنا بها أو تأثيرنا فيها ، هو ما سيكشف عن حقيقة معدننا .

ترى ماذا ينتظرنا هناك ؟

هذا هو الغيب الذى لم أحاول مرة أن يهتك خيالى أستاره . علمتنى تجاربى أن الغيب قلما يخطر على البال ، وأن غرور الإنسان يجعله يبنى قصور الأمانى فى الهواء . فإذا لم تحقق الأيام الأوهام ، ماجت فى الصدور الآلام ، واجتاحت النفس مرارة ، وخيم على الذهن السواد .

روضت نفسى على أن تقنع بما هى فيه ، وعلى ألا تشرئب بعنقها إلى ما فى أيدى الغيب ، فإذا ما ضن بما عنده ، فقد ضن بشىء لا تمتد إليه عينى ، وإذا أعطى بسخاء ، فما كان ذلك العطاء ليملأنى زهوا ، فهو يعطى اليوم ليأخذ غدا .. إنها وديعة ، وسيأخذ ودائعه كلها يوما .

٢

كان سفرى فى يوم بارد من أيام يناير ، وكنت أستشعر قشعريرة خفيفة تسرى فى أوصالى . وما أن انسابت الطائرة وتقضت ساعة حتى مشى الدفء فى بدنى ، فرفعت رأسى ، وأخذت أطوف حول المكان بعينى .

كان مضيفنا رجلا نحيلا ، أسود الشعر ، غائر العينين ، نبتت شعرات متفرقة فى ذقنه ، يرتدى بدلة لم تمسها المكواة من زمن ، وفى عنقه كرافتة سوداء مبرومة ، وفى معصمه ساعة ذهبية نادرة .. كانت كل ملامحه تنطق بأنه عربى .

سألته عن الوقت ، فجلس فى بساطة على مسند مقعدى ، ونظر فى ساعته الذهبية وأخبرنى . وصمت قليلا ثم حدثنى عن ساعته الذهبية التى أخذها هدية من الملك لخدمته الممتازة ، وسألنى هل كنت أرغب فى تناول الإفطار ، فشكرته وطلبت منه أن يتريث ، فقد عافت نفسى ذلك الطعام الذى يقدمه فى صندوق من الورق المقوى .

كان الرجل يبذل غاية جهده لإرضاء الركاب ، ولكن هيهات ، فنظرة من عينى مضيفة حسناء ، تنعش القلوب وتبث فى الطائرة روحا وحياة .

وتلفت خلفى فرأيت شيوخا فى ثياب عربية ، شغلوا عن كل شيء بحديث التجارة . ولمحت خلفهم ضابطا عراقيا ، وأسندت زوجته رأسها على كتفه ، وراحت فى نوم عميق . كانت ترتدى عباءة سوداء ، تستر الثوب النيلون

الهفهاف ، وانحسر عن وجهها النقاب ، فبدت زينتها كاملة : الشفتان الغليظتان طليتا بالأحمر فى إتقان ، العينان كحلتا وزاد فى سحرهما تلك الأهداب الطويلة الساهرة على الفتنة النائمة ، أما الشعر فتفننت فى تنسيقه يد فنان .. الزينة من الغرب والسحر من الشرق .

وغضضت من بصرى ونظرت أمامى ، وما تقضت لحظات حتى وجدت نفسى أتلفت وتخوننى عيناى وأديم النظر فى العباءة السوداء وشريط القصب الذى يزينها ، فاستشعرت ذلك الإحساس الذى يملؤنا إذا ما أدمنا النظر فيما يشرح صدورنا ، وما دار فى خلدى فى ذلك الوقت أن مصادفات حياتى ستدفعنى يوما إلى ارتداء العباءة الخلابة ، وتحملنى إلى بلاد بعيدة ، لأخب فيها بين الحسان فى تيه ، وهن يتطلعن إلى فى شغف وتشوف ، تطلعى إلى حسناء العراق التى كانت كل حركة منها تكشف عن جزء من ذراعها البضة ، يثير فضولى ويوسع من عينى .

يا طالما رأيت أذرعا بضة عارية ، وظهورا مكشوفة ، وأجسادا رائعة لا تسترها إلا قطعة من القماش فى مساحة المنديل ، ومع ذلك لم تهزنى كما هزتنى الأنامل المطلية بالمانيكور التى كانت تطل فى استحياء محبب من تحت العباءة .. إن كل مستور مرغوب .

واختلست النظر إلى زوجتى فألفيتها مشغولة بإطعام الأولاد ، وتفرست فى وجهها الذابل مشفقا ، وإذا بخاطر يطوف برأسى ويقلقنى ، راح يسألنى عما أفعل إذا ما أتعبها ركوب الطائرة . وابتهلت من أعماق إلى الله أن يسترها حتى نصل سالمين .

ونظرت إلى التابعة العجوز ، فألفيتها تصف صناديق الورق المقوى وما بقى بها من طعام تحت قدميها ، فذهبت إليها وقلت لها :

— لماذا لم تتناولى طعامك ؟

فقالت وهى ترفع بصرها إلى سقف الطائرة :

— الحمد لله : صائمة . أشكرك يارب على القناعة التى وهبتها لى . إننى لا أهتم بالأكل . آكل لقمة بدقة وأحمد الله .

* * *

وراحت الطائرة تتأهب للهبوط ، فدارت دورة فوق البحر الأحمر ، واتجهت صوب اليابسة ، وبدأت فى الانحدار كأنما تنزل فى درج . ونظرت من النافذة فإذا بجدة تبدو لعينى كقوالب الطوب المنتثرة فى الصحراء .

ورفت على شفتى بسمة ساخرة ، طالما ارتسمت على وجهى كلما نظرت إلى مدينة من الجو ، فما كانت عيناى تميزان ذلك الإنسان الذى يتيه غرورا ويشمخ بأنفه ، إذا امتلك فى المدينة التى تبدو كقطرة فى محيط ملك الله بضعة أمتار .

وبدأت ملامح المدينة تتضح : قصر الملك وحدائقه الواسعة ، طرقات تتلوى كالثعابين ، سيارات فى غدو ورواح ، أفنية الدور الجرداء وبعض الخضرة ، برج المراقبة ، ممر الطائرات الطويل ، وجناح الطائرة الذى بدا لناظرى أضخم من جدة كلها .

وتفصد العرق البارد من جبينى ، فهبوط الطائرة يجعلنى أستشعر غثيانا . فاضطجعت فى مقعدى ، واختلست النظر إلى زوجتى أرقب أثر الهبوط فى وجهها ، فإذا بها هادئة ساكنة ، تتحدث إلى التابعة العجوز كأنما كانت منطلقة فى سيارة .

كنت أخشى أن يدور رأسها أو تنوء من الجهد ، ولكنها ظلت ثابتة ، بينا دار رأسى وكدت أغيب عن الوجود .

ولمست العجلتان الأماميتان الأرض ، وسرعان ما استقرت عجلة الذيل ، وأخذت الطائرة تعدو إلى باب المطار الذى سيلفظنا إلى المدينة المجهولة ، التى كتب علينا أن نمضى فيها حينا من الدهر ، وندب فى أرجائها ، وتنبض بالآمال قلوبنا . حتى نحس أن الدنيا تركزت فينا ، وأن العالم قد ضاق حتى صار البقاع التى تتردد فيها أنفاسنا ، إن شردت أذهاننا إلى آفاق بعيدة .

إننا محدودون : الماضى ذكرى ، والمستقبل رؤى وأحلام ، أما الحاضر فلا وجود له ، فهو يتقطر فى الماضى قطرة قطرة حتى إننا لا نملك أن نتحكم فيه .

إننى حيران أتلفت ، طويت الرحلة ودخلت فى العدم ، وإن كان فى جوف الغيب ثمارها ، وراح الركاب يتدافعون بالمناكب يتعجلون الهبوط ، ليجد كل منهم فى أثر وهمه ، ويهرع متعجلا — وهو غافل — إلى نهايته .

ونهضنا وفسحت الطريق لزوجتى ، وحملت ابنتى الصغيرة ، وتعلق ابنى بى والتصق جسمه بجسمى كأنما يلتمس حمايتى ، وما دار برأسه الصغير أن الخوف الذى بدأ ينتشر فى أعماقى يفوق كل ما يحسه من رهبة .

وأخذت السيدة العجوز تحمل صناديق الورق المقوى التى كان بها طعامها وما تبقى من الأولاد فى حرص شديد ، ثم تناولت يد ابنتنا الكبيرة وتحركت خلفنا .

كنت متدثرا بالصوف ، وكانت زوجتى ترتدى فراء ، ووقفنا على رأس الدرج لنخطو أول خطوة فى مرحلة حياتنا الجديدة ، فإذا بالشمس تسدد إلينا أشعتها .. كان استقبالها لنا الاستقبال الحار الوحيد الذى قوبلنا به .. ورحنا نوسع من خطانا حتى نفر من لسع الشمس ، فقد خيل إلى أن أشعتها صوبت إلى وجهى من خلال عدسة مركزة .

ودلفنا إلى الرحبة المسقوفة ، ودارت عينى فى المكان وأنا مأخوذ . كان كل

شيء جديدا أمامي ، غريبا فى نظرى . الناس بجلابيبهم البيض ، وشيلانهم البيض أو الحمر ثبتتها على رءوسهم شطافات سوذ . وراح جندى يرتدى بدلة صفراء وعلى رأسه شال أصفر وفى ذقنه لحية يرشدنا بخيزرانة فى يده إلى المكاتب الممتدة على يمين الداخل .

كانت المكاتب أشبه بتضد فى مصرف ، وقف خلفها ثلاثة موظفين يرتدون الجلابيب البيض ، وقد أرغمهم الشتاء على ارتداء جاكتات من الصوف . وتقدمت وفى يدى جوازات السفر وأنا أتلفت احثا عمن سيرشدنى إلى الطريق ، فقد بعثت إلى الوزارة برقية حددت فيها موعد وصولى . ولم أهتد إلى أحد ، ولم يتقدم إلى إنسان ، واستشعرت وحشة ، فشتان بين الوداع والاستقبال ! كان مطار القاهرة غاصا بالمودعين ، ولم أجد فى مطار جدة وجها واحدا أعرفه .

وتزاحمت الأفكار فى رأسى .. لم أكن أملك نقودا سعودية ، فكيف أدفع أجر الحمالين الذين سيحملون حوائجى من المطار إلى الخارج ؟ والسيارة التى ستحملنى إلى مكان ما لا أدريه كيف أسدد أجرها ؟! وذلك المكان الذى أذهب إليه أين هو ؟ . إننى لا أعرف عن المدينة شيئا . لو كنت وحدى لضربت فى أرجائها مكتشفا ، ولكننى جازفت وأحضرت زوجتى المريضة وأبنائى الصغار والتابعة العجوز ، كأنما كنت منطلقا إلى نزهة .

وتململت زوجتى وظهر فى وجهها الجهد ، ولم تستطع أن تكتم عواطفها فأرغت وأزبدت ، وفهمت من كلماتها الغاضبة أنها تريد مكانا تستريح فيه . وتلفت فلم أجد غير « البوفيه » ففرضت عليها أن تنطلق إليه وتنتظرنى هناك ، ولكن الأولاد أبوا وتشبثوا بى .

وختمت الجوازات وتقدمت صوب الجمارك ، وفتحت حقائبى جميعا

وفتشت تفتيشا دقيقا ، وقد فطنت من أسئلة « الآمرين بالمعروف » أنهم يبحثون عن أسطوانات أو شرائط مسجلة أو آلات عرض سينمائية ، أو كتب غير مرغوب فيها ، أو تماثيل ، أو زجاجات الخمور .

ومرت لحظات ثقيلة على نفسي ، حتى انتهى البحث وأشر على حقائبي بالطباشير تأشيرة المرور ، ولاحت لى مشكلة حمل الحقائب المكدسة أمامى .

تقدمت خطوات أتلفت ، وإذا بشيخ يرتدى عباءة سوداء هفهافة وجلبابا ناصع البياض ، وعلى عينيه نظارات إطارها من فضة ، قد حف الشارب واللحية ، ولولا بعض الشعرات السود الثابتة فى الشعر الأبيض لخيل للناظر إليه أنه حليق ، وإذا به يهمس فى صوت خافت رفيع :

ـــ حضرتك الأستاذ جمال عبد السلام ؟

ـــ نعم .

فابتسم وهو يقول :

ـــ تفضل .

وأحسست كأن يدا امتدت إلى وأنا مشرف على الغرق ، فتنفست الصعداء حمدًا ، لم أعد وحدى ، أصبح معى من يرشدنى إلى الطريق .

وانقشعت الأفكار السود من سماء ذهنى ، وتقدمت أنا وزوجتى وأولادى والتابعة إلى السيارة التى كانت فى انتظارنا . كانت سيارة فاخرة ، وكان المكان غاصا بسيارات جديدة فريدة ، فكانت الساحة أشبه بمعرض للسيارات فى سوق شرقى عجيب .

وانسابت السيارة بنا ، وأدير الراديو ، وانبعث صوت المغنية ناعما حنونا يغنى : « حبينا بعضنا .. » فالتفت خلفى أرقب المطار وأنا ابتسم فى حيرة ، وتمنيت أن أعود إلى « الآمر بالمعروف » الذى أنفق وقتا طويلا فى التنقيب عن

أسطوانات أو شرائط مسجلة فى حقائبى وأسأله عن الحكمة فى ذلك ، إذا كانت جميع أغانى العالم الجادة والماجنة يحملها الراديو إلى الناس فى سياراتهم وبيوتهم ، بل إلى العذراء فى خدرها !

ووصلنا إلى الفندق وحجزت غرفتين ، غرفة لى ولزوجتى وغرفة للأولاد والتابعة ، ودلفنا إلى غرفنا وارتمينا على السرر بثيابنا نستريح .

٣

راح الوقت يمر وئيدا وئيدا ، وأنا أقوم من سريرى وأذهب إلى السرير الآخر أرتمى فيه ، وأخذت زوجتى تضع بعض ثيابها وثياب الأولاد فى الصوان ، وتثاءبت وتمطيت ، وجعلت أغدو وأروح فى الغرفة وقد تسرب الملل إلى .

وطال النهار ، ورأيت أن أخرج وأجلس أمام الفندق لعلى أجد من أحادثه وأقضى على الوحدة التى أطبقت على وضيقت صدرى ، وارتديت قميصا وبنطلونا وخرجت .

كان الفندق هادئًا ساكنا ، ولولا أولادى الذين كانوا يلعبون فى الحديقة ، لحسبت النازلين فيه قد هجروه ، وسرت فى الطرقات التى تخترق الحديقة ، ودلفت إلى الردهة الخارجية فألفيت الموظف المعين لاستقبال الوافدين جالسا خلف مكتبه ولا أحد غيره ، فلما رآنى ابتسم لى ، فحييته ، وانطلقت إلى منضدة وضعت أمام الفندق تطل على الطريق العام .

ورحت أرقب السيارات الرائحة الغادية ، وقد انبعثت منها الأغانى المتباينة ، ورفعت عينى أتطلع إلى مبنى الإذاعة الغارق فى الصمت ، وجعلت

أتلفت فلا تقع عيناى إلا على مبان صامتة ، وخلاء لا يحد ، فأحسست فراغا فى نفسى ، وخواء فى روحى ، وانقباضا فى قلبى .

وغابت الشمس ، وزحف الليل ، فنهضت لأجوس خلال الطرقات القريبة من الفندق ، ورحت أضرب على غير هدى . فلم ألمح ماشيا على قدميه غيرى . وراحت أنوار السيارات التى كانت تتوافد كالموج تبهر بصرى ، وتصاعد الغبار من الطرق المتربة ، وملأ أنفى وكتم أنفاسى .

وبعدت عن الطريق العام ، وسرت فى أرض فضاء واسعة ، ومس أذنى صوت رجل يغنى ، كان صوته أقرب إلى الحداء ، فدنوت منه أصيخ السمع ، وانطلقت خلفه وقد أرهفت حواسى ، ودبت فى أوصالى الحياة .

وأوغل الرجل فى جوف الظلام ، ودرت على أعقابى لأعود ، وأنا أردد بعض ما حفظته من حدائه فى صوت منغم :

ــ يا فاطمة يا بنت النبى ..

وقصر خيالى عن أن يتصور فاطمة بنت النبى ، ولكنه راح يمدنى بذكريات طوتها السنون عن فاطمة أخرى ، كانت جارتى أيام شبابى ، وقد خفق بحبها الفؤاد يوما .

رأيت نفسى أمام بيتنا القديم فى شارع النزهة ، وأنا أفتح باب سيارة الأسرة . كنت طالبا فى الثانوية ، وكنت أنتهز فرصة ترك السيارة أمام البيت ، وأخف إليها أدور بها فى الطرقات القريبة منا .

وهبطت فاطمة من بيت العجم . إنها طفلة صغيرة ، بيضاء البشرة ذات عينين سوداوين واسعتين ، وشعر أسود ناعم سبط ، تمتاز بروح خفيفة ، وبسمة مشرقة .

وتقدمت ثابتة الخطو نحو السيارة ، وفتحت بابها الخلفى ، وصعدت فى

تؤدة وجلست فى كبرياء ، وأغلقت الباب خلفها وقالت :

— هيا .

فالتفت إليها وقلت :

— إلى أين ؟

— إلى سراى السكاكينى .

— والثمن ؟

— أدفعه فى الطريق .

وانطلقت السيارة بنا ، وفاطمة تضحك فى مرح . ولما ابتعدنا عن البيت ، قلت لها :

— أريد الثمن الآن .

وراحت فاطمة تغنى . كان صوتها عذبا حنونا ، ينفذ إلى قلبى ، ويملؤنى نشوة ، ويفتح آفاقا رحيبة من الأمل أمامى .

وسكتت فجأة ثم قالت :

— عم جمال .

— نعم .

— غنيت اليوم أمام المفتش فى المدرسة .

— وماذا قال لك ؟

— طلب من التلميذات أن يصفقن لى .

وصمتت قليلا ثم قالت :

— عم جمال .

— نعم .

— حدث وأنا أغنى للمفتش شىء عجيب ، كان يخيل إلى أننى أغنى لك .

وابتسمت ، وأحسست حركة خلفى فتلفت ، فرأيت فاطمة قد نهضت ووقفت على المقعد ، وراحت تهتز ، فقلت لها :

— ماذا تفعلين ؟

— أريد أن آتى إلى جوارك لأضرب الكلاكسى .

ومددت لها يدى وقلت :

— تعالى .

وراحت تجتاز مسند المقعد الأمامى وقد استندت إلى ذراعى ، واختل توازنها وسقطت إلى جوارى ، وما لبثت أن اعتدلت فى جلستها وهى تضحك ، ودنت منى ومدت يدها تضرب الكلاكس فى مرح ..

ووقفت أمام محل « ألف صنف » ، وهبطت من السيارة وأنا أقول لفاطمة :

— ما رأيك فى أن أشترى لك اليوم شيكولاتة العفريت ؟

— لا ، إنها تلتصق بأسنانى وتغلق فمى . هل تضايقت من كلامى ؟

وذهبت وعدت بقطعتين من الشيكولاته ، رحنا نلتهمهما ونحن فى طريق عودتنا إلى البيت .

وروت ذكريات الطفولة قلبى الجاف فإذا به يتفتح ، وإذا به يخفق فى نشوة .. وراحت الذكريات تنثال على رأسى وأنا فى الطريق الهادئ الذى استبد به الظلام .

رأيت فاطمة مقبلة على الحى ، وقد اعترض طريقها أحد الصبيان وراح يجذبها من يدها ويحلف عليها أن تغنى له ، وهى ترفض وتتملص من يده دون جدوى ، ورأيت نفسى أنقض عليه وألكمه لكمة قوية ينخلع لها فؤاده ، ويترك اليد التى كان قابضا عليها .

* * *

وأذن المؤذن بالعشاء ، فانطلقت منشرح الصدر إلى الفندق ، ودخلت غرفتي فإذا بأبنائي يرقبون عودتي ، وهرعت الصغيرة تتشبث بي وتأمرني أن أحملها ، فرفعتها بين ذراعي وقبلتها .

وأسرع ابني إلى الجرس يدقه يطلب الطعام ، وسرعان ما جاء خادم نوبي راحت التابعة تحدثه همسا .. كانت توصيه بما تريد .

وتناول الأولاد طعامهم في الغرفة الأخرى ، وتناولت أنا وزوجتي العشاء في السرير ، فما كانت زوجتي بقادرة على مغادرة فراشها .

ونامت ابنتي الكبيرة ، ونام الصبي ، أما الصغيرة فقد جاءت إلي وهي ترفع يديها إلي وتقول :

ـــ احملني .

وحملتها ونيمتها على ذراعي ، وبعد لحظات راحت في سبات .. لقد اعتادت ذلك منذ ذلك اليوم الذي دخلت فيه أمها المستشفى .

٤

كنت أترك رسائلي عند ذلك الشاب الجالس خلف مكتبه عند باب الفندق ، وكان يتولى إرسالها . وفي ذات يوم رأيت أن أبعث رسالة بنفسي ، فطلبت من الشاب طوابع بريد ، وأن يرشدني إلى أقرب صندوق للبريد ، فإذا به ينبئني أن علي أن أذهب إلى مكتب البريد وأن أسلم الرسالة هناك ، فقلت له :

ـــ ألا توجد أماكن لبيع الطوابع ؟

ـــ لا يبيع الطوابع الا مكتب البريد نفسه .

ـــ وصناديق البريد ؟

ـــ لا وجود لها .

ـــ وأين مكتب البريد هذا ؟

ـــ فى السوق .

ـــ وكيف أذهب إليه ؟

ـــ فى تاكسى .

وصمت قليلا ثم قال :

ـــ لا تدفع للتاكسى أكثر من ريالين ، تسعيرة أية مسافة داخل المدينة ريالان .

ـــ أهى تسعيرة رسمية ؟

ـــ لا ، إنها تسعيرة عرفية .

وهززت رأسى وقلت :

ـــ أأدفع أربعة ريالات لأسلم رسالة وأعود !

ـــ هذا هو الحاصل .

ـــ أمرى لله .

وخرجت من باب الفندق ، وقبل أن أتلفت بحثا عن تاكسى ، وقفت أمامى سيارة فاخرة من أحدث طراز ، وقال السائق :

ـــ تفضل .

وارتبكت قليلا ، ولكن زال ارتباكى لما وقعت عيناى على كلمة « أجرة » المكتوبة على جانب السيارة ، ففتحت الباب ودلفت إلى المقعد الوثير وأسندت ظهرى ، واستشعرت رغبة فى الحديث فما أندر الفرص التى ألتقى فيها بإنسان أحادثه ، وتفرست فى السائق مليا .. كان يرتدى قميصا وبنطلونا ، وكانت

سحنته شامية ، فقلت له :

— من لبنان ؟

— لا ، من فلسطين .. من نابلس ، أتعرف نابلس ؟

— أجل ، زرتها يوما بعد الكارثة .

— إننى من هناك ، جئت إلى هنا منذ ثلاث سنوات . إننى أملك نصف هذه السيارة والفرص هنا طيبة ، ولكنى مشتاق إلى نابلس .

قلت له :

— الوطن غال .

فقال وهو يمد يده يفتح صندوقا ويخرج صورة :

— زوجتى هناك ، لم أرها منذ سنتين ، إننى فى شوق عظيم إليها .

ومد يده إلى بالصورة ، فتناولتها منه ، ونظرت فيها مليا ثم قلت :

— إنها جميلة ، حرام أن تتركها وحدها .. أحضرها لتعيش معك .

— الحياة هنا غالية .. جمعت بعض المال وسأذهب إليها يوما .

وساد الصمت بيننا ، شرد هو يفكر فى صاحبة الصورة وراح ينظر أمامه نظرات حالمة .

وسرح خيالى يقلب ذكريات الماضى البعيد : رأيت نفسى شابا يافعا فى الجامعة ، أخرج من بيتنا وأسرع إلى سيارتنا الجديدة ، وأقودها وأنطلق ، وعند منعطف قريب أقف أتلفت خافق القلب نشوان .

وأقبلت فاطمة ، لقد تم نضجها وامتلأ صدرها وصارت طالبة فى المدارس الثانوية ، تقدمت ثابتة الخطو و لم تفتح الباب الخلفى كما اعتادت أن تفعل وهى طفلة ، بل فتحت الباب الأمامى وجلست إلى جوارى شامخة برأسها .

وانطلقنا إلى شارع الملك ، الشارع هادئ ساكن ، المزارع الخضر ممتدة

على جانبيه ، الشمس تميل للغروب ، ولكن مشاعرنا كانت صاخبة . والتصقت كتفها بكتفي ، وملأ عبيرها أنفي ، وراحت تهمس في أذني بأغنية أم كلثوم : « إن كنت أسامح وأنسى الأسية » فاستشعرت الكون كله يغني .

ودرنا دورة حول قصر القبة الذي يطوى صدره على أسراره ، وعدنا إلى شارع الملك ، حتى إذا بلغنا الكوبرى ، تركنا السيارة وسرنا في طريق جانبي ضيق ، يقود إلى محطة مترو الدمرداش .

وصعدنا في الدرج ونحن نعدو في خفة الشباب ، وهرولنا إلى مقعد خشبي عند مظلة الانتظار ، وجلسنا نملأ رئتينا بالنسيم الذي راح يداعب وجهينا .

كان المكان هادئا ، والضوء الخافت المنبعث من المصابيح الكهربية الواهنة يزيد الجو شاعرية ، وكانت مشاعرنا الرقراقة الهفهافة تمور في صدورنا .. كنا نحس أننا نعيش في أغنية عاطفية .

ورنت فاطمة إلى رنوة طويلة ، ثم قالت بعض كلمات باللغة الإيرانية لم أفهم معناها ، ولكنني أحسست وقعها في قلبي ، فاشتد وجيبه ، وفاضت مشاعر الغبطة على جوانبه .

ودنوت من فاطمة وقلت لها :

ـــ ماذا قلت ؟

فرفت على شفتيها بسمة ساحرة ، وقالت في دلال :

ـــ لا .. لا أستطيع أن أقول .

فقلت لها منشرحا :

ـــ فهمت كل كلمة ، كانت عيناك أفصح من لسانك ، وأنا أحبك يا فاطمة .

وملأت النشوة روحي ، فمددت يدى ولففت ذراعي حول خصرها ،

فانفلتت مني في دلال ، وأردت أن أقبض على يدها فشردت كالغزال ، وجرت في خفة فأخذت أعدو خلفها وهي تقفز في الدرج وتنساب كالطيف في الطريق الهادئ الذي يكاد أن يغرق في الظلام ، لولا بصيص من النور المتسلل من مصابيح الشارع الرئيسي .

وقبل أن تصل إلى السيارة انبهر نفسها ، ووقفت تضحك ضحكات متقطعة .. كانت متهالكة ، وما أيسر أن أضمها إلى صدرى وأضع لثماتى على وجهها حيثما أشاء ، ولكنني أسندت ظهرها بذراعي ، ورحت أصلح شعرها المتطاير بيدى ، وقلبي يرقص طربا بين ضلوعي .

ووقفت السيارة أمام مبنى البريد فأفقت من أحلامى ، وأخرجت ريالين من حافظتي دفعتهما إلى السائق الفلسطيني ، وأنا أرجو في قرارة نفسي أن يجد مالا ممدودا ليعود إليها .. إلى الشابة التي تترقب .

كان المبنى من طبقتين : طبقة للبريد وطبقة للبرق . وكان أمام المبنى بعض مكاتب جلس إليها بعض العرب اليمنيين يكتبون الرسائل للأميين ، وما أكثرهم ! إنها تجارة رابحة في بلد كثر فيه المال ، وأصبحت الاتصالات الداخلية والخارجية ضرورة .

وصعدت أربع درجات ، ثم دلفت من الباب الضخم إلى ممر واسع ينتهى بردهة فسيحة تطل عليها شبابيك سلحت بقضبان من حديد ، وجلس خلف كل شباك رجل تزين وجهه لحية تغطي الذقن هذبتها يد حلاق ماهر ، وقد ارتدى جلبابا أبيض ، ووضع على رأسه طاقية بيضاء أو شالا أبيض وعقالا .

ووقفت أتلفت فلم أجد لافتة تدلني على الشباك الذي أذهب إليه ، فسألت عنه رجلا يرتدى سروالا طويلا أبيض ، وعلى رأسه عمامة صفراء زركشت بخيوط ذهبية ، وارتدى صديرية من نفس قماش العمامة ، ونبت في ذقنه

وشاربه بعض شعرات متفرقة . وتدفقت الكلمات من فمه ، الضاد تنقلب ظاء . والقاف جيما ، وبعض الحروف تؤكل ، فلم أفقه قوله ، وكانت إصبعه التي أشار بها أفصح من بيانه .

ومشيت إلى الشباك فإذا بصبيان المحال التجارية يتدافعون بالمناكب ، كل يحاول أن يتخلص من الرسائل التي يحملها ، ووقفت بعيدا أنتظر أن ينحسر الموج عن الشباك ولكن هيهات .

وطال انتظاري ، وفطن الرجل إلى وقفتي ، فمد يده وتناول مني الرسالة والنقود ، فشكرته وانصرفت أفكر في ذلك الضني الذي كتب على أن أتحمله كلما فكرت في بعث رسالة .

٥

وخرجت إلى الطريق ، وخطر لي أن أجوس خلال السوق فوليت وجهي شطرها ، وسرت فيها أجيل البصر ، فخيل إلى أني أشاهد « ديكورا » في فناء ستوديو سينما .

كانت البيوت القديمة ذات المشربيات المصنوعة من الخشب المكسر تشرف على السوق ، وقد اختفت سيقان البيوت خلف حوانيت حديثة بنيت بالخرسانة والمسلح . وعلى مدى البصر قامت سقيفة على جانبيها حوانيت مرتفعة عن الأرض فرشت بسجاجيد ، وجلس التجار على حشايا حفاة الأقدام صفت أمام حوانيتهم أحذيتهم أو نعالهم المصنوعة من المطاط ، وانسبت في السوق ، وتقاطر إلى متسولون من جميع بلاد المسلمين ، من الهند وجاوة واليمن وحضرموت وساحل الذهب والمغرب والسودان ، ومدوا أيديهم

يطلبون « الكرامة » بلهجات متباينة ، إلحاف فى السؤال كتم أنفاسى حتى لم أعد أنعم بتلك النشوة التى بدأت تنداح فى صدرى ، لرؤية السوق التى عبرت بى عشرات القرون ، وراحت توغل بى فى جوف التاريخ .

ووسعت من خطوى لأفر من الإلحاح الثقيل ، ويئسوا منى فانفضوا من حولى يرغون ويزبدون ... كانو يسبوننى بلهجاتهم التى ما كنت أفقهها ، وإن حزرت ذلك من حركات أيديهم وتقلصات ملامحهم . ابتعدوا عنى ليسقطوا كالذباب على صيد جديد .

وسرت أتفرس فى الحوانيت : غسالات كهربية وثلاجات ومكيفات هواء ، وأدوات زينة ، وأقمشة مكدسة من النايلون وساعات معروضة فى الواجهات ، وزجاجات العطر الوارد من باريس قائمة على أرففها فى دلال ، والتجار يجوسون خلال أحدث واردات الترف بجلابيبهم البيض ، وطواقيهم على رءوسهم .. إنه مشهد فريد .

كانت كل المعروضات كماليات ، لم يجلب دولار الزيت للقوم إلا أدوات الزينة والترف ، أما السلع الإنتاجية فليس لها وجود .

وبلغت السقيفة ، ودرت بعينى فى الحوانيت المرتفعة عن الأرض فرأيت أقمشة أمريكية وسويسرية وفرنسية ويابانية .. وامتلأت الحوانيت بنسوة ترتدى كل منهن ثوبا فضفاضا من قماش أسود أو أبيض أو أصفر أو رمادى ، يضيق عند الرأس حتى يتخذ شكله ، ثم يتسع كالروب ويغطى الجسم كله ، وفيه فتحة مستطيلة عند العينين مغطاة بشبكة ، ترى المرأة منها ، وتحجب الشبكة اللحاظ الفتاكة .

ووقفت أقلب الطرف فى أقمشة النايلون والأقمشة المرصعة بالترتر والخرز والورد المجسم وأنا مذهول . واحتلت رأسى صورة راقصة عارية لا تسترها

إلا غلالة رقيقة من النايلون تدور حول نافورة فى قصر أعمدته وعقوده من الطراز العربى .

ووصلت إلى معرض للسجاد العجمى ، وأطلت النظر إلى سجادة معلقة على الحائط ، وإذا بخيالى يطوى المسافات والسنين ، وإذا بى أرى نفسى فى خان الخليلى أرقب دكان تاجر سجاجيد عجمية من بعيد .. إنه دكان والد فاطمة ، وقد دلفت فاطمة إليه بعد أن طلبت منى أن أنتظرها حتى تعود .

وأقبلت فاطمة ترتدى ثوبا أزرق ، ولفت شعرها فى « إشارب » أزرق جميل ، ودنت منى مشرقة الوجه ، وراحت تشير لى برأسها أن أسبقها وألا أدنو منها ، حتى لا يرانا والدها الشيخ الذى وقف على باب دكانه يرقبها فى عطف حتى تختفى عن عينيه .

وخرجنا إلى الصاغة والتقينا ، وسرنا قليلا صامتين ، ثم قلت لها :

ـــ لم يعد يربطكم بإيران إلا السجاجيد العجمية .

فابتسمت وقالت :

ـــ كل أهلى هناك : أعمامى وأخوالى ، وأبناء أعمامى وأبناء أخوالى .

وصمتت قليلا ثم قالت فى زهو :

ـــ بعضهم فى طهران وبعضهم فى الهند .

ـــ وما الذى جاء بكم إلى مصر ؟

فقالت فى دهش :

ـــ إننى ولدت فى مصر .

ـــ أعرف ذلك ، بل وأذكر يوم مولدك . أقصد ما الذى جاء بأبيك إلى مصر ؟

ـــ كان أبى تاجرا ، وكان موسرا ، حدث أن بارت تجارته ، وأفلس فلم

يطق البقاء فى طهران . فحمل ما بقى عنده وهاجر إلى مصر . ونزل عند جدى وكان من طهران أيضا ، وكان قد سبقه فى الهجرة إلى مصر .

وعمل أبى مع جدى ، ورأى أمى فأحبها وخطبها وتزوجها .

فقلت لها مداعبا :

ـــ لولا إفلاس أبيك ما جئت إلى الوجود ، وما قدر لى أن أراك وأن أحبك .

وغضت من بصرها حياء ، وإن كانت السعادة ترقرقت فى وجنتيها .

* * *

وأفقت على صوت رنين منغم لصناجتين له طابعه المميز ، فخفق قلبى فى شدة وانتبهت مذعورا ، وتلفت أرى هل تبع جسمى روحى إلى الغورية ؟ ! لم تقع عيناى على بائع العرقسوس وإن كان الرنين يداعب أذنى ، فانطلقت كالمسحور إلى مبعث الصوت أدفع الناس بمنكبى ، وقد انبثق فى أعماق حنين عجيب .

ورأيته أمامى بقدره وأحزمته الجلد التى تشد القدر إلى بطنه ، والإزار المخطط بخطوط حمراء ، وساقيه العاريتين ، ونعاله الذى دس فيه قدميه ، وتفرست فى وجهه .. كانت ملامحه تنطق بأنه مصرى ، وعجزت اللحية الكثة التى أطلقها أن تخفى أصله .

واستشعرت فى تلك اللحظة أن هذا الرجل ليس غريبا عنى ، إنه قريب إلى نفسى ، حبيب إلى قلبى .. وسار الرجل وأنا أقتفى خطاه .. تجسم فيه الوطن الحبيب .

وغاب الرجل فى زحمة السوق ، ونظرت أتلفت فوقع بصرى على رجل جالس على مقعد قصير ، وأمامه لوز مقشور ولوز هندى أشبه بناب الإنسان ،

ولوب وفول ، وهفت نفسى إلى اللوز الهندى فاتجهت إلى الرجل ، وفى نفس الوقت اتجهت إليه امرأة وصاحبتها .

كانت المرأتان متسربلتين بذلك الثوب الذى يستر الجسم من الرأس إلى أخمص القدم ، وكانتا تنظران من الطاقة المفتوحة عند العينين المغطاة بشبكة ، وأخرجت إحداهما يدا بضة بيضاء فى أصبعها خواتم ، وأشارت إلى اللوز الهندى وقالت :

— إيش هذا ؟

فقال الرجل فى هدوء ، وإن كانت عيناه الجائعتان تتجولان فى اليد البيضاء والثوب النايلون الهفهاف الذى بدا من تحت الثوب الساتر :

— سن العجوز .

فقالت المرأة وهى تضحك ضحكة ناعمة مثيرة :

— ووين « حج » الشاب .

وسال لعاب الرجل ولمعت عيناه ، ودغدغت الضحكة الناعمة حواسى وزاد فى نعومتها الجفاف الذى أحيا فيه .

واشتريت قليلا من اللوز الهندى ، وانصرفت أفكر فى حرف القاف المسكين الذى سلبته بعض الشعوب العربية شخصيته وضمته إلى مملكة الهمزة ، واغتصبته شعوب أخرى لتضمه إلى مملكة الجيم ، إنه حرف مضطهد كالشعوب المغلوبة على أمرها ، تساق إلى هذا المعسكر أو ذاك قسرا لتذوب فيه كما يذوب الملح فى الماء ، وخطر لى خاطر ، لماذا لا يقوم أحد اللغويين الأحرار ويطالب بحق القاف فى الحياة ؟!

وانسبت فى دروب السوق أرنو إلى السيارات الفاخرة الرابضة أمام الدور القديمة فى الأزقة المنحدرة ، وإلى قطعان الماعز التى ترعى حولها أو تسند

ظهورها إليها . فكانت السيارات تبدو لعيني نشازا فى المنظر الشرق العتيق ، فكنت أغمض عيني أحيانا وأتصور مكانها جمالا أناخت ، لتكتمل فى ذهنى الصورة الصادقة التى انطبعت فى ضميرى منذ عشرات السنين .

وارتفع صوت المؤذن يؤذن بالمغرب ، فراح التجار ينشرون الشباك على حوانيتهم وينصرفون إلى المسجد وفى حركاتهم قلق وخوف ، يتلفتون مذعورين .. وتلفت أبحث عن مواطن الفزع ، فلمحت رجلا فى ثياب صفراء تشبه ثياب الجنود ، وضع فى فمه سواكا يلوكه وراح ينادى :

ـــ الصلاة .. الصلاة يا ولد .. صلوا الله يفتح عليكم .

كنت منطلقا إلى المسجد لأصلى ، ولكن ذلك « الآمر بالمعروف » جعلنى أتلكأ ، فأنا أبغض أن أساق إلى العبادة سوقا ، وأمقت أن يحاول إنسان أن يحول بينى وبينها ، فهذا أمر يتعلق بى وبالخالق ، ولا محل لثالث بيننا .

وكادت السوق أن تقفر ، والآمر بالمعروف يصول ويجول فيها منتفخ الأوداج مرفوع الرأس . كان يستشعر سلطانه ، وكان راضيا عن نفسه بعد أن حشر الناس حشرا فى المسجد ليعبدوا الله .

ودنا منى وقال :

ـــ الصلاة .. صلوا الله يفتح عليكم .

وتحرك شيطانى فقلت له :

ـــ وأنت : ألا تصلى ؟

ـــ أصلى بعد أن أنتهى من المرور فى السوق .

ـــ لن أصلى إلا معك .

وسار وأنا إلى جواره . وما قطعنا بضعة أمتار حتى ضاق بى ، فالتفت إلى وقال :

— ستفوت على نفسك ثواب الجماعة .

— إذن نعود معا إلى المسجد حتى لا يفوتك الثواب .

فقال فى صوت مشوب بغضب :

— لا يزال أمامى مرور .

فقلت فى إصرار :

— وأنا معك .

وانطلقنا وعرجنا إلى زقاق جانبى ، وهو يصيح فى التجار والمارين :

— الصلاة ، الصلاة يا ولد . .

وفر الجميع من أمامه كأرانب مذعورة ، وتدفقوا على المسجد ، وطاف بخاطرى أن بعضهم يرغمون على الصلاة دون وضوء .

وفاض كأس صبره فعبث فى لحيته ثم قال :

— بالله يا عمى اذهب .

فقلت فى إلحاح :

— وأنت ؟!

فقال فى صوت خافت :

— أستمر فى عملى الذى أعول منه أولادى .

— آه ! هذه وظيفة ! مهنة !

فقال وقد نفد صبره :

— شغل .. شغل .. روح الله يحنن عليك .

ولاك السواك فى قسوة ، وفطنت إلى أنه يريد أن يقول « الله يخرب بيتك » لولا بقية من حياء .

ودوت فى جوفى قهقهة ساخرة ، وإن ظلت شفتاى مزمومتين .

٦

راحت الأيام تمر على وتيرة واحدة ، ذهاب إلى العمل صباحا ، وعودة إلى الفندق بعد الظهر ، ووقت طويل يتقطر لحظة لحظة ، لا حركة ثائرة ولا هدف يثير العزائم ، ولا أصدقاء يقضون على ذلك الملل البغيض الذى صار طابع الحياة .

أصبحت أعيش فى أفكارى وأقلب صفحات الماضى . ولولا الذكريات التى كانت تنعش القلب لجف وتبخرت منه المشاعر والأحاسيس . مرت أمام عينى أيام طفولتى ، واجتررت أيام شبابى ، ورحت أطيل التأمل فيها ، فهى أحب الذكريات إلى النفس التى باتت فى خواء .

ملل .. ملل .. ملل ، ولا شيء غير الملل ، وعشت فى ذاتى ، فالحياة التى تنبض فى أغوارى تفوق كل ما حولى من حياة .

أقمت دنيا صاخبة فى نفسى : مباريات فى كرة القدم كنت بطلها المجلى ، وما أكثر الأهداف الرائعة التى أصبتها ، روايات سينمائية كنت أذكر طرفا منها وأقوم بنسج أغلبها من وحى خيالى ، ندوات أدبية ومساجلات بينى وبين زملائى . مشاهد غرامية تروى القلب الصادى .

وكنت أطلب من السائق اليمنى القمىء أن يمر علينا عصرا ، ليخرج بنا إلى المدينة نطوف أرجاءها لنقطع حبل الملل البغيض . إنه أول صديق لنا فى جدة ، وما كان لنا يد فى اختياره ، بل فرضته علينا المصادفات .

(وكان مساء)

عرفنا تاريخ المدينة منه ، وهو تاريخ عجيب ، مليء بالأخطاء ولا ريب ، وقد انطبعت تلك الأخطاء فى عقولنا ، وما ذنبنا ما دمنا لم نجد لنا دليلا غير ذلك اليمنى .

وقف بنا عند سور أبيض ، يحيط بخربة واسعة وقال :

— هنا قبر أمنا حواء .

— وهل حواء مدفونة هنا ؟

فقال فى تأكيد :

— نعم .. نعم .. إنها الجدة .

وزادنى حديث اليمنى حيرة ، كنت لا أدرى حقيقة اسم المدينة أهو جدة بضم الجيم ، أو جدة بكسرها ؟ فإذا به يسوق الدليل على فتحها ، فيفتح بذلك بابا جديدا لبلبلة أفكارى .

وطفق اليمنى يصف فى مبالغة طول حواء ، ويحدد مكان رأسها ومكان قدميها ، والتابعة تصغى إليه فى اهتمام ، وقد لاح فى وجهها إعجابها بعلمه الغزير ، وسرها أنها اكتشفت سرا جديدا ، فقد حجت من قبل ست مرات ولم تكن تدرى أن أمها حواء على مسيرة دقائق من ميناء جدة ، الذى كانت تهبط فيه .

وسارت السيارة بنا فى شوارع قفراء ، وأدار السائق اليمنى الراديو ، وراحت الأغانى المصرية تبدد الوحشة التى رانت علينا ، وما لبث خيالى أن شرد وراح يعدو وراء الذكريات الحبيبة :

رأيت نفسى فى شرفة منزلنا فى شارع النزهة أرقب منقبض النفس الأثاث الهابط من بيت العجم ، فقد استقر رأيهم على مغادرة الحى والانتقال إلى حى بعيد من الأحياء الجديدة التى كانت تتبلور فى القاهرة .

كنت أحس جفافا فى حلقى ، وقلقا يمور فى صدرى ، ورهبة من المستقبل ، وراحت أوهامى توسوس لى أن حبل الوداد الذى كان بينى وبين فاطمة قد انقطع ، فانخلع قلبى وراحت مشاعر الحب تعصف بى ، حتى كدت أهرول إلى دارها أتشبث بها .

ورحت أغدو وأروح فى الغرفة كليث جريح ، كنت أئن أنينا مكتوما ، وأصوات ترن فى أعماقى : أحبها .. أحبها ، وبدونها لن أعيش .

وعدت إلى الشرفة أنظر ، فألفيتها تلقى على بيتنا نظرة وداع ، فخفق قلبى فى شدة ، وأشرت إليها فى لهفة أن تنزل لمقابلتى . وتحركت لتلبى رغبتى ، فغادرت الغرفة كالعاصفة ، وهبطت فى الدرج قفزا ، وانسبت فى الطريق لا ألوى على شىء .

وانتظرت والقلق يستبد بى ، وجاءت فاطمة ، فلما دنت منى مدت يديها إلى فقبضت عليهما بيدى ، وقلت :

— فاطمة ، إننى لا أطيق هذا الفراق ، لا أستطيع أن أتصور أن ينقضى نهار دون أن أراك . فاطمة ، قولى إننا سنلتقى كل يوم كما كنا نلتقى ، قولى ...

فقالت فاطمة فى ثقة :

— وما الذى يحول بيننا وبين اللقاء ؟ . إننى أحبك .. وأحبك .. وسأظل أحبك .

وحاولت أن أتكلم ، ولكن خنقتنى عبراتى ، فقالت فاطمة :

— جمال .

وهممت أن أضمها إلى صدرى ، ولكننا كنا فى الطريق .

* * *

وارتفعت أصوات أبنائى فى السيارة ، وقالت زوجتى :

— جمال إلى أين سنذهب وقد جاء الليل ؟

— سنعود إلى الفندق .

وصاح الأولاد :

— لا .. لا .. كيلو عشرة .. كيلو عشرة .

وابتسم السائق اليمنى القميء ، وقال :

— كيلو عشرة .

وسار إلى طريق مكة .. إنه طريق مرصوف على جانبيه مبان حديثة بديعة ، والمصابيح الكهربية تبدد ظلامه ، وبلغنا أول الطريق ، فأشارت ابنتى الكبيرة إلى قصر غارق فى الأضواء وقالت :

— قصر الملك .

وراحت التابعة تسأل اليمنى القميء عما إذا كان قد دخله ؟ فنفى الرجل ذلك ، و لم يكتف بالنفي ، بل راح يصف دقائق القصور السبعة وما يدور فيها .

واستمرت السيارة تطوى الأرض حتى بلغنا غابة من الأشجار ، فصاح ابنى فى فرح :

— كيلو عشرة .. كيلو عشرة .

وكان هذا كل ما يبغيه ، وراحت الصغيرة تردد ما يقول ، ثم نادت على لأحملها وأضمها فى حجرى ، فمددت إليها يدى ورفعتها ووضعتها إلى جوارى وأنا أضمها إلىّ بذراعى ، وانبثقت فى جوفى مشاعر الحب والحنان .

وعدنا إلى الفندق ، وهبطنا من السيارة ، وأخرج السائق اليمنى من تحت مقعده حبحبا ، وهو بطيخة صغيرة سرعان ما تتحول إلى ماء بعد قطعها وقدمها إلى ابنى ، فأخرجت من جيبى عشرة ريالات ونفحته إياها .

لقد كثرت هداياه وترادفت ، وكثر خروج عشرات الريالات من جيبى .

٧

خلعت ثيابى كلها وتدثرت فى ثوب الإحرام الأبيض ، وقد أخرجت منه ذراعى العارية ، ودسست رجلى فى النعال ، ووقفت أرقب زوجتى وهى ترتدى ثيابها البيض ، وتضع الطرحة على رأسها . غاض لونها وانتشرت الصفرة فى صفحة وجهها ، فتدسست الشفقة فى فؤادى وانتشرت الرهبة فى جوفى ، كنت أخشى أن يجهدها السفر إلى مكة .

وأتمت إصلاح هندامها ، فذهبنا إلى غرفة الأولاد فإذا بها خالية . نفد صبر التابعة والأولاد فخرجوا ينتظروننا فى السيارة .

وشققنا طريقنا فى ممر الفندق ودلفنا إلى السيارة ، ركبت زوجتى بجوار التابعة ، وركبت بجوار السائق اليمنى ، وانسابت السيارة إلى مكة لنعتمر .

وتكلمت التابعة عن الحج ، وراحت تزكى مطوفا تعرفه ، فراح اليمنى يحدثها عن الخطة التى رسمها للحج ، قال :

ــ نترك جدة فى التاسع من ذى الحجة صباحا ، فنبلغ مكة قبل الحر . نطوف حول الكعبة ، ثم ننفر إلى عرفات ، ونجلس فى السيارة لا نغادرها ، ونبتهل إلى الله وندعوه ونحن فى السيارة . ومن عرفات ننطلق إلى منى نمضى الليل هناك ، فإذا ما أشرق الصباح نعود إلى جدة حيث نستريح ونمضى النهار فى بيوتنا ، وقبل المغرب نعود إلى منى نمضى الليل فيها . وهكذا نفعل فى أيام منى الثلاثة .

فقالت له التابعة :

ـــ أهذا حج ؟ أيقبل الحج إذا لم نستقر تحت خيمة ؟ والمطوف والدعاء ؟ حججت ست حجات و لم أر شيئا كهذا .

ونشبت معركة بينهما لم أصغ إليها . أحسست فى تلك اللحظة إحساسا غريبا ، وهمس فى أغوارى هامس أن ذلك اليمنى لن يحج معنا . وفكرت فى ذلك الهمس فلم أعرف له مصدرا ، إنه مجرد خاطر أضاء فى ذهنى كالبرق الخاطف وسرعان ما خبا .

ورميت ببصرى أمامى فإذا بالطريق الأسود ينساب فى الصحراء ، يبدو كمثلث يلتقى ضلعاه فى الأفق البعيد ، وكلما أوغلنا فيه بعد رأسه بمقدار ما أوغلنا ، وقامت على جانبيه دور فاخرة أنيقة تنطق بنعمة البترول .

وخلفنا العمران وراءنا ، ومرقنا كالسهم فى الفضاء . وجعلت أتلفت أملأ عينى من المشهد الفريد : جبال على مدى البصر تباينت ألوانها ، وما كان جبل يشبه الآخر فى تكوينه ، وتمنيت فى تلك اللحظة أن أكون محللا كيمائيا أعكف على تلك الجبال ، وأكشف أسرارها ، فما أحسب أن الله خلقها عبثا .

ومررنا على المحاط التى أعدت لاستقبال الحجيج مر الكرام ، إنها مقاهى متواضعة : سقيفة من سعف النخيل انتثرت تحتها أرائك عالية من خشب لم يهذب وحبال مجدولة ، كان الحجاج يجلسون عليها ، وفى الليل تستخدم أسرة .

ومد اليمنى يده إلى الراديو وأداره ، فإذا بصوت ناعم ينبعث فى الصحراء يردد : « انت وبس اللى حبيبى » ، وإذا بى أدندن مع الأغنية وأنا محرم .

وهمست : « انت وبس اللى حبيبى » « انت وبس اللى حبيبى » وراح صوت يخفت ، وشرد بصرى وراحت الذكريات تطفو على ذهنى .

رأيت فاطمة تقدم إلى تذكرة ، فتناولتها منها وأنا أقول :

ـــ ما هذه ؟

ـــ حفلة المرشدات فى النادى الأهلى .

ثم قالت لتغريتى :

ـــ سأكون نجم الحفلة .

فقلت لها مداعبا :

ـــ قال صديق لصديقه : « ذكرت اليوم فى جميع الصحف » فقال له صديقه : « بأية مناسبة » ، قال : « ذكرت الصحف أن تعداد مصر بلغ سبعة عشر مليونا ، فأنا من هؤلاء الملايين » .. كذلك أنت ستكونين مرشدة من مئات المرشدات .

فقالت وهى تشمخ بأنفها فيبرز صدرها الممتلىء المكور :

ـــ لا ، سأكون نجم الحفلة ، سألقى وحدى نشيد المرشدات .

فقلت وأنا أقطب :

ـــ بدأت أغار .

ـــ من ماذا ؟

ـــ من جميع المدعوين الذين سيلتذون بصوتك ، كنت أشتهى أن تظل هذه المتعة وقفا على .

فقالت وهى تبتسم :

ـــ ستظل طوال حياتك أنانيا .

فقلت وأنا أدنو منها :

ـــ أن يستحوذ الرجل وحده على جميع مفاتن من يهوى أنانية محببة ، إننى لا أقر شيوع الاستمتاع بمفاتن من أحب .

فقالت :

ـــ روحك ليست روح فنان ، الفنان الأصيل يهب كل ما يملك من مواهب للناس .. يضفى جمال روحه على الكون .. إنه شعلة تحترق لينير للبشر

سبيلهم .

— مرحبا بالفن لو كانت رسالته أن أحترق أنا فى سبيل المجموع ، أما إذا كانت رسالته أن أعرض زوجتى عارية على الناس لأنها صاحبة أجمل جسم فى الوجود ، فأنا أول الكافرين .

— الفرق بين أن تعرض جسمها وأن تسعد الناس بجمال صوتها كالفرق بين الجسد والروح .

— أريد الجسد والروح معا ، أريدهما لى وحدى .

— من يريد لا يطلب ما يريد ، بل يأخذ ما يريد .

— سأغتصبك اغتصابا من النادى الأهلى .

— ليس لك حق الأخذ بعد .

— لم أقل آخذ ، بل قلت أغتصب .

فقالت وهى تضحك فى مرح :

— فى البلد حكومة ، تضرب على يد المغتصبين .

فقلت فى استخفاف :

— بعد أن يغتصبوا .

— الحكومة ترغمهم على أن يعيدوا ما اغتصبوه .

— هناك أشياء تغتصب ليس فى الوجود قوة تستطيع إعادتها .

فقالت وهى تشيح بوجهها :

— ما تزال رجل الغابة ، تفكر بعقلية جدك .

— بالعقلية التى تحبها المرأة ، وإن تظاهرت بإنكارها .

— ليست كل النساء سواء .

— كلهن حواء .

فقالت ساخرة :

ـــ وكل الرجال آدم الساذج الذى أغرته حواء حتى أخرجته من الجنة .

ـــ الرجال جميعا يعيشون على أمل العودة إلى الجنة .

فقالت فاطمة فى صوت خافت :

ـــ جنة الحب .

ووقفت السيارة عند نقطة حراسة ، وقال الجندى السعودى :

ـــ جوازات .

فانتبهت وأبرزت جوازات السفر ، وقرأ أسماءنا وفحص عن دياناتنا ، ولما شهدت الجوازات أننا مسلمون مررنا بسلام ، فقد بلغنا الحد الذى لا يجوز لغير المسلم اجتيازه .

ولاح لنا حائطان على جانبى الطريق طليا بحبر مزهر،إنهما الحد الفاصل بين الحل والحرم . وتجاوزناهما فأصبحنا فى أم القرى التى يأمن فيها الطير ويحرم فيها الصيد وسفك الدم ، ولكن ما إن أوغلنا فيها قليلا حتى وجدنا غزالين مقتولين . كانا يمرحان فى الليل آمنين كما اعتاد أجدادهما أن يفعلن من مئات السنين ، ولكن بهر نور السيارات أبصارهما فوقفا مذهولين لتقضى عليهما السيارة المنقضة . اقترفت المدنية الحديثة شرورها حتى فى مكة المكرمة التى يأمن فيها الطير والوحوش .

ولاحت أرباض مكة : الدور شيدت على سفوح الجبال ، وقامت دور متواضعة وشمخت بجوارها دور حديثة . وبلغنا قبوا من الحجر فمد اليمنى يده وأغلق الراديو ، ورفعت صوتى بالتلبية فغشيتنى رهبة ، وسبحت شفتاى بحمد الله .

٨

وانسابت السيارة فى طرقات عتيقة ، واجتازت أزقة ودروبا ، وبلغنا عين زبيدة ، ورأينا رجالا يدلون فيها الدلاء ويرفعونها ويصبون الماء فى صفائح ، وتناثرت على جوانب الطريق حوانيت متواضعة ، فاستشعرت خيبة أمل .

وبلغت السيارة الحرم فهبطنا منها ، وخف إلينا صبيان يعرضون علينا أن يطوفوا بنا وأن يلقنونا الأدعية ، ووقع اختيار زوجتى على طفل صغير لا تزيد سنه على سبع سنوات . وسار أمامنا يقودنا .

ووقفنا أمام الحجر الأسود ننوى طواف العمرة ، وكانت ابنتى الصغيرة وابنى يضعان على رأسيهما « كاسكتة » من القماش عليها شجرة الأرز . وأقبل شاب قد أطلق لحيته ولف على رأسه عمامة ولبس فوق جلبابه جاكتة ، وقال لى فى غضب :

ـــ إنك فى بيت الله الحرام .

ونظرت إليه مفتوح العينين والدهش فى وجهى ، لم أكن أدرى سبب ثورته ، قال وهو يشير إلى « الكاسكتة » :

ـــ هذا حرام . هذا تشبه بالكفار .

فقلت له وأنا أشير إلى جاكتته الصوف التى كان يلبسها فوق جلبابه الأبيض :

ـــ أكان الرسول يلبس جاكتة مثل هذه ؟!

وتركنى وانصرف وهو يقول فى صوت خافت :

— كويفر .

وبدأ الصبى الصغير يدعو ونحن نردد الدعاء خلفه وتطوف بالكعبة سبعا ، وانتهى الطواف فذهبنا إلى بئر زمزم ، إنها على بعد خطوات من الكعبة ، وشربنا من مائها ، وأبت التابعة إلا أن تصب جردلا منها على ثيابها .

وقادنا الطفل إلى المسعى لنسعى بين الصفا والمروة ، وعند باب الخروج التف المتسولون حولنا ، وأردنا أن تفك بعض النقود ، وتطوع أحدهم أن يؤدى هذه الخدمة ففك لنا الريال بثمانية عشر قرشا سعوديا بينما سعره الرسمى اثنان وعشرون قرشا . استحل لنفسه عشرين فى المائة ربا على باب أقدس بقعة .

وخرجنا إلى المسعى فإذا « بالبلدوزر » الجبار يكتسح البيوت القائمة عند أقدام جبل أبى قبيس اكتساحا ، فقد تقرر توسعة الحرم وإزالة الحوانيت التى كانت على جانبى المسعى ، والتى كثيرا ما كانت تعوق الحجاج عن سعيهم .

ووقفنا على كومة من التراب عند الصفا ، ووقف الصبى الصغير يلقننا الدعاء . ووجدت زوجتى لن تقوى على السعى على قدميها فاكتريت لها عربة يدفعها رجل ، واكتريت للأولاد عربة أخرى .

وبدأنا السعى ، فألفينا أعمدة من الأسمنت المسلح صبت ، وسقفا للمسعى يصب بالأسمنت المسلح ، والماء يتساقط علينا ونحن فى غدونا ورواحنا بين الصفا والمروة .

وأراد الطفل الصغير أن يتم الشعائر ، وأن يحتم علينا أن نرقى الصفا وأن نرقى المروة ، لم تكن ذمته قد فسدت بعد . وضايق ذلك الرجل الذى يدفع عربة زوجتى فلكز الصبى وأشار له من طرف خفى أن « يكلفت » حتى تتاح لهم

فرصة اقتناص زبائن أخر ! كنا لا نزيد فى نظرهم على سلعة .

ولمحت أثناء سعيى باكستانيا طالت لحيته وابيضت شعراتها يهرول وفى وجهه إيمان عميق ، كان أول وجه قرأت فيه الإيمان بما يفعل . وهزنى منظره فرحت أهرول معه .

وعدنا إلى الحرم وجلسنا على بساط وثير ننتظر الظهر والعصر ، وراح الأولاد يعدون ويلعبون فى مرح ، وجعلت أقرأ ما تيسر من القرآن ، وما أسرع أن شرد ذهنى ، وراح يقلب صفحات الماضى .

رأيت نفسى بعد أن نجحت فى البكالوريوس أرقب يوم الخميس فى لهفة وشوق ، فهو اليوم الذى اتفقنا على أن نجعله يوم لقائنا . وجاء اليوم الحبيب ، وأسرعت قبل الموعد أنتظر فاطمة ، أمد بصرى إلى الطريق ، وأنظر بين الفينة والفينة إلى معصمى .

وأقبلت فاطمة فهرولت إليها . وقلت لها وقلبى يرقص طربا :

ـــ قولى لى : مبارك .

فقالت وقد رفعت حاجبيها دهشة .

ـــ مبارك .

وقبل أن تفتح فمها تسألنى عما جرى قلت فى نشوة :

ـــ نجحت .. انتهت العقبات التى كانت تقف فى سبيل سعادتنا ، سأجد عملا .. سنتزوج ونبنى بيتنا .. سيكون أسعد بيت .

ولم تنبس بكلمة وطفرت الدموع من مآقيها ، وفاضت سعادتى وترقرق الدمع فى عينى ورحت أردد كالمحموم :

ـــ سنتزوج ، ولن نفترق بعدها أبدا ، وسأحبك .. وأظل أحبك ... أحبك إلى الأبد ... حتى الموت لن يقهر حبنا .

والتفت إليها وقلت :

ـــ لماذا هذا الصمت ؟ تكلمي .. غني .. قولي أي شيء .. هذا أسعد يوم في حياتنا .

وقالت فاطمة كالحالمة :

ـــ حتى الموت لن يقهر حبنا .

وفزعت من الأفكار التي احتلت رأسي في الحرم ، فأحسست كأن إبرا تخز روحي ، وأخذت أرقب حمام الحمى وهو يلتقط الحب الذى نثره الناس له ، فألفيته رمادى اللون فى ذيله خطوط سوداء ، لا فرق بين حمامة وحمامة كأنه إنتاج وفير من إنتاج المصانع الحديثة .

ومددت بصرى إلى الكعبة التى لا ينقطع الطواف حولها فى الليل أو فى النهار ، فإذا بها بناية عالية مكعبة الشكل لها باب مرتفع يقابل مقام إبراهيم وبئر زمزم ، تكسوها أستار سود كتب فى نسيجها « لا إله إلا الله محمد رسول الله » وزينت بآيات من القرآن .

وأغمضت عينى وأوغل خيالى فى جوف الزمن ، فإذا به يتخيل الكعبة فى عهد الرسول : الحرم أصغر حجما ، لا بسط فاخرة ولا أضواء كهربية متألقة ، فالنور فى القلوب ... وغابت مشاهد الحرم من خيالى وعادت فاطمة لتحتل تفكيرى ، ولكنني لم أستسلم لطيفها الزائر بل رحت أجاهد أن أحول أفكارى وجهة أخرى .

مددت بصرى إلى حجر إسماعيل وجعلت أفكر فى أبى العرب ، وأطرقت ساهما فهمس فى أغوارى صوت ، وهتف فى أرجائى هاتف يقول إن هاجر هى صاحبة ذلك الصوت فخشعت ، قالت :

ـــ أيها القادم من بلادى ، سلاما وإن لم تقرئنى السلام ، طفت بالبيت

سبعا ومررت بقبري سبعا ولم أخطر لك على بال ، ما بالك قد نسيت هاجر أختك المصرية ؟ ما بالك قد نسيت أول من جاءت إلى البيت المحرم من بلادك ؟ وما بالك قد ذكرت إسماعيل أبا العرب ولم تذكر أنه ابن أختكم وأنكم أخواله ؟

لماذا لم تفكر فى حكمة أن اصطفانى الله لخليله ؟ ولماذا اختارنى من مصر ؟ ألا ترى أن الله أراد منذ وطئت قدماى الأرض الطاهرة أن يربط إلى الأبد بينكم وبين بيته المحرم ؟

أنتم أخوال هذه الأمة ، فما بالكم تطوفون حول البيت العتيق ولا تذكرون أختكم ، من كانت أول مسلمة فى مكة وأم المسلمين جميعا ؟ فيأيها القادمون من بلادى أقرئونى السلام ، واذكرونى كلما طاف منكم حول البيت طائف .

وتلاشى الصوت وأنا مطرق ، ثم رفعت رأسى ومددت بصرى إلى حجر إسماعيل حيث ترقد هاجر ، وإذا بى أقول فى خشوع :

— السلام عليك أيتها الأخت العزيزة .

٩

ومرت الأسابيع ، وعلمت من الشاب الجالس خلف مكتبه عند مدخل الفندق أن أيام الضيافة ثلاثة أيام ، وأن علىّ أن أسدد فى نهاية الشهر ما استحق على ، وأن أجر الغرفتين فى الليلة الواحدة مائة وأربعون ريالا ، أى أربعة عشر جنيها مصريا !

وهرعت إلى الوزارة ألحف فى تجهيز البيت، وسمعت وعدا جديدا أضفته إلى الوعود السابقة ، وأخذت أفكر فيما افعله لو انقضى الشهر وطالبنى الفندق بسداد ما استحق على وليس معى نقود ، فالحكومة المصرية لا تسمح للمسافر أن يأخذ معه أكثر من عشرين جنيها ، وقد ينقضى شهر آخر قبل أن تنتهى إدارة المحاسبة من تحديد الضرائب والزكاة الشرعية التى تقتطع من راتبى ، وبعدها نستطيع أن نصرف ما أستحقه ، وبت فى حيرة دفعتنى إلى ما كنت أعتقد أننى لن ألجأ إليه يوما ، أن أدخل فى مساومات مادية .

وكتبت للوزارة أن تسدد إيجار الغرفتين فهى مسئولة عن تدبير إقامتى ، وأن تقوم بسداد ثمن الأكل والمصاريف الأخرى على أن تخصم من استحقاق .

وجاء يوم مغادرتنا الفندق فوقعت على كشف الحساب . كان ما على أن أتحمله نظير الطعام فى شهر واحد مائتين وخمسين جنيها مصريا .

وطفقنا نجمع حوائجنا وندسها فى الحقائب ، وأقبلت التابعة تميل يمنة ويسرة فى سيرها ، وما كان ميلها دلالا بل من أثر الكبر فقد تجاوزت السبعين من عمرها ، ترتدى جلبابا أسود ، وتعصب رأسها بمنديل كان أسود يوما يحجب شعرها الذى كان أشبه بالكتان ، ومالت على إحدى الحقائب وتظاهرت بأنها تحاول حملها ، ثم قالت :

— راحت العافية .

وخرجت تنادى خدم الفندق جميعهم . كانت صاحبة نشاط خاص ، وإن الفندق لأضيق من أن يتسع لنشاطها . ولقد قصرت همتها فيه على الذهاب إلى المطبخ ومحادثة الطاهى ، والعودة من عنده وهى تخفى بعض اللفائف فى طيات ثيابها ، وكانت تتناول الطيبات فى غفلة منا فإذا ما قدمنا إليها الطعام أقسمت

بأغلظ الأيمان أنها شبعانة ، وحمدت الله على القناعة .

وجاءت تتمايل وخلفها خدم الفندق جميعهم ، ومال الرجال يحمل كل منهم حقيبة ، ومددت يدى فى جيبى وأخرجت حافظة نقودى ، ونفحت كلا منهم مبلغا طيبا ، لا على الخدمات التى أسدوها إلينا بل ابتهاجا بمغادرة الفندق .

وذهبت إلى الردهة الخارجية أنتظر حضور زوجتى والتابعة ، فقد خف الأولاد مسرورين إلى السيارة ، وجعلوا يتسامرون مع السائق اليمنى القمىء .

ووقعت عيناى على شابة مصرية فى الخامسة والعشرين تنم نظراتها عن خفة ، جلست إلى جوار شاب أسمر واسع العينين غزير الشعر كث اللحية ، وما إن رأتنى حتى قالت فى لهجة مصرية :

— كم الساعة من فضلك ؟

فنظرت إلى الساعة المثبتة فى معصمى وقلت :

— التاسعة صباحا .

فقال لها زوجها السعودى :

— ألم أقل لك ! .

فقالت هى فى إصرار :

— الساعة عندى الثامنة ، ضبطتها على راديو مصر .

فقلت لها فى هدوء :

— هناك فرق بين الزمن هنا والزمن فى مصر .

فقالت فى خفة :

— لا يهمنى هذا الفرق ، كل ما يهمنى أن أعرف الزمن فى مصر .

ــ وماذا يهمك من الزمن فى مصر وأنت هنا ؟!

ــ أعرف إذا كان الأولاد قد استيقظوا أو ناموا أو أكلوا .

وصمتت قليلا وقالت :

ــ جئنا نزور أهله وسنعود توا .. أولادى .. أوحشونى أولادى .

وشرد ذهنى وانطلق إلى مصر ، وإذا بصور أبنائى تمر أمام مخيلتى كشريط سينمائى فيخفق القلب شوقا وحنانا ، ويجف الحلق وتدمع العين .

وأقبلت زوجتى وخلفها التابعة وخلفهما رجل نوبى يرتدى قفطانا أبيض وحزاما أحمر وعمامة بيضاء ، ودنت التابعة منى وقالت وهى تشير إلى النوبى :

ــ أعطيتهم جميعا و لم تعط هذا . أعطه شيئا .

وامتثلت لأوامرها ، فمددت يدى فى جيبى وأخرجت ورقة من فئة الخمسة الريالات ووضعتها فى يده .

و لم تكتف بذلك بل قالت :

ــ والطباخ .

فأعطيتها خمسة ريالات أخرى فأخذتها وذهبت تتمايل على الجانبين .

وهممنا بالانصراف فنظرت إلى ساعة معصمى وإلى الساعة المعلقة فى ردهة الفندق ، فوجدت فرقا كبيرا فى الزمن ، وإنه لمن العسير أن تجد ساعتين يحددان زمنا واحدا فى جدة ، فساعة تحدد الزمن العربى ، وأخرى تشير إلى الزمن العربى حسب التوقيت الأفرنجى ، وثالثة تحدد الزمن العالمى ، وساعة الحسناء المصرية ضبطت على راديو مصر . إن الساعات فى المملكة العربية تتحدث بأكثر من لغة . تبلبلت ألسنتها كما تبلبلت ألسنة البشر فى بابل .

ودلفنا إلى السيارة وانتظرنا التابعة ، فجاءت تتمايل وهمت بدخول السيارة

وهى حريصة على ما فى جيوبها ، فقد ملأها الطاهى بالحلوى .

وانطلقنا إلى مسكننا الجديد ، وراح السائق اليمنى يدور على الحوانيت لنشترى كبريتا وغازا وبعض الأوانى ، وقلة كبيرة عجيبة طويلة الرقبة منتفخة البطن ضيقة القاعدة لا أتصور كيف يمكن أن تستقر عليها ، ولو كان للقلل مهنة لكانت هذه القلة بهلوانا أو راقصة باليه .

وبلغنا العمارة الضخمة الفخمة ، وسرنا إلى جوارها بالسيارة حتى لاحت صفحة البحر الرقراقة ، وهبت النسائم الندية تنعش أفئدتنا . ووقفت السيارة عند آخر مدخل لأفخم عمارة فى جدة ، ورحنا نرق الدرج ، واتجهنا إلى شقتنا الواقعة فى الطبقة الأولى ودخلنا ، ودخل السائق اليمنى يحمل ما اشتريناه ، وتلفت أبحث عن التابعة فلم أجدها ، وفطنت إلى أنها ذهبت تمارس نشاطها بعد أن أطلقت من سجن الفندق .

توجهت إلى المطبخ فلم أجد به سوى نضد من الخشب الأبيض ، فأخذت أدق مسامير فى الحائط وأمد بينها شريطا رفيعا وعلقت الملاعق والشوك والسكاكين بين الحائط والشريط ، واستخدمت المسامير مشاجب للأوانى والمغارف وإبريق الشاى ..

وتلفت أنقب عن مكان أضع فيه الصحاف فلم أجد ، فأحضرت أقفاصا من الجريد وضعتها بعضها فوق بعض وكونت منها صوانا !

وانتهيت من تنسيق المطبخ وذهبت أنسق غرفة مكتبى ، إنها غرفة لها شباك يطل على البحر الأحمر وباب من الحديد يقود إلى شرفة طويلة تطل على البحر وتواجه الشام ، وإن مواجهة الشقة للشام يجعلها مرغوبة لهبوب نسائم الصبا .

ووجدت الغرفة خالية يملأ الهواء فضاءها فذهبت إلى غرفة أخرى

وأحضرت نضدا من الصاج يستعمل فى الحدائق غالبا ووضعته فى وسط الغرفة ، ووضعت كرسيا من الخيزران خلفه ، ثم تنفست الصعداء حمدا .

ومس أذنى صوت أم كلثوم تغنى : « .. وبناة الأهرام فى سالف الدهر ... » فخرجت إلى الشرفة ونظرت ، فألفيت خيمة مخططة بخطوط سوداء وبيضاء وحمراء مثبتة فى الشرفة بسطت على قوائم وعوارض من حديد ، وكانت فى الخيمة فرجة تظهر قطعة من بساط أحمر فوقه منضدة حولها كراسى أنيقة من القش ، وأمام المنضدة سور قصير رصفت الأرض خلفه حتى نهاية الشاطئ ، وتناثرت فى الساحة التى قام فى وسطها عمود كهربى فاخر ، مناضد مستديرة فى وسطها ثقوب لتثبيت شماسى البلاج الكبيرة المخططة ، وجلس حول المناضد رجال يرتدون الجلابيب البيض وعلى رءوسهم طواقى أو شيلان من قماش أبيض رقيق .

إنه كازينو فى جدة !

ومددت بصرى إلى البحر فوجدت مراكب صغيرة راسية عند الشاطئ ارتفعت صواريها ، وهى قابعة فى ذلة فقد دالت دولتها بعد أن عمقت الميناء وأصبحت السفينة الكبيرة ترسو على أرصفتها .

وعلى بعد أمتار من الشاطئ صفت بعض السفن الصغيرة ، ونامت بعضها على جوانبها .. لقد هانت حتى صار يحدد بها نهاية الماء الضحل وبداية البحر العميق ، ورميت ببصرى بعيدا إلى الميناء فرأيت بواخر قليلة تنفث دخانها ، فقد أغلقت قناة السويس عقب الاعتداء الغادر على مصر ، وشلت الملاحة فى البحر الأحمر .

وجلست على كرسى فى الشرفة ومددت بصرى إلى البحر ، وشرد ذهنى :

فإذا بى أسير أنا وفاطمة على جسر قصر النيل ، قلت لها :

— ما رأيك فى أن نأخذ زورقا فى النيل أنا وأنت وعودك ، ولا شىء غير الماء والسماء وصوتك الحنون ؟

فقالت وهى تضحك :

— لو غرقنا لكانت فضيحة مجلجلة .

— أسبوعان ثم نظهر معا فى أى مكان دون أن نخشى كلام الناس ، أسبوعان وتصبح خطيبا وخطيبة .

وصمتت قليلا ثم قلت :

— هاتى أصبعك .

فقالت فى ارتباك :

— لماذا ؟

— لأقيس أصبعك لتكون الدبلة مضبوطة .

وترددت فمددت يدى وتناولت أصبعها بين أصابعى ، ورحت أقيسه بقطعة من الورق .

والتقت عيوننا وخرست ألسنتنا ، كان حديث العيون أفصح من كل بيان . آه لو كنا وحيدين ، لارتمى كل منا فى أحضان الآخر وغبنا عن الوجود .

وسرنا صامتين برهة ، نسعد بالإحساسات اللذيذة التى فاضت من قلوبنا وأخذت تدغدغ حواسنا .

وأحسست رغبة فى أن أغذى المشاعر الرقراقة التى كانت تنبثق من أطيب كنوز أعماقنا ، فقلت لها :

— سأطلب أن تكون ليلة زفافنا بعد شهر من إعلان خطبتنا ، نفد صبرى ، و لم أعد أطيق الانتظار .

فقالت فى دلال :

— مهلا . .

— ولماذا أتمهل ؟ أصبحت موظفا أستطيع أن أكون أسرة ، وما أيسر أن أجد شقة خالية تليق بنا ، وإن تجهيز الشقة أمر ميسور ، وما أكثر السجاجيد العجمية عندكم .

وضحكت فاطمة وقالت :

— هل تعلم أننى أقوم بصنع سجادة عجمية منذ كنت طفلة ؟

وانفجرت ضاحكا ، فنظرت إلىّ فى استغراب وقالت :

— ما الذى جعلك تضحك هكذا ؟

— خيل إلى وأنت تقولين هل تعلم ؟ أنك ستسردين بعض الحقائق العلمية عن المسافة بين الأرض والقمر وعدد نجوم السماء ، كما تفعل بعض المجلات الأسبوعية .

وانطلقنا والنشوة تمور بين جوانحنا ، وأنا أقول مؤكدا :

— سنتزوج بعد شهر من إعلان خطبتنا ، ولن يحول بيننا وبين إتمام زواجنا حائل ، إلا أن يدك هتلر القاهرة .

وصك أذنى صوت انهيار زجاج وبكاء ابنتى الصغيرة ، فهرولت نحو الصوت فألفيت لوحا كبيرا من الزجاج قد سقط فجأة تحت أقدام الصغيرة ، ولو تقدمت خطوة واحدة قبل تحطمه لقضى عليها .

وفحصت الباب الكبير الذى أبى لوح الزجاج أن يستمر فى معاشرته ،

فرأيت أن الرباط لم يكن بينهما وثيقا ، ثبت الزجاج فى الباب من أعلى فقط ، بينا تركت جوانبه وقاعدته بلا تثبيت .

واتجهت إلى المطبخ لأحضر ما أجمع فيه الزجاج المتناثر ، ووضعت يدى على مقبض الباب لأفتحه ، فإذا بالمقبض ينفصل فى يدى ، وجعلت أعالج الباب حتى انفتح ، وأحضرت صفيحة فارغة ، وتعاونت أنا وزوجتى على جمع الزجاج المتناثر .

وذهبت زوجتى وفتحت النافذة ، وثبتت ضلفتيها بالمشابك الحديدية ، وسرعان ما أغلق الهواء النافذة ، فخفت زوجتى إليها فوجدت أن المشابك انتزعت حلقاتها التى ثبتت من حوائطها ، فقالت زوجتى فى ضيق :

— هذا بيت صنع من حلوى .

فقلت لها منكرا :

— هذه أفخم عمارة فى جدة ، كلفها صاحبها مليونا من الجنيهات المصرية .

ودق جرس الباب الخارجى فأسرعت ابنتى الكبيرة وفتحته ، فدخل البواب الحضرمى يحمل سلما طويلا ليركب مصابيح الكهربا التى عجزنا عن تركيبها .

وتركت ابنتى الباب مفتوحا ، وإذا بالهواء يدفق فى شدة فيغلق وهو يصفق تصفيقا شديدا ، والتفت على الصوت فرأيت قفل الباب انتزع من مكانه .. فارق الباب ولولا مسمار واحد أبقى على الود القديم لسقط القفل على الأرض .

وفحصت الباب فألفيته مفرغا قد حشى بورق مقوى !

وأسندت زوجتى ظهرها إلى الحائط ، فالتمست منها ألا تفعل خشية أن يتقوض الحائط ، فما عدت أثق فى أبواب الشقة وشبابيكها وحوائطها ، بعد أن عجزت عن أن تحافظ على كرامتها يوما واحدا .

١٠

وانتهينا من تنسيق الشقة ، ومشى التعب إلينا ، وبان الجهد فى وجه زوجتى التى أمضت النهار فى غدو ورواح وكنس ومسح وتنظيف على الرغم من مرضها .

ودفعت التابعة الباب الخارجى ودخلت وهى تقول :

— البيت كله مصريون ، أمامنا نادى بنك مصر ، والشقة التى فوقنا خالية ، أما الشقة التى فوق الشقة المجاورة لنا ففيها محمد أفندى ، وهو يعمل فى البنك ويتقاضى مائة وخمسين جنيها ، وزوجته شابة لطيفة ، وأولاده ظراف ، أما أمه فهى كالبومة لم أرتح إليها . والشقة الأخرى يسكنها إسماعيل بك ، وزوجته ست صحيح ..

وتحدثت فى إسهاب عن الجيران جميعهم ، وذكرت دقائق حياتهم ، وسخرت من أغلبهم ، وحددت مرتبات الرجال وهوايات النساء ، ولما يمض عليها فى البيت ساعات ، بدأت تمارس نشاطها ، وهى قديرة غاية القدرة أن تستل من الأطفال الأسرار ، وأن تدفع الرجال والنساء إلى نبش أسرار الآخرين ، ولو أنصفها زمانها لكانت دعامة من دعائم المخابرات .

وانتهت من اغتياب الناس ، ثم دخلت غرفتها وأغلقتها عليها حتى لا يشغلها

الأولاد عن تعبدها !

وغادرت الشقة ، وهبطت لأقف قليلا على الشاطئ ألتقط أنفاسى ، وإذا بأولادى يجرون خلفى ويتشبثون بى ، فأخذتهم معى ورحنا نتمشى على الشريط المترب الضيق المنحصر بين البحر والكازينو .

وكانت فى يد الصغيرة قطعة من الخبز فراحت تفتتها وتلقى بها فى البحر ، وضاقت بالتفتيت فألقت باقى الكسرة فى الماء ، وراح السمك يتقاتل على الفتات بينما كان يرتطم بالكسرة ، كان أشبه بالبشر الذين يتشاحنون على القطرات بينما النبع المتدفق على مرمى حجر منهم .

وراح قرص الشمس الأحمر يغيب فى الأفق البعيد ، وقد اصطبغ الماء بألوان حمراء وصفراء وذهبية ، وطفقت المراكب تغدو وتروح فى الشفق ناشرة أشرعتها البيضاء ، وأنا أملأ عينى بالمشهد الطريف .

وبدأ مولد ليلة جديدة فطلبت من أولادى الصعود ، وسرت أضرب فى الطريق وأنا مطرق . لم تكن حولى حياة تشغلنى عن نفسى فكنت أمضى أغلب وقتى مع أفكارى ، وأعيش فى ذكرياتى ، ولكن ما بال فاطمة تملأ آفاق منذ وطأت قدماى جدة ، وما كانت تخطر لى على بال من سنين طويلة ؟

أما زلت أحبها على الرغم من السنين التى تقضت والتى تكاد تبلـغ العشرين ؟ هل نكأ الفراغ الذى أحياه جرح قلبى الذى اندمل ؟ وما بال فؤادى يخفق كما كان يخفق أيام شبابى ، ودبيب النمل يسرى فى إحساساتى كلما فكرت فيها ؟ إننى حائر لا أدرى حقيقة مشاعرى ، كل ما أدريه أنها اللحن الناقص فى حياتى ، القصيدة البتراء التى نظم القدر مطلعها ثم أهملها . أأنصفنى قدرى أم أساء إلى ؟ لا أستطيع أن أقول . كل ما أعرفه أننى روضت نفسى على

الرضا بما تأتى به المقادير .

رأيت نفسى أهرع إلى مكان اللقاء مغتبطا ، ووافى ميعاد حضورها ولكنها لم تظهر ، وجعلت أمد بصرى فى قلق ، فهذه أول مرة تخلف فاطمة ميعادا بيننا . وراح الوقت يمر وأنا أتململ فى ضجر ، وأغدو وأروح فى جزع . وتقضت ساعة وبعض ساعة فانصرفت وأنا أتلفت . أحس طعم الصاب فى فمى .

وراحت الأفكار تنثال على رأسى : لعلها مرضت ، لعل حادثا وقع لها ، لعل أمها طلبت منها أن تذهب معها فى زياراتها ، وسرت أتمس لها المعاذير ، ولم يخطر لى على بال أنها هجرتنى .

ومر الأسبوع بغيضا ، وجاء يوم الخميس فأسرعت إلى مكان لقائنا أنتظر وقد تجدد الأمل ، ولكن مر ميعاد حضورها دون أن تأتى ، فاعتصر قلبى ، وأظلمت الدنيا فى عينى ، وملأنى غيظ شديد ، وانتشرت فى جوفى رهبة من المجهول ، واستبدت بى مشاعرى وضاق بها صدرى ، ولولا الدموع التى أطفأت نار لوعتى لاشتعلت النار فى جوفى .

إننى أحبها ، وإن جذور ذلك الحب تغلغلت فى روحى وتشعبت فى ضميرى وسرت فى دمى .

ورحت أنقب عنها هناك ، وقفت الساعات الطويلة أمام دارها فى الليل وفى النهار ، ذهبت إلى مدرستها أتفرس فى وجوه الداخلات والخارجات ، وأخذت أطوف بكل مكان ذهبنا إليه يوما ، حتى محطة الدمرداش انطلقت إليها ، وسرت وحدى فى الطريق الجانبى الضيق ، وصعدت فى الدرج الواصل إلى محطة المترو ، وأنا أكاد أنادى على فاطمة .

إن نار وجدى تكاد تعصف بى ، إننى أحترق .. وقررت أن أقتحم دارها أسأل عنها ، وانطلقت كالعاصفة وصعدت فى الدرج حتى وقفت أمام شقة العجم ، ومددت يدى لأضغط على زر الجرس ، وإذا بشجاعتى تخذلنى وتفر منى .

ووقفت وأنا حانق على نفسى ، وانبعثت أصوات من أعماق تصرخ بى : « رعديد .. رعديد » ، ورحت أحاول أن أغرى شجاعتى على العودة ، ولكن هيهات فقد ذهبت نفسى شعاعا ، ولم يعد فى وسعى إلا أن أسخط وأن أنفلق غيظا .

وأخرجتنى من تأملاتى أصوات السيارات المنطلقة فى شارع الملك عبد العزيز ، فرحت أجتاز الطريق فى حرص ، وتوجهت إلى محل يبيع الكتب والصحف والمجلات ، إنه يبيع فى نفس الوقت قمصانا وبدلا وأقلام حبر ، وقد ذاع صيته فى جدة لا بفضل تجارته بل لأن الصدفة لعبت دورها فى ذيوع اسمه . فقد قام أمامه العمود الذى تقام عنده الحدود ، وتعلق فيه أيدى السراق المقطوعة .

اشتريت الصحف والمجلات المصرية التى وصلت ذلك اليوم ، ووجدت أكداسا من الكتب الفرنسية والإنجليزية والإيطالية ، وقلبت بعضها بين يدى وتصفحتها ، فألفيتها كتبا جنسية رخيصة لا هم لها إلا إثارة الغرائز المنحطة .

وقلبت المجلات الأجنبيه فبرزت على صفحاتها الصدور الناهدة ، والأفخاذ العارية ، والأرداف الممتلئة البضة .. مجلات تجد سوقا رائجة بين المراهقين من الشباب والشيوخ على السواء ، وما أكثر الشيوخ الذين قابلتهم واكتشفت على الرغم من الزوجات والحريم أنهم يكابدون الحرمان .

لقد دعاني شيخ إلى مشاهدة شريط مصرى فى داره ، وبعد أن انتهينا من مشاهدته شاء أن يبالغ فى إكرامى ، فراح يعرض شريطا فرنسيا تقع حوادثه كلها فى المخدع بين رجل وامرأة .

وتقززت نفسى وامتلأت اشمئزازا وشعرت بغثيان ، بينا طفق الشيخ يتأوه ويتلوى . وراحت عدسة ذهنى تقترب من وجه « الآمر بالمعروف » الذى أخذ ينقب فى حقائبى يوم وصولى عن الكتب الفاجرة وأشرطة التسجيل وأشرطة السينما . وملأت صورته شاشة رأسى ، فرفعت يدى ولطمته فى غيظ على وجهه .

١١

كنت فى مكتبى بالوزارة ، وفتح الباب ودخل فراش المكتب يقول :

ـــ عمى ، معالى الوزير يبغاك .

تركت ما فى يدى وارتديت جاكتتى وذهبت أقابل معالى الوزير . وهبطت فى الدرج حتى بلغت الشقة المخصصة لمكاتب معاليه فوجدت غرفة الاستقبال غاصة بالزوار ، وبعض الموظفين يتكئون على الأرائك ينتظرون . وتلفت لحظة فتقدم منى شاب ضئيل الجسم أسمر الوجه فى ظهره انحناءة خفيفة ، وعلى رأسه شال أحمر فيه نقط بيضاء ثبت على رأسه بشطاف أسود .. إنه صبى الوزير الخاص . قال :

ـــ عمك يبغاك .

واتجه إلى باب مكتب الوزير وفتحه فدلفت إلى الغرفة ، كان الزوار وباقى

موظفى الوزارة فى كل ركن منها ، جاءوا جميعا ليحيوا الوزير ويأتنسوا به ، وراح رجل يدور عليهم جميعا بالقهوة العربى ، وقال شيخ كبير :

ــ كنا مارين فقلنا نصعد ونسلم عليك ونشرب القهوة .

فقال الوزير وهو ينظر إلى الحشد من تحت منظاره :

ــ حياكم الله .

كان الوزير أبيض الوجه ، مشربا بحمرة ، له عينان فيروزيتان نفاذتان ، غزير شعر الشارب ، لحيته كثة فى لون الخضاب ، وفى فمه غليون قلما يفارقه ، ولولا الجلباب والغطرة الحمراء والشطاف الأسود ، لخيل للناظر إليه أنه فنان إيطالى . ولمحنى عند دخولى فقام منتصبا لتحيتى ، فوسعت من خطوى واتجهت نحوه وأنا أمد له يدى مصافحا ، وأشار إلى كرسى قريب من كرسيه وقال لى :

ــ تفضل .

وجلست وجلس ، ومال على وقال هامسا :

ــ تقرر سفرنا إلى الباكستان ، وأحب أن تكون معى .

وقلت على الفور دون تفكير :

ــ هذا شرف عظيم لى ، ومتى سنرحل ؟

ــ بعد أسبوع أو أسبوعين .

ــ وماذا سنرتدى ؟

قال وهو ينظر إلى من تحت نظارته :

ــ الملابس العربية طبعا .

ــ إذن أستعد من الآن ؟

فقال وهو يدير عينيه فى المكان :

ـــ ملابسك العربية ستكون هدية منى .

وشكرت له كرمه ، وحاولت أن أعتذر عن قبول هذه الهدية ، ولكنه أصر ونادى أحد كبار الموظفين الذين كانوا فى الغرفة ، وكلفه أن يقوم بتفصيل ثوبين من الصوف لى ، وأن يشترى لى مشلحا من وبر الجمل . وقد فهمت بعد ذلك أن المشلح هو العباءة .

واستأذنت وانصرفت تاركا الوزير لضيوفه الذين لا ينقطع سيلهم ، وما عدت إلى مكتبى حتى راحت الأفكار تنثال على رأسى ، وتحركت هواجس نفسى . كيف أقبل السفر وزوجتى ما تزال فى دور النقاهة ، وابنتى الصغيرة لا تنام إلا على كتفى ، والتابعة العجوز لا هم لها إلا الجلوس على باب العمارة واستدرار عطف الصاعدين والهابطين بكلامها المعسول لينفحوها بعض الريالات ، واستلال أسرار الناس من الخدم والبوابين الخضارمة والأطفال ، وما كانت تدخل الشقة إلا لتغلق باب غرفتها عليها وتنهمك فى العبادة ، وتستغرق فى الصلاة !

إننا هنا غرباء ، ولو أن الصداقة قد توطدت بيننا وبين جيراننا المصريين إلا أن ترك زوجتى وأولادى الصغار فى حراسة التابعة العجوز مخامرة . لقد تورطت فى قبولى السفر ، كان على أن أتريث وأن ألتمس مهلة للتفكير . وخطر فى ذهنى أن أهبط ثانية وأقابل الوزير وأشرح له ظروفى وأعتذر عن السفر ، ولكننى طردت ذلك الخاطر ، فما اعتذرت أبدا عن فعل شىء بعد أن قررت قبوله ، إنه غرور ويا طالما قاسيت من غرورى .

وانقبض صدرى وثقل خطوى وران على الكدر ، وانطلقت إلى السيارة

وارتميت فيها ، والانفعالات تمور فى جوفى ، وأردت أن أخفف عن كاهلى وطأة آلامى فقلت للسائق اليمنى القمىء :

— سأسافر إلى الباكستان ، وأحب أن تمر على الأولاد كل يوم لترى إذا كانوا فى حاجة إلى شىء ، وإذا شاءوا أن يتنزهوا فاخرج بهم فى العصر .

وقال الرجل فى صدق :

— اطمئن يا عمى .. أبشر .

ولم يعرف الاطمئنان طريقه إلى قلبى ، وزاد كربى لما راح هامس من نفسى يسخر منى أننى لم أجد إلا السائق اليمنى أوصيه على أولادى وبيتى ...

وبلغت الدار ووضعت المفتاح فى القفل ، وما إن أدرته حتى ارتفعت صيحات الأولاد المتلهفة الفرحة ، ومس أذنى وقع أقدامهم وهم يهرولون . وفتحت الباب فإذا بهم يتسابقون إلى ويتعلقون بساقى ، ورفعت الصغيرة ذراعيها فى الهواء لأحملها ، فملت عليها ورفعتها بين يدى ، وضممتها إلى صدرى الذى صار مرتعا للهواجس والانفعالات .

وسرنا إلى غرفة النوم فألفيت زوجتى ممدودة فى سريرها ، ولما لمحتنى رفعت يدها إلى رأسها بالتحية ، ثم نهضت تعد لنا الغداء .

والتففنا حول النضد الصاج الذى كنت أستعمله مكتبا ومائدة ، وراحت زوجتى تتحدث وأنا شارد الذهن لا أميز مما تقول شيئا ، وفطنت إلى سهومى فقالت :

— فيم تفكر ؟

— لا شىء .

— بل فى رأسك شىء .

— سأسافر إلى الباكستان .

— ونحن ؟!

— إنني مضطر ، وقع على الاختيار لأكون فى الوفد المسافر .

— أتتركنا وحدنا هنا ؟ لا تتصور أن يكون هذا . اعتذر ، ليس فى العقد المبرم بينك وبينهم ما يلزمك بالسفر ، إن لهم أن يرسلوك إلى أى مكان داخل المملكة ونحن معك .

— تقرر سفرى وانتهى الأمر .

— قل إنك ترحب بهذا السفر ، ضقت ذرعا بنا ، أهذا جزائى ؟ أترك بيتى وأولادى وأنا مريضة وأجىء معك ، وإذا بك تفر منا وتهجرنا فى بلاد غريبة !.

— لقد فكرت فى الأمر ، سأعيدكم إلى القاهرة ، مكانكم هناك .

فقالت وهى تنهض وقد ملئت عيناها بالدموع :

— بل مكانى هنا .

وأحسست أنها جرحت فرأت أن تجرحنى ، فما كانت تقبل أن أخدشها يوما دون أن تنشب أظافرها لتسيل دم كبريائى ، قالت :

— إنك لا تفكر إلا فى نفسك وأنا لا أفكر إلا فى نفسى ، أتحسب أننى جئت من أجلك ، إننى ما تركت بيتى وأولادى إلا لأحج ، ولن أعود قبل أن أؤدى الفريضة .

— سأمر عند عودتى على القاهرة ، ونعود معا إلى هنا .

— بالله لا تسخر منى ، سافر ما دمت قد مللتنا ، أما أنا فلن أغادر هذا البيت .

— إنها أيام قليلة ، عشرة أيام أو أسبوعان على الأكثر .

— وجواز السفر ستأخذه معك ؟

— طبعا .

— ونمكث نحن هنا بلا جواز سفر ؟ قد نضطر إلى العودة إلى مصر فماذا تفعل ؟

— سأخرج لكم جواز سفر مستقل .

— ومصاريف العودة ؟

— سأدع لكم كل ما معي من مال .

فقالت وهي تغادر الغرفة :

— فكر جيدا فيما تفعل ، وسل من شئت عن هذا السفر ، فإذا أقرك فرد واحد على ما تفعله فافعل ما بدا لك .

وذهبت ، ونهضت متثاقلا وأنا أدور بعيني في وجوه أولادي .. فطنت البنت الكبيرة إلى ما دار حولها فعافت نفسها الطعام ، أما الصبي فقد راح يعبث بكل ما أمامه لا يهمه من أمر الدنيا إلا نفسه ، ورفعت الصغيرة ذراعيها في الهواء لأحملها ، فملت عليها وحملتها ورحت أمرر خدي على خدها وفي جوفي وقدة نار .

وقالت الصغيرة :

— أنام .

فانطلقت بها إلى الحمام وغسلت لها يديها وفمها ، وأملتها على ذراعي وضممتها إلى صدري لتنام في أحضاني ، ورحت أجوب بها الشقة وأنا مبلبل الفكر ، تتنازعني الهواجس والأوهام .

وهاجمتني أفكار سود : ماذا تفعل زوجتي المريضة بهؤلاء الأولاد في بلاد غريبة لو قدر لي ألا أعود ، جئنا بجواز سفر واحد ، فما دار بخلدي يوما قبل سفري من القاهرة أن المصادفة قد تضطرنا يوما إلى أن نفترق ، ولو خطر ذلك على بالي ما جشمتهم متاعب السفر معي ، ولتركتهم بين أهلهم آمنين .

لو كتب على ألا أعود ، لخف الكثيرون إلى زوجتي الأرملة لتعزيتها وعرض خدماتهم عليها في إشفاق مصطنع ، وعيونهم العطشى تتجول في وجهها الحزين . ستحاط بحدب زائف ، سيقوم بعضهم متطوعا بإخراج تأشيرة الخروج على الجواز ليدلل للآخرين على نخوته ، وسيضع بعضهم سيارته تحت أمرها لينقلها هي والأولاد والتابعة إلى المطار ؛ ولكن لن يجف حلق أحدهم ، ولن ينقبض قلبه حزنا .

ونامت الصغيرة في أحضاني ، فذهبت بها إلى فراشها وملت أضعها فيه ، وزوجتي ممدودة في سريرها ترقبنا ، فلما سحبت على الصغيرة الغطاء قالت زوجتي :

ـــ والله لا ندري ماذا سنفعل عندما نتلفت في البيت ولا نجدك .

وعصفت عواطفي بي ، ولولا الدمعة التي بللت عيني لخرط الجفاف حلقي .

ورن جرس الباب الخارجي ، فقامت زوجتي وذهبت تفتحه ، وتمددت في سريري شارد الذهن ، وقرع أذني صرير قفل الباب ، ثم صوت التابعة وهي تهذر :

ـــ الله يجازيه ، الله لا يكسبه ، الله لا يمتعه بشبابه .

وقالت زوجتي :

ـــ من ؟

ـــ محمد أفندى .

وصمتت لتثير فضول زوجتى ، وقالت زوجتى :

ـــ ماذا فعل ؟

ـــ أمه .. قالت لى كل شىء .. قالت إنه سبها . الله لا يكسبه .. لا يريد أن ينفق عليها .. الله يجازيه .

وتدفقت فى الحديث تقص أسرار البيت ، وحلت عقدة لسان زوجتى فقصت قصة سفرى ، وقالت التابعة بصوت عال ليبلغ مسامعى :

ـــ ولماذا لا يسافر ! سننتظره هنا حتى يعود بالسلامة ، الله يمتعه بشبابه .

وحاولت أن أنام دون جدوى ، وظللت أتقلب فى فراشى كأنما أتقلب على جمر . كنت فى قرارة نفسى مقتنعا بأننى قسوت على زوجتى وأولادى .

وآذنت الشمس بالمغيب فارتديت ملابسى وأخذت جواز السفر ، وهبطت أذهب إلى مصور أكلفه باستخراج ست صور لزوجتى وأولادى حتى أتمكن من طلب جواز سفر منفصل .

وبلغت باب العمارة فوقع بصرى على التابعة على بعد خطوات ، تحادث محمد أفندى فى ود ، وقرع أذنى صوتها وهى تقول له :

ـــ الله يجعل دعائى من نصيبك ، والله إنى أدعو لك ليلا ونهارا .

ومد المخدوع يده فى جيبه وأعطاها خمسة ريالات ، وانسللت دون أن ترانى . تعلمت من معاشرتها أنها تتصنع الغضب إذا استشعرت أن أمرها كاد ينكشف ، وتطلق لسانها بالباطل حتى تثير زوبعة فى البيت ، وأنها بتلك الشرارة المفتعلة تستر نفسها وتحول الأنظار عنها . لم أكن فى حاجة إلى ثورة ،

تكفيني الثوره المتأججة بين جوانحي .

وبلغت دكان المصور فوجدت زحاما ، ولمحت أحد « الآمريين بالمعروف » يقود المصور أمامه ومعه امرأتان من أفريقية . كان المصور فى السبعين من عمره ، والمرأتان سافرتان ، وجهاهما أسود من فحمة الليل ، وقال « الآمر بالمعروف » إنه وجد المصور والمرأتين فى خلوة . وقال الشيخ وهو يرتجف فرقا :

— جاءتا تتصوران لاستخراج جواز السفر .

فقال « الآمر بالمعروف » فى زجر :

— كنتم فى الدكان وحدكم ، ليس معكم إلا الشيطان .

وساقهم أمامه وهو شامخ برأسه ، والشيخ والمرأتان يتلفتون بعيون زائغة ، فى وجوههم هلع ، فالآمر بالمعروف إذا قال فلا مرد لقوله . وانصرفت منقبضا ، فقد زاد ذلك الهوان فى أساى .

١٢

تأجل السفر فهدأت زوابع نفسى ، وهجع الصخب الذى انطلق فى أغوارى ، وعشت حياتى الراكدة التى لا إرهاصات فيها ولا انفعالات نابضة ، إلا تلك التى أستعيرها من ماضى من اللحظات الزاخرة بالمشاعر ، للساعات الطويلة الجدباء العجاف .

وعدت إلى التهويم والسهوم والشرود والحياة فى نفسى ، واستعدت سعيدا ذكريات طفولتى ، ولكن ذكريات شبابى هى التى تضىء جوانحى وتحرك فىّ

ألذ الإحساسات ، وعاد طيف فاطمة يزورنى ويقضى معى اللحظات الفارغة ، يملؤها خفقا ونبضا وإشعاعات .

اختفت فاطمة فجأة من حياتى ، وتركتنى للهواجس والأفكار ، واستبد بى قلبى بعد أن نفد صبرى ، فعقدت العزم على أن أفاتح أمى فى أمر حبى وألتمس منها أن تذهب تسأل عن حبيبة الفؤاد ، ولكن قبل أن أنفذ ما حزمت عليه أمرى قرأت نعى أبيها ، فبدلت خططى وقررت الانطلاق للعزاء وتنسم الأخبار .

وذهبت فى الليل إلى المأتم وأنا أرتجف . القشعريرة تسرى فى بدنى ، والقلق فى أعماق ، والنظرات الزائغة الحائرة فى عينى .

وصافحت الواقفين أمام السرادق لتلقى العزاء ، وضغطت على يد أخيها وأنا أصافحه ، ثم جلست أتلفت لا يستقر لى قرار .

وجاء أخوها وجلس إلى جوارى برهة ليشكرنى ، فقلت له :

ـــ أرجو أن تبلغ عزائى للست الوالدة ، وللهانم الصغيرة .

وقفز قلبى وكاد يفر من فمى ، وأرهفت مشاعرى ، ومشى الخوف فى صدرى . كنت أخشى أن يشكر لى شعورى ، ثم يطبق فمه ولا يتكلم ، ولكنه قال :

ـــ والله لم يبلغ فاطمة بعد خبر وفاة أبيها ، سافرت بعد أن تزوجت . أين نحن منها الآن ، لقد عارضت هذا الزواج .

ولمح صديقا قادما فاستأذن منى وذهب للقائه .

وانقبض صدرى ، ودوت أصوات هائلة فى أذنى ودارت الأرض بى ، وغامت جميع الصور التى كانت واضحة لعينى ، واستشعرت كأن خنجرا

يمزق أحشائى .

وانصرفت وحزنى يفوق حزن أهل الميت جميعا ، لو أنهم كانوا قد حزنوا عليه .

ـــ تزوجت ؟ أين عهدنا ؟ أين قسمنا ؟ أين الآمال العريضة وقصور الأمانى التى أقمناها تتطاول إلى عنان السماء ؟ إن الأسى يعصر مهجتى ، وإننى سأنهار .

ومشيت وحدى أمضغ الأحزان .

وجاءت ابنتى الصغيرة تهزنى وتقول :

ـــ السيارة ! .. السيارة !

وفهمت أن السيارة أقبلت لتذهب بى إلى الوزارة ، فرفعت ابنتى بين ذراعى وقبلتها ، فإذا بها تلف ذراعها حول عنقى وتلصق خدها بخدى ، لقد زادت بى تعلقا ، أحست ـــ منذ استطالت لحيتى وشاربى وأخذت أرتدى الجلباب الصوف وأضع الغطرة الحمراء المنقطة بالأبيض وأثبتها على رأسى بالشطاف الأسود وأتسربل بالمشلح الصوف ـــ أننى أتأهب للغـدر بها وأتركها فى البلد الغريب بلا ناصر ولا حبيب .

ووجدت فى تأجيل موعد الرحلة فرصة مواتية للاعتذار عن السفر والبقاء مع زوجتى وأبنائى الذين ما غادروا بيتهم وضحوا براحتهم إلا ليمسحوا آلام الغربة عن صدرى ، وقلت للسائق اليمنى القمىء ونحن فى طريقنا إلى الوزارة :

ـــ لن أسافر . سأعتذر اليوم .

فقال وهو يبصق من الشباك القريب منه :

ـــ هذا واجب ، كيف تسافر وتترك « البزورة » وحدهم ؟ إنهم فى حاجة

إلى من يرعاهم ويقضي مصالحهم .. لا تظن أن هناك من يملأ فراغ الأب أبدا .

وربما تصميمي على الاعتذار ، حتى السائق اليمنى استنكر فعلتى . كان هدفى منذ أن رزقنى الله أول طفل أن أبذل جهدى ، ألا يتعلق بى أولادى ، أن أعودهم على أن يألفوا بعدى حتى إذا حان حينى لم يحسوا تلك اللوعة التى أحسستها يوم موت أبى ، والتى كادت توردنى موارد الهلاك ، ولكنى أخفقت فيما رسمته لنفسى . أحبنى أولادى على الرغم من أننى لم أكشف لهم كنوز قلبى و لم أقبل أحدهم يوما .

وصعدت إلى مكتب الوزير ، وقابلت بعض الزملاء وكاشفتهم بما عزمت عليه ، فقالوا لى إن الاعتذار محال بعد أن أقرت الحكومة أسماء الوفد .

وصل الوزير ، وجاء فراش المكتب يقول :

ــ عمى . معالى الوزير يبغاك .

وانطلقت وقد قررت أن أنتهز أية فرصة للاعتذار ، ولكن ما إن دخلت عليه حتى قال لى :

ــ استعد للسفر ، سنغادر جدة بعد أيام .

وعاد القلق إلى مرتعه الخصيب فى صدرى ، وزحفت خفافيش الأفكار إلى كهف رأسى ، واستبدت مشاعرى بى حتى إننى كنت أفر من نفسى وأندمج فى الناس أشاركهم أحاديثهم وأشعل نار المجادلات حتى أندمج فى جو من الصراع ينسينى ما أقاسيه .

ورأيت أن أذهب إلى الكعبة لأطوف طواف الوداع . وراحت السيارة تقطع عشرات الأميال وأنا مطرق صامت ، وتشاغلت عن نفسى بمراقبة

الطريق ، فألفيت رجالا من أندونيسيا والباكستان وساحل الذهب يرتدون ثياب الإحرام ويجدون فى السير على الأقدام قاصدين البيت الحرام . ومر بجوارى محرم ينهب الأرض بالفسبا فتتبعته ببصرى ، ولكن ما كان كل ما حولى بقادر على أن ينتزعنى من نفسى .

احتلت زوجتى وأولادى كل تفكيرى ، ورحت أفكر فى هذه المصادفة التى أبت إلا أن تفرق بيننا ، لتقضى أمرا وتتم فعلا ما يزال فى جوف القدر مغيبا .

وراحت الأوهام تفسح فى أرجائى كالأفاعى ، وتحركت مخاوف كالعقارب ، وهب عقلى يشد أزرى ويشهر أسلحة منطقه يطعن بها الأوهام والمخاوف ، ولكن فلت أسلحته جميعا ، وفغرت الأوهام فاها حتى خيل إلى أنها ستبتلعنى .

وهززت رأسى لأطرد الأشباح المتراقصة فى مخيلتى كالأبالسة ، وأخذت أحادث السائق اليمنى حتى أفر من وحدتى .

تحدثت معه أحاديث عابرة ، ولكن موضوع أسرتى عاد ليشغل بالى ، فقلت لليمنى القمىء :

ـــ سأسافر ، لا بد من السفر .. إنى أعتمد عليك .

ـــ اطمئن فسأمر عليهم كل يوم ، وسأقضى لهم كل حوائجهم .

ولم أطمئن ، بل أخذت ينابيع القلق تنبثق فى أعماقى ، ووصلنا إلى المسجد الحرام فأسرعت لألوذ بالكعبة .

وأخذت أطوف حولها وأنا أردد أدعية حفظتها ، لسانى يتحرك وفكرى شارد ، وفجأة ألفيت نفسى أقرأ : « ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى

زرع عند بيتك المحرم ، فأرهفت حواسى كلها ، وأخذ فكرى يعمل .

ترك إبراهيم ابنه إسماعيل عند البيت المحرم لما أمره الله بذلك لحكمة أرادها ، وقال جبريل لهاجر إن الله سيجعل الغلام أمة عظيمة . أما أنا فإنى أترك أبنائى وحدهم دون أن يأمرنى أحد ، وما قال لى قائل حكمة تركهم .

وكانت هاجر قادرة أن تذهب حيث تشاء بابنها إذا ضاقت بذلك المكان ، فما كانت هناك جوازات سفر ولا تأشيرات دخول وخروج . كانت الأرض كلها لله أما زوجتى فلا تستطيع أن تغادر البلاد إذا وقع ما يحتم عليها مغادرتها ، إلا بجواز سفر وبتأشيرة خروج ، وإلا إذا ضمنها ضامن معروف لإدارة الجوازات .

وراحت هواجس تتشعب كالأخطبوط لتضمنى إليها ، فذهبت إلى ستار الكعبة وتعلقت بها ، وجعلت أدعو الله ودموعى تغسل وجهى أن يبدد الهواجس التى ترهقنى ، فأحسست كأن حملا ثقيلا انزاح عن صدرى ، ورحت أصلى العصر بقلب سليم .

١٣

قبض على السائق اليمنى القمىء ، وألقاه أحد الآمرين بالمعروف فى السجن لأنه كان سكران ، وبلغ ذلك الأولاد فوجموا ، وحزنت زوجتى ، وراحت التابعة تقسم أنه مظلوم .

ووجدت التابعة مادة لحديثها مع الناس ، وسمعت ما تقول فتيقنت أنها تشهر بالرجل عامدة وإن أظهرت عليه العطف ، فالتشهير بالناس هوايتها ،

ويا طالما شهرت بنا فى وجوهنا وإن غلفت تشهيرها بغلالة رقيقة من المديح الكاذب .

كنا جالسين يوما فى الشرفة نرقب البواخر فى الميناء وقد ثبت الدخان المنبعث منها فى الجو دون حركة ، فما كانت نسمة تحركه ، فبدا المشهد جميعه كأنما رسم على لوحة كبيرة ، كل ما فيها جامد حتى المراكب الشراعية ، وراحت تقول :

ـــ كنت أتحدث اليوم مع الست الكبيرة عن الأكل ، فقلت لها إن الست طبخت بصارة كانت أشهى من الديك الرومى .

وجعلت تردد لفظة البصارة وتنعتها بألذ النعوت ، ولكن رنة صوتها كانت توحى بالسخرية والتجريح .

وانقبضت لغياب السائق اليمنى ، فهو الوحيد الذى كنت أسايره فى الصباح وهو ينقلنى إلى الوزارة ، وهو الذى كان يخرج بنا فى الأمسيات إلى شاطئ البحر لنقضى على الضجر الذى كنا نستشعره فى البيت .

وما كانت تمر فرصة إلا ويتحدث عما سنفعله فى الحج ، وكنت أحس إحساسا عميقا أن هذا الرجل لن يحج معنا إذا قدر لنا أن نحج ، وما كنت أدرى مصدر ذلك الإحساس ، ولكن لم يدر بخلدى لحظة أنه سيقبض عليه ويلقى به فى السجن لأنه سكير .

وأهمنى أمر أمه وزوجته وابنه الصغير ، فمن ذا الذى يرعاهم ويلبى حاجاتهم ، ورن فى أذنى صوته وهو يقول لى : « لا تظن أن هناك من يملأ فراغ الأب أبدا » فاستشعرت أسى ، كان يشفق على أولادى من فراق لهم شهرا أو بعض شهر ، وما دار بخلده أنه سيلقى به فى السجن ، وسيستيقظ أهله يوما

ويجدون أنفسهم بلا عائل ولا نصير .

وجاءت التابعة تمصمص بشفتيها وتقول فى شفقة مفتعلة :

— مسكين . حكم عليه بالسجن ستة أشهر ، وبالجلد كل شهر ثمانين جلدة .

فقلت فى إنكار :

— كل شهر ؟! فى أى شرع هذا ؟ هذا محال .. من قال لك ؟

— هذا ما قاله الدكتور .

و لم أعرف من هو الدكتور الذى تتحدث عنه ، ولكنى لزمت الصمت وراح فكرى يعمل . لم يبق إلا ثلاثة أيام على سفرى وها هى ذى الصدفة تحرم الأولاد من الرجل الوحيد الذى كنت أعتمد عليه فى الخروج بهم للترفيه عنهم ، وتخفيف وطأة الفراق عليهم حتى أعود ، إذا قدر لى أن أعود .

— لم تبق لهم إلا التابعة ، وابتهلت إلى الله أن يجملها بالعقل ، وأن يرزقها الثبات ، ولكن لم تمض ساعات على ابتهالى حتى تيقنت أن باب السماء قد أوصد دونه .

دلفت التابعة من الباب الخارجى وصوتها يسبقها ، كانت تقول كأنما تتابع حديثا بدأته قبل الدخول :

— وماذا فعل لى أولادى ، لم يكتبوا إلى كلمة ، و لم يسألوا عنى ، سأتزوج .. والله لأتزوجن .

وكان فى حديثها نبرة من الغبطة ، وأكد لى قلبى أن حديثها جاد لا هزر فيه ، وخفت إليها زوجتى تسألها :

— ماذا جرى ؟

فقالت متفتحة النفس وقد انبسطت تجاعيد وجهها وانفرج فمها عن أسنانها السليمة ، وإن تخطت السبعين .

ـــ الحاج داود السائق ببنك مصر عرض على أن نتزوج ، قال لى إنه لا يملك مهرا ، وأنا لا أملك شيئا ، ولكن ما كان ذلك ليمنع زواجنا ، سيشترى ست زجاجات « شربات » يوزعها على سكان العمارة كلهم ، وبذلك نعلن زواجنا .

فقالت زوجتى وهى تضحك :

ـــ مبارك ، وأين يدخل عليك ؟

ـــ فى غرفته ، إنه يعيش وحده . أعزب ماتت زوجته .

وصمتت قليلا ، وكأنها عز عليها أن ينقطع هذا الحديث اللذيذ فعادت تقسم لتقنع نفسها :

ـــ سأتزوج ، والله لأتزوجن .. ماذا فعل لى أولادى ؟

واستمر الحديث بينها وبين زوجتى ، كانت زوجتى تهدف إلى الترويح عن قلبها ساعة ، ولكن قلبى لم يطمئن لهذا العبث . لمست فى حديث التابعة طيش الشيوخ ، وتيقنت من أنها مستعدة أن ترتكب كل الحماقات لو كان الحاج داود الرجل الأسمر الطويل الذى أشرف على الستين جادا فى حديثه ، وكان رجل مغامرات .

وأخذت أرصد حركات المرأة الفانية ، فوجدتها قد انقلبت فتاة مراهقة ، تحرض الأولاد على النزول حتى تتسلل منهم وتجلس إلى الحاج داود ، تمضى الساعات الطويلة فى مناجاته .

وطفقت تدخر الفاكهة التى يقدمها لها والشيكولاتة والطعام الجاف ،

وتقول إنها تتصدق بما لا تأكل ، ولكننى لمحتها أكثر من مرة تخفى هذه الأشياء فى طيات ثيابها وتعطيها الحاج داود .

آه لو تزوجت لما بقى لأولادى أحد بعد الله .

وجاءت فى الليل وقالت :

ـــ قال لى الحاج داود إنه يشتهى « الكرشة » التى كانت تصنعها له أمه ، وهو يحب أن يأكلها من يدى . لم يكن يعرف أننى لم أسلق بيضة فى حياتى وأننى لم أقف أمام النار ، وأردت أن أوهمه أننى طباخة ماهرة فقلت له : ما أيسر صنعها . نضع الكرشة فى الماء حتى تغلى ثم نضع الملح والحبهان . وضحك الحاج داود وقال : ما هكذا تصنع . كانت أمى تصنعها بالطماطم والحمص . إنك لا تعرفين شيئا فى الطبخ !! وكشف أمرى .

واسترحت لحديث التابعة ومات قلقى ، فقد كشفت تصرفات الرجل معها حقيقة أمره ، لم يكن طالب زواج ، ولكنه طامع فى الخيرات التى تتسرب من يدها إلى فمه ، وكان يطمع فى أن تطهو له ما يشتهى . ولقد تقوض ركن من الأركان التى كان يشرئب إليه بعنقه ، وستهديه حصافته إلى أن الركن الآخر لا شك منقوض إذا ما تم الزواج ، فما كانت زوجتى لتعطى من تركتها وأولادها فواكه وشيكولاتة وطعاما يسيل له لعاب الحبيب المشرف على الستين .

أشرقت شمس اليوم التالى ، ولم يبق على السفر إلا يومان ، فقررت أن أرتدى الثياب العربية حتى أتدرب على لبسها ، وحتى يصلح لى رفاقى ما اعوج منها . ووضعت الغطرة الحمراء على رأسى بعد أن ارتديت جلبابا رماديا فضفاضا ، وثبتها بالشطاف الأسود ، ثم وضعت المشلح الصوف على كتفى ،

ودنوت من المرآة وجعلت أتفرس فى وجهى وأمرر يدى على لحيتى وأعبث بشاربى .

وجاءت ابنتى الصغيرة تهرول لترتمى فى أحضانى كما تفعل كل صباح ، ولكنها توقفت فجأة وصعدت عينيها فى ثم أجهشت بالبكاء ، فملت عليها وحملتها بين يدى وضممتها إلى صدرى ، فراحت تحاول أن تنتزع الغطرة والشطاف من على رأسى .

وملأت إفرازات الحزن صدرى ، واحتلت إسفنجة جافة حلقى ، وبللت العبرات مقلتى فما أيسر أن تنهمر دموعى ، وتمنيت أن تبدأ الرحلة سريعا ، فإذا ما بدأت كان معنى ذلك بداية نهايتها ونهاية القلق الذى أعيش فيه بكل حواسى المرهفة ، فلن أجزع من شبح الفراق بعد السفر ، بل سأحيا على أمل اللقاء وهو أمل حبيب مرتجى .

ووضعت الصغيرة وغادرت الغرفة وأنا أوسع خطوى ، وأحسست المشلح ينزلق على كتفى ، فوضعت ذراعى فى فتحتى الكمين وأسرعت صوب الباب ،فارا من بكاء الصغيرة الذى كنت أحس وقعه كوخز الإبر فى مهجتى .

وبلغت السيارة ، وشعرت بالنظرات المصوبة إلى فارتبكت ، ودخلت السيارة قفزا ، ولكن ظل نصف المشلح فى خارجها فسحبته وأخذت أصلح هندامى .

وانطلقت السيارة بى وقد خيل إلى أننى غريب ، أننى شخص آخر لا أكاد أعرفه ، فعلى رأسى قيد يعوق تفكيرى ، وبين بطنى والجلباب هواء يتحرك ولم أعد أشعر بضغط البنطلون على وسطى ، وصرت أحس احتكاك لحمى

بلحمى كلما وضعت ساقا على ساق ، فما ارتديت سروالا طويلا أبيض تحت الثوب كما يفعلون . وراحت يدى تعبث بلحيتى وأنا ساهم دون تفكير .

وبلغت السيارة الوزارة فهبطت منها منفوشا كالطاووس ، وأنا أصلح وضع المشلح على كتفى ، ورمقنى بواب الوزارة بعيون مفتوحة وفم منفرج ، فأومأت له برأسى محييا ، وأسرعت أصعد فى الدرج قبل أن تنتقل البسمة التى استشعرتها فى عينى إلى فمى !

ولمحنى الرفاق وأنا صاعد إلى غرفتى فخفوا إلى يتصايحون ، وراح أحدهم يصلح وضع الشطاف على رأسى وهو يقسم أننى أروع فى الثوب منى فى البدلة ، وأخذ الآخرون يزينون لى هجر الملابس الإفرنجية .

وجلست إلى مكتبى وحاولت أن أكتب ، ولكن القيد الذى يعقل رأسى منعنى عن التفكير ، وشغلنى كم الثوب الفضفاض ، أرفعه ثم أعود وأسدله ، وما ألبث أن أرفعه لأسدله ، وتقضى الوقت والقلم بين أصابعى قد جمد على القرطاس ، وعهدى به أن ينطلق دون أن يقف أو يتعثر .

ولم أسطر كلمة ، وقمت أذرع الغرفة فى خيلاء الطاووس ، وأذهب إلى الشرفة أنظر إلى السيارات التى اكتظت بها ساحة الوزارة ، فلكل رئيس قسم سيارة حكومية ، أما صغار الموظفين فلهم سياراتهم الخاصة. ولمحت سيارة الشاب الذى يكتب لى على الآلة الكاتبة فكادت علامات الدهش ترتسم على وجهى ، لولا أن تذكرت أن راتبه يبلغ آخر مرتب حصلت عليه من الحكومة المصرية بعد أن خدمتها عشرين عاما !

وعدت إلى مكتبى وقد عجبت لأمرى ، استشعرت أننى أتبختر فى سيرى . وهب ذهنى يفكر فى هذه الظاهرة الجديدة ، أهى من وحى ذلك

الرداء الفضفاض والقصب الذى يزين المشلح أم من وحى الفراغ الذى راح يملأ رأسى ونفسى ؟ ولم أستقر على شىء ، ولم أهتد إلى الحقيقة ، كل ما اهتديت إليه أن جميع الذين يرتدون هذه الثياب يتبخترون فى سيرهم ، وهذه هى الحقيقة الثابتة .

وجاء الوزير إلى مكتبه فذهبت لمقابلته ، وكان يرتدى جلبابا من الصوف عليه « الكوت » ؛ والكوت جاكتة عادية مفصلة على أحدث طراز ، وكان عاكفا على ورق أمامه .. وأحس دخولى فنظر بعينه الفيروزيتين من تحت المنظار ، ولما لمحنى أخرج غليونه من فمه ، وقال وهو ينهض لاستقبالى :

ـــ إيه الحلاوة دى كلها !

إنه رجل مجاملات ، وما أسرع أن يبسط ذراعيه للقادم ويبادله العناق ، فقلت وأنا أنظر إلى ثيابى :

ـــ إنها بعض فضلكم .

ـــ أستغفر الله .

وجلسنا نتدارس الأوراق قبل سفرنا ، ومر الوقت وانتهى ميعاد العمل ونحن فى مكتبه ، وراحت الساعات التى تفصل بيننا وبين ميعاد السفر تطوى . كانت كلها ساعات زاخرة بالحركة والانفعالات ، لم أشرد فيها لأجتر الماضى ولم يزرنى طيف فاطمة . قبع فى كهف الذكريات لتنسدل عليه مرة أخرى أسجاف النسيان التى ظلت مسدلة عشرين سنة .

وقبل العصر بقليل غادرنا الوزارة ، وتناولت غدائى على عجل ، وهبطت أشترى الصحف من المحل الذى تقام عنده الحدود وتقطع أيدى السراق ، ووجدت أمامه زحاما ، وبعض الجنود يقودون الخطاة ليقام عليهم الحد على

الملأ .

وتفرست فى الخطاة الذين تخلت عنهم الصدفة وأوقعتهم فى أيدى الآمرين بالمعروف ، فإذا بهم مطأطئو الرءوس ، فى وجوههم ذلة وخزى وانكسار . وفجأة خفق قلبى فى شدة ، ولفنى اضطراب ، وراحت الدماء تجرى حارة فى عروقى ، فقد وقع بصرى على السائق اليمنى القمىء يكاد ينوء إعياء .

وبدأت عملية « فرش » الخطاة ، وارتفع السوط يهوى على الظهور فقررت منقبضا ، ورأيت بعين خيالى مريم المجدلية خافضة الرأس ، ومئات الأيدى مرفوعة وهى قابضة على الحجارة لترجمها بعد أن ضبطت متلبسة بجريمة الزنا ، ويرن فى أغوارى صوت يردد قول المسيح :

— من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر .

١٤

ارتديت ثيابى العربية قبل الشروق ، وتحركت على أطراف أصابع قدمى حتى لا تستيقظ زوجتى ولا ابنتى الصغيرة الراقدة إلى جوارها ، عزمت على أن أنسل من الغرفة دون أن يشعر بى أحد ، وأنطلق إلى المطار دون وداع .

وانحنيت أحمل حقيبتى ، وإذا بصوت زوجتى يمس أذنى واهنا مرتجفا :

— مسافر الآن يا جمال ؟

فقلت بصوت تموجه إشعاعات القلب :

— نعم .

فقالت وهى ممدودة فى سريرها ، وقد أشاحت بوجهها عنى ، لتخفى

دموعها :

ـــ مع السلامة .

وغادرت الغرفة مسرعا قبل أن تستيقظ الصغيرة ، واجتزت الردهة الطويلة بخطوات واسعة ، وفتحت الباب الخارجى فى رفق وأغلقته خلفى وأنا أحاول ألا يحدث صوتا ، ثم هبطت فى الدرج خفيفا .

وبلغت ساحة المطار الخارجية فوجدت بعض موظفى الوزارة قد خفوا لتوديع الوزير ، فلما رأونى رحبوا بى ، وجاء مجدى طويلا شامخا ، وعيناه السوداوان تتألقان ، وانفرجت شفتاه الرقيقتان عن أسنان بيض منتظمة فبعد شاربه الأسود عن لحيته السوداء الكثة ، وفتح ذراعيه فانفرج مشلحه الأسود عن الثوب الصوفى الذى يرتديه « والكوت » الرمادى ، وضمنى إليه وهو يقول :

ـــ أهلا بالرفيق .

كان مجدى من رفاق الرحلة ، وهو شاب لم يتجاوز الخامسة والثلاثين ، أبيض البشرة ، فخما فى الثياب العربية ، أشبه بأبطال الأساطير ، وكانت العلاقة التى تربطنى به قبل اليوم تحية عابرة ، أو حديثا رسميا ، لا يتجاوز حدود العمل .

وأقبل رجل كان يأتى إلى مكتب الوزير كثيرا وكان كلما رآنى حيانى فى شوق عظيم ، فصافح الموجودين فى حرارة ، ولما وصل إلى أومأ إلى برأسه من بعيد ، وعجبت لأمره ، وما فطنت إلى سبب الجفوة التى وقعت بيننا .

ووقفت أتحدث إلى بعض المودعين ، وصك صوتى أذن الرجل فالتفت فى دهش وهو يقول :

ـــ أهو أنت ! والله لقد أنكرتك فى هذه الثياب .

وفتح ذراعيه وضمنى إلى صدره فى شوق وهو يعتذر ويضحك .

وجاء سامى ، إنه شاب فى الثلاثين ، شعره أسود ناعم كشعر الهنود ، وعيناه وفمه أكثر ما يلفت النظر فى وجهه الأسمر . إنه موظف فى الوزارة ، وأحد أعضاء البعثة ، وأول من رحب بى فى حرارة عندما تسلمت عملى الجديد ، لقد أحببته وتفتح له قلبى ، ولبيت دعوته لما دعانى إلى مكة .

ووقف سامى يتحدث إلى ويزج ببعض الكلمات الإنجليزية فى حديثه ، إنه يستعيد ما حفظه منها قبل أن يصل إلى بلاد ستكون الإنجليزية هى لغة التخاطب بينه وبين أهلها .

وتقاطر باقى أعضاء البعثة ، وقام مجدى بتعريف بعضنا إلى بعض ، ولم أحاول أن أحفظ أسماءهم فهم الآن بالنسبة إلى أشياء ترتدى العباءات البيض والسود والصفر والبرتقالية وإن الرحلة لكفيلة بأن تقربنى من هذه الأشياء حتى أرى دخائل النفوس ، وأقرأ ما يدور فى الرءوس .

وأقبل الوزير يرتدى جلبابا من الصوف الرمادى ، عليه عباءة فاخرة ، مرفوع الرأس فى فمه غليونه الذى لا يفارقه ، وخف إليه الناس فابتسم ابتسامة ساحرة ، وتألقت عيناه الفيروزيتان ببريق أخاذ .. إنه الشيخ الذى تحلم به السينما الأمريكية .

ووقف فى ساحة المطار الخارجية يتحدث إلى الملأ ، ودارت عيناى فى المكان فألفيت السحن البيضاء والسمراء والسوداء ، والأجسام الطويلة والقصيرة والمكورة ، والشوارب واللحى السود والبيض والتى اختلط فيها السواد بالبياض ، فكنت كأنما أشاهد مشهدا من مسرحية خلت من النساء .

وأذن بالرحيل فشغل كل بعناق أهله ورفاقه ، والتف الجميع بالوزير التفاف السوار بالمعصم ، وبقيت وحدى برهة أحسست فيها أنى غريب ، وانسللت قاصدا الطائرة وإذا بصديق مصرى يعترض طريقى ويصافحنى فى حرارة ، ففرت أشباح الوحشة التى تحركت لتعشش فى جوفى .

وأخذت مكانى فى الطائرة ، وجعلت أتفرس فى وجوه رفاق الذين سأمضى معهم شهرا أو بعض شهر فى الليل والنهار فى الطائرة والسيارة ، وحاولت أن أرسم لكل منهم صورة مميزة فى ذهنى .

رأيت بجوار الوزير رجلا أسود مفلفل الشعر مضعضع العينين فى وجهه شعرات سوداء متناثرة لا تكون شاربا ولا لحية ، ولكنها تومئ إلى شيء من ذلك ، كان يهمس فى أذن الوزير بحديث والوزير يبتسم ، ثم تنفرج شفتاه ثم يضحك ، ثم يرفع الغطرة عن أذنه ويدنيها من فمه ليسمع الهمس فى وضوح . كان سامى إلى جوارى فقلت له :

— من هذا الجالس إلى جوار الوزير ؟

— إنه مصطفى البديوى من كبار تجار مكة وصديق حميم للوزير .

ونظرت إلى مجدى فوجدت بجواره شابا أبيض يزين وجهه شارب وشعر أسود بلا لحية ، ملامحه صارمة ، قلما يفتح فمه ، يدل مظهره على أنه لم يتلق نصيبا من العلم وإن كانت ثيابه التى يرتديها توحى بالغنى ، فملت على سامى مرة ثانية وقلت له :

— الجالس إلى جوار مجدى من نجد ؟

— نعم .

وتفرست فى الجالسين أمامى : كانا حليقين بلا شارب ولا لحية ، أحدهما

أبيض تدل جميع ملامحه على أنه من أصل فلسطينى وأنه من هواة جمع المال ، والثانى أسمر طويل الأنف قصير القامة فى وجهه اعتداد أصحاب الأموال ، حكمت عليه قبل أن أعرفه أنه من ثراة منطقته ، وقد حققت الأيام حدسى ، ولكن لم يخطر لى على بال فى تلك اللحظة أننى سأجعل هذا الشاب الثرى الوقور يغنى معى أغنية بذيئة سأنظمها فى الطريق ، وهو يتمايل برأسه تمايل الغوانى وأنفه الطويل يرسم دوائر فى الهواء .

وسألت سامى عن صاحب الملامح الفلسطينية ، وصاحب الأنف الطويل ، فقال :

— هذا ممدوح نصار من كبار تجار الحجاز .

وأشار إلى صاحب الأنف الطويل وقال :

— وهذا فهد بن عبد الرحمن من المنطقة الشرقية .

ونظرت إلى جوارى ، إلى المقعد الآخر ، فرأيت عقيل راضى . إنه شاب لم يتجاوز الثلاثين ، أصفر الشعر والشارب ، حليق اللحية ، أزرق العينين ، طويل نحيل ، فى وجهه اعتداد فهو من الأشراف . كان موظفا فى الوزارة و لم يكن بينى وبينه أكثر من التحية .

واستلقيت فى مقعدى مسترخيا وراح عقلى يعمل ، إننا الآن متباعدون لا يكاد أحدنا يعرف صاحبه ، جمعتنا المصادفة ، ولكن عما قريب سنندمج ونتفاعل ونتجادل ونتنافر ، وما كنت واثقا من شيء ، ولكن الشيء الذى كنت متأكدا منه أننى سأفتح للجميع قلبى ، ولن تنتهى الرحلة حتى يكونوا جميعا أصدقاء خلصاء لى ، فأنا قادر على أن أتخذ من الشيطان نفسه صديقا دون أن أجرح شعوره ، أو أسمح له أن يتسرب إلى روحى .

وهبطت الطائرة فى مطار بيروت ، وفتح بابها وتسرب إلينا الهواء الرطب ، فقد كانت موجة من البرد تجتاح الشرق الأوسط ، وتقدم الوزير وراح ينزل فى السلم ونحن خلفه ، وسرنا نخب فى ثيابنا الفضفاضة صوب غرفة الاستقبال التى فتحت لنا ، والعيون تصوب إلينا من كل جانب .

وجلسنا قليلا نتحدث عن « البراد » ونتبادل عبارات الترحيب ، ثم نهضنا قاصدين السيارات التى تنتظرنا ، فانطلقنا فى ردهة المطار الخارجية الواسعة ، وفتيات شركات الطيران من كل جنس يبتسمن لنا محييات ، وعيونهن تأتلق . كان ترحيبا حارا لم أشهده من قبل فى بيروت ، فقد جئت إليها فى أكثر من وفد مصرى ، وجئت إليها وحدى ، ولم أحظ من بنات الجيل الملهم بذلك الإشراق الحبيب .

وسارت بنا السيارات إلى الفندق ، ودلفنا إلى ساحة غاصة بسيدات يرتدين أحدث ما أخرجته محال الأزياء فى لندن ونيويورك وباريس ، فاتسعت عيوننا وجعلنا نتلفت وقد اختلفت نظراتنا . كانت بعض العيون جائعة ، وبعضها ينظر فى براءة هدفها النظرة للفن لا النظرة للحياة ، وأحسسنا جميعا راحة للمشهد اللطيف بعد طول الجدب الذى قاسيناه فى المملكة .

وصعدنا إلى غرفنا ، وسرعان ما عدنا إلى المصاعد فرادى لنهبط إلى المكان الموعود .. وظل عامل المصعد يتفرس فى ويبتسم ، فلم يكن يتصور أن يرانى فى بدلة عصرية .

ووقفنا فى ساحة الفندق نتحدث ونحن نضع أيدينا فى جيوب البنطلونات أو نمررها على الكرافتات الأنيقة ، كان بعضنا أشبه بالأمريكان لولا اللحى التى أبت إلا أن تكشف أمرنا .

وتناولنا غداءنا ثم تبعثرنا فى بيروت ، راح كل منا يقضى حاجته ، وذهبت أنا وعقيل إلى السوق نشترى بعض حاجاتنا .

وخرج أصحاب بعض المحال يدعوننا لتشريفهم وينادون :

ـــ تفضل .. تفضل يا حاج .

ورفت على شفتى بسمة ، إذ تذكرت أن أحدهم فى جدة إذا أراد أن ينفى عن نفسه السذاجة قال فى إنكار : « هو أنا حاج » ! . لقد صرت « حاجا » فى نظر إخواننا البيروتيين .

ودلفنا إلى محل فرمز صاحبه بعينه للفتيات ليخففن إلينا ، وقال فى حسرة :

ـــ ليت فردوس كانت هنا .

وضحك عقيل بصوت مرتفع وهو ينظر إلى ، ورحت أشترى بعض هدايا لبناتى فإذا بالأسعار ترتفع إلى حرارة الترحيب ، ظنونى كويتيا أو سعوديا انتفخت جيوبه بالدولار الساحر ، ولكن خابت فراستهم لأول مرة ، فما كان معى إلا بضع أورق مالية مصرية وسعودية ، وكان سعرها فى بيروت منخفضا بعد أن نهب الصهيونيون مصارف غزة وباعوا ما سرقوه فى السوق التى تفتح ذراعيها للحلال والحرام على السواء .

وعدنا إلى الفندق وما اشترينا إلا أشياء يسيرة ، ولمحت الوزير يتأهب للخروج فقلت له وأنا أمرر يدى على لحيتى :

ـــ سأحلق ذقنى فأنا لا أستطيع أن أؤدى ضريبتها ، كانت السبب فى رفع الأسعار ، إذ ظنونى سعوديا ألعب بالدولار .

فقال لى وهو يبتسم :

ـــ لو عرفوا أنك مصرى لكانت الزيادة أكبر ، فالمصريون ينفقون هنا فى

الصيف بسخاء .

فقلت :

ـــ لو عرفوا حقيقتي لتصدقوا على .

وضحك الوزير وانصرف ، وجلست فى ساحة الفندق ، وخطر فى ذهنى أن على الاقتصاديين المحدثين أن يضيفوا اللحى إلى أسباب ارتفاع الأسعار .

وجاء مصطفى البديوى إلى .. كان يرتدى بدلة رمادية وكرافتة توحى بالثراء ، وعلى عينيه نظارته الطبية ، وفى جيب الجاكتة منديل حريرى ، وشعره ينم عن أنه جاء رأسا من عند الحلاق ، ووقف عند رأسى وقال :

ـــ ماذا تفعل هذا المساء ؟

ـــ أذهب إلى السينما بعد أن حرمت منها شهرين .

فقال وهو يجذبنى من يدى :

ـــ تعال معى إلى الجبل .

ـــ ماذا تفعل هناك فى الشتاء ؟

ـــ سهرة بريئة عند بعض الأصدقاء .

وسرت معه وركبنا سيارة انطلقت تسابق الريح فى طريق الجبل . كانت الشمس قد غابت ، ولف الظلام والسكون الجبل الذى يأتلق فى الصيف بالأنوار ويدوى بالناس كخلية نحل . وبدأ مصطفى يتحدث ، قال :

ـــ إننى أحب أن أشرب وأضحك وأكركر ولا شيء غير هذا . حياتى شرب وضحك وكركرة .

فقلت له :

ـــ وأنا لا أحب الشرب .. أنا أضحك وأكركر ولا شيء غير هذا ، حياتى

ضحك وضحك وكركرة .

وأخذ يحدثنى عن أصدقائه فى مصر ، وعضويته فى النادى الأهلى ، وسهراته البريئة فى المعادى ، ومعارفه فى لبنان ، ورحلاته فى أوربا وآسيا ، وكان يضحك ويتحدث و « يكركر » على حد تعبيره ، ولكن حديثه وضحكاته وحركاته تشوبها مسحة من الكدر .. إن فى نفسه شيئا يعكر صفو حياته .

قلت له :

ـــ عندك أولاد ؟

ـــ بنت تزوجت وولد فى الثالثة عشرة .

ومد يده فى جيبه وأخرج صورة ولده .. كان أسمر كأبيه وإن كانت عيناه أكثر اتساعا وبريقا ، وقلت مستأنفا الحديث :

ـــ وأمهم ؟

ـــ ماتت وتزوجت أختها ، إنها فى سن ابنتى .. علمتها الفرنسية فى البيت وعندها مكتبة هائلة .

وطفق يقص على حديث أسرته ، كان مزهوا بها ، واستشفقت من حديثه أنها ليست سبب كدره .

ووقفت السيارة أمام بيت أنيق فى الجبل ، وغادرناها وصوت يرحب بنا فى لهجة لبنانية . ونظرت فرأيت رجلا ممتلئا تبدو عليه آثار النعمة ، وقدمنى مصطفى إليه فتصافحنا ، ثم سرنا فى ردهة تفضى إلى ساحة مؤثثة برياش فاخر ، تنتهى بدرج غطى ببساط أحمر ، ورحنا نرقى فى الدرج حتى بلغنا طبقة أنيقة ، ودلفنا إلى غرفة انتشرت فيها المقاعد الوثيرة ، وكانت الغرفة خالية .

وجلسنا والرجل يرحب بنا ، ومر بعض الوقت وأقبل شاب فى رفقته فتاة فى الثامنة عشرة من عمرها ، رائعة الحسن ، ذات شعر أسود متهدل على كتفيها ، وعينين واسعتين كعيون المها ، ووجه ناصع البياض يزينه طابع الحسن فى ذقنها ، وكانت ممتلئة قليلا ترتدى ثوبا أسود زادها فتنة وتألقا .

وتصافحنا وجلسنا ، ودار الحديث بين صديقى والشاب ففهمت أنهما صديقان قديمان ، وغاب صاحب الدار قليلا ثم عاد يحمل زجاجة وكئوسا ، وقدم لصديقى كأسا ممتلئة بالسائل الأشقر ، فتناولها مشرق الوجه ، وقدم إلى كأسا أخرى فاعتذرت ، فقالت الفتاة فى دهش وهى ترفع كأسها عن شفتيها :

ـــ عجيبة أن تجد اليوم من يرفض الشراب !

فقلت لها فى استخفاف :

ـــ هذا حق ، أنا حفرية قديمة ، أثر من الآثار البائدة .

وأشعلت الفتاة سيجارة ، وراحت تشد منها أنفاسا تنفثها فى الهواء بطريقة تنم عن أنها غانية .

ورحت أفحص عنها بنظرى ، كانت تضع ساقا على ساق وقد انحسر ثوبها حتى كشف أفخاذها ، وكانت فى كل حركة أو إيماءة تحاول أن تبرز فتنتها ، وداعبها صديقى وهى تعب كأسها ، فضحكت ضحكة ناعمة خليعة دمغت معدنها ، ولم يعد هناك شك أنها من بنات الهوى .

ودارت الكئوس بينهم ، وانطلقت عقد ألسنتهم وذاب تحفظهم ، وتحدث بعضهم حديثا استعمل فيه ألفاظا تحمل أكثر من معنى ، وكان معناها الجنسى بارزا ، فكانت الفتاة تكشف المعنى المستور لتدلل على ذكائها !

ورنوت إليها رنوة طويلة ثم قلت لها :

ـــ إنك جميلة وذكية .. وهناك آلاف يتمنون أن تكونى لهم زوجة ، أما كان خيرا لك أن تتزوجى ؟!

فقالت الفتاة وهى تعتدل فى جلستها وتبعد خصلة من الشعر عن عينيها :

ـــ ولماذا أتزوج ؟

ـــ لتصونى نفسك ـــ لكيلا تسيرى فى هذا الطريق .

ـــ ومن أدراك أننى لو تزوجت ما شربت هذه الكأس ؟ لو تزوجت فلن يتورع زوجى عن تشغيلى ، خير لى أن أعمل لحساب نفسى .

ـــ هذا بشع ، لا يمكن تصوره .

فقالت وهى تلقى بالكأس فى جوفها :

ـــ إنك لا تعرف شباب اليوم فى بيروت .

ونظرت إلى الرجال الذين كانوا يصغون . أطبقوا شفاههم و لم يتبسوا بكلمة . وأشحت بوجهى ونظرت من خلل النافذة على المدينة التى تتألق أنوارها عند أقدام الجبل ، فخيل إلى أنها غارقة فى الدنس .

١٥

كنا مدعوين فى الجبل ، فأمضينا الأمسية فى قصر يفوق كل ما يستطيع أن يتصوره الخيال : ردهات من بلور ، وأعمدة من الرخام ، ورياش من أركان الأرض ، وثريات يكاد ينوء بحملها السقف ، ومرايا فى الحمامات وغرف النوم ، وأحواض سباحة .. وأناقة تخلب اللب ، إن قصور ألف ليلة تخر

ساجدة عند قدميه فى ذلة وخشوع .

وسرت أشاهد الحجرات مع رفاق وأنا مفتوح العينين ، كان كل شيء رائعا غريبا ، حتى أنا بدوت فى المرايا وأنا فى الملابس العربية واللحية التى نبتت فيها شعرات بيض شيئا عجيبا . كنت فى حلم من الأحلام .

واقترب مصطفى منى وهو يخب فى مشلحه الأسود ، وقال فى صوت خافت :

ـــ هذا القصر ، وهذا الحوض يملأ بالويسكى ، وفرقة من الحسان ، ولا شيء بعد هذا .. سأكون فى الجنة .

فقلت له وأنا أدنو منه :

ـــ أفهم أن تتمنى أن يملأ هذا الحوض بالويسكى ، ولكن لا أفهم لماذا تتمنى فرقة من الحسان ؟

ـــ لأضحك معهن وأكركر .

ـــ حرام عليك أن تتمنى فرقة من الحسان ليكتب عليهن الحرمان الأبدى ، كيف تكون هذه جنة والفتيات فى النار ؟

ودفعنى بقبضته فى كتفى وهو يضحك ، وسرنا نقتفى أثر الذين سبقونا ، نسير خلفهم ، ونجوس خلال الدار . وانتهينا من الطواف ، وحان ميعاد الانصراف إلى المطار ، فعانق الوزير المضيف الكريم ، ثم ركبنا سياراتنا التى انسابت هابطة فى جبال لبنان فى هجعة الليل قاصدة المطار .

كان الليل قد انتصف ، وكان الجو باردا ، حتى أننى أخذت أضم مشلحى الصوف إلى صدرى وألفه حول ساق العاريتين لأحول بين الهواء البارد وبينهما ، وعلى الرغم من تأخر الوقت وقسوة البرد كانت غرفة الاستقبال فى

المطار غاصة بالمودعين .

ونودى علينا بالذهاب إلى الطائرة فنهضنا ، واستؤنف العناق والسلام والدعوات والتوصيات ، وانسللت وأنا أحمل حقيبة يدى فما كان هناك أصدقاء يعانقوننى ويتمنون لى أطيب التمنيات .

وصعدت فى درج الطائرة وأنا أتبختر فى أثوابى فأضم المشلح ، وسرعان ما أرفع رأسى وأنظر إلى مضيفتنا الواقفة تنتظرنا عند باب الطائرة لأكشف ما إذا كانت تلحظ لحمتى .

وبلغت المضيفة وألقيت عليها تحية المساء بالإنجليزية ، وأنا أومىء إليها برأسى إيماءة قلما تصدر إلا من رجل رفع قبعته تحية لسيدة ، وفى مثل لمح البصر تصورت نفسى وأنا أرفع لها العقال والغطرة ، فكادت بسمة خبيثة تولد على شفتى ، لولا أننى أسرعت لأحتل مقعدى .

وجلست وخف سامى واحتل المقعد المجاور لى ، وأغلق علينا باب الطائرة ، وأخذت المضيفة تمر علينا وتلتمس منا أن نربط الأحزمة .

كانت المضيفة ترتدى قميصا أبيض وجاكتة و « جونلة » من قماش كحلى . وكانت ناصعة البياض وشعرها يميل إلى الحمرة وفمها أشبه بخاتم مستدير ، حسبتها لأول وهلة أمريكية ، ولكنها كانت تختلف عن الأمريكيات بامتلاء ساقيها وذراعيها .

وراحت العيون تتبعها ، ولو كان وقع العيون يحس لأحست وخزا فى كل جزء من أجزاء جسمها ، ولتأوهت من وخز النظرات المسلطة على صدرها النافر وأردافها الممتلئة .

وارتفعت الطائرة ، وجاءت المضيفة ووضعت على ساق بطانية من

الصوف وأرشدتنى إلى مكان « جاكتة » النجاة ، وقالت :

— أتعرف كيف تستعملها ؟

فقلت لها وأنا أعبث فى لحيتى :

— سمعت الشرح الذى تتفضل به المضيفات أكثر من مرة ، ولكننى واثق أننى لن أستعملها .

ولم تفهم قصدى فى يسر ، بل ظنت أننى واثق من أننا سنصل بسلام ، فقالت وهى تبتسم :

— أتعشم ذلك .

وغادرتنى ولم تفطن إلى أننى أقصد أننى لن أستعملها حتى لو انهارت الطائرة لتغرق فى المحيط ، فأين الأعصاب التى تدع للمرء فرصة التفكير فى « جاكتة » النجاة ، وفى ارتدائها ، وكسر النافذة الزجاجية والخروج منها إلى الماء ، ثم جذب الوسيلة المثبتة فى « الجاكتة » تملأ هواء ، وإذا لم تنتفخ يفك الصمام وينفخ « الجاكتة » بفمه ، كل ذلك وهو فى الماء بعد مغادرة الطائرة ، أين رباطة الجأش التى تمكن المرء من أن يفعل هذا كله والطائرة تهوى إلى مصيرها المحتوم كالشهاب ؟! والصفارة المثبتة فى « جاكتة » النجاة ما دورها ؟ إنها للفت أنظار ركاب السفن إليك أنت أيها السعيد الذى نجوت من الطائرة التى سقطت فى المحيط !

من اخترع هذه « الجاكتة » رجل متفائل ، مغرق فى التفاؤل . وياليتهم وضعوه فى طائرة وحده فى المحيط وأوقفوا محركاتها — ولا أقول وأشعلوا النار فيها — ليرشدنا عمليا إلى فائدة « جاكتته » التى يخدر بها أعصاب ركاب المحيطات .

وتدسست إلى رأسى فكرة شغلتنى عن جاكتة النجاة وعن المضيفة التى وقفت عند بوفيه صغير لا يفصل بينى وبينه إلا ستارة أسدلت ، حجزت عنى رؤية جزء من المكان .

فكرت فيما إذا كتب على أن أموت الآن ، أأموت حسب الزمن فى القاهرة ، أو حسب الزمن فى جدة حيث تركت زوجتى وأولادى الصغار ، أو حسب الزمن فى المنطقة التى سألفظ فيها آخر نفس ، وحسب التوقيت العالمى ، أو هناك توقيت خاص يستعمله عزرائيل ، ولأول مرة فى حياتى رثيت لملك الموت ، وأشفقت عليه وقدرت الجهد الذى يكابده ليريح الناس من تباريح الآلام وقسوة الآمال .

وأطفئت الأنوار فى الطائرة ولم يبق إلا ضوء خافت حالم ، وإلا الضوء الذى يتسرب إلى من فرجات الستارة ، واضطجعت وأغمضت عينى لأغرى النوم على الطواف بى ولكن لم يعرف الوسن طريقه إلى جفنى ، وتقلبت فرأيت مجدى واقفا بجلبابه الصوف وعلى رأسه الغطرة الحمراء والشطاف الأسود وفى يده كوب ، وأمامه المضيفة يحادثها ، وهو يصوب إليها نظرات نارية . ولا أدرى لماذا تذكرت تلك اللحظة قول القائل لابنه الذى كان يتفرس فى حسناء : « يا بنى لو كانت النظرة تحبل لحملت الفتاة من نظراتك » .

ومرت دقائق ومجدى يتجاذب مع الفتاة أطراف الحديث ، وغفوت مدة استيقظت بعدها فجأة على هبوط الطائرة هبوطا شديدا أفزعنى ، فقد مرت بجيب هوائى ، ونظرت بعد أن سكن روعى فوجدت مجدى لا يزال يحادث الفتاة وهى غارقة فى التطلع إليه .

ولحنى أتقلب فى مقعدى فجاء إلى وقال لى وهو يميل بجسمه حتى يدنو من أذنى :

— ألم تنم ؟

— لست ممن ينامون فى السينما مهما كانت الرواية ! فما بالك إذا كان البطل ابن الشيخ والبطلة أمريكية !

فابتسم وقال لى وهو يدنو من أذنى :

— إنها ليست أمريكية ، إنها ألمانية .

— إنها تبحث عن تجربة جديدة ، وأنت فاكهة غريبة تشتهى أن تتذوقها .

— سأقابلها فى كراتشى ، تواعدنا على اللقاء .

— أنا واثق أنها ترحب بدعوة أى عضو من أعضاء الوفد ، إنه حب الاستطلاع .

— لا .. لقد ملأت رأسها .

— إننى لا أنكر أنك وسيم ، وأنك شاب ، ولكن ليس هذا ما جذبها إليك . إنه سحر اللباس الذى ترتديه ، ولو غازلها أى رجل فى الوفد لاستجابت إليه .

فقال فى ضيق :

— لا أظن . لو رأيتنى فى سويسرا لعرفت قدرى .

— وهل أنكرت قدرك ! إننى أقرر حقيقة .

فقال وهو يهم بالانصراف :

— المهم أنها ستقابلنى الليلة فى كراتشى .

وغاب عن عينى ، ومرت لحظات رحت بعدها فى سبات ، لا أدرى كم

نمت ، ولكن عندما فتحت عيني لمحت المضيفة تغازل الشاب الذى يشاركها العمل فى الطائرة ، وكانت حركاتها تنم عن وجود أواصر عميقة من الألفة بينهما ، ذكرتني بمداعبة الزوجة لزوجها فى شهر العسل .

ولم أنم إلا غرارا ، وأشرقت شمس الصباح ، وإذا بسامى يتثاءب ويتمطى ، ثم يلتفت إلى ويقول :

— صباح الخير . نمت جيدا ؟

— نمت نوما متقطعا .

— إننى لم أشعر بشىء .

— هذه نعمة .

— ماذا تقصد ؟

— أقصد أن عدم الشعور نعمة ، نمت ونامت مشاعرك فقمت نشيطا منشرح الصدر ، أما أنا فقد أرهفت حواسى طوال الليل ، فثقل رأسى وأحس إرهاقا .

ومرت المضيفة بنا ، فقال سامى وهو يتبعها بنظره ويمصمص شفتيه :

— جميلة !

فقلت له وأنا أبتسم :

— رأيت بالليل فصلا من فصول حياتها .

— وماذا رأيت ؟

— مشهدا غراميا بينها وبين مجدى ، ومشهدا آخر أشد عنفا بينها وبين زميلها .

وجاء مصطفى البديوى مشرق الوجه ، ومال على وقال فى زهو :

— واعدت المضيفة على أن نلتقى فى كراتشى الليلة .

— أين ؟

— فى فندق المتروبول .

فقلت له وأنا أضحك :

— وماذا ستفعل معها ؟ تشرب وتضحك وتكركر ولا شيء غير هذا ؟

— إننى لا أريد إلا أن أشرب وأضحك وأكركر .

— أبشر .

وضحك سامى ، وسار مصطفى فى خيلاء ، أرضى غروره أن الفتاة البيضاء الممتلئة استجابت دعوته .

والتفت إلى سامى وقلت له :

— إنها واعدت مجدى فى نفس الوقت وفى نفس المكان ، ومن يدرى لعلها واعدت الآخرين .

— وكيف توفق بين هذه المواعيد ؟

— واعدتهم جميعا لتضمن واحدا منهم ، وستستجيب لأول من يطرق بابها حتى ولو كان أنت .

فالتمعت عينا سامى وقال :

— بالله لا تسخر .

— إنى أقرر حقيقة ، إنها من هواة جمع البصمات ، تشتهى أن تقشر أحدة لتكشف ما تحت الثوب العجيب الفضفاض .

وشرد بصر سامى ، ولا أدرى أكان يفكر فى أمر الفتاة أو كان يفكر فى أن يكون أول الذاهبين إلى فندق المتروبول فى المساء .

(وكان مسا.

وهبطت الطائرة فى مطار كراتشى ، ووقفت المضيفة وزميلها يودعان الهابطين ، وراح أعضاء الوفد يصافحونها وهم ينصرفون ، وكانت النظرات المتبادلة أفصح من الحديث .

وسرنا على أرض المطار وقلوب بعضنا عامرة بالأمل .

١٦

سلطت علينا الأضواء ، والتقط مصورو الصحف والمجلات الصور من كل الزوايا ، وكانت أنشط المصورين امرأة شقراء على عينيها الزرقاوين منظار ، ترتدى بنطلونا أصفر وقميصا من نفس اللون التصقا بجسمها التصاقا تاما ، فبدت تفاصيل البطن البارز والأرداف المكتنزة ، وكان كسمها يوحى بأنها حملت ووضعت أكثر من مرة .

وتقدمنا إلى غرفة الاستقبال والمستقبلون يحفون بنا ، والعيون تتطلع إلينا فى تفحص وإجلال ، فإننا قادمون من الأرض المقدسة .

وأخذت المصورة تدور كالنحلة ، كانت كتلة من نشاط ، وبدأت آلة التصوير السينمائى تدور ، فإذا بنا جميعا نصلح مشالحنا على أكتافنا ونسير فى خيلاء ونتحرك فى تصنع وافتعال .

وجاءت سيارة وحملت الوزير إلى بيت رئيس الجمهورية ، ودلفنا نحن إلى غرفة الاستقبال نتبادل مع مضيفتنا عبارات الترحيب ، وأحسست يدا على كتفى فالتفت ، فإذا بالملحق التجارى المصرى يبتسم ويقول :

ـــ آسف ، لم أعرفك لولا أن قال لى أحدهم ، لم فعلت فى نفسك كل هذا ؟

فقلت له وأنا أعبث فى لحيتى :

ــ إننى عضو فى هذا الوفد ، وعلى أن أحافظ على تقاليده وأن أكون سعوديا أكثر من السعوديين أنفسهم ، فنظرات زملائى ستفحصنى وتجسم أخطائى ، وقد يغضبهم أن تبدر منى هفوة ولن يحرك ساكنهم لو ارتكب أحدهم جرما ، سيرون القشة فى عينى و ...

وقبل أن أتم حديثى جاء إلى سامى وهمس فى غضب :

ــ أصلح شطافك .

انفرج عقالى ، بعدت حلقة عن أختها قليلا فلمحتها عين سامى المسلطة على لفضح أخطائى ، فمددت يدى وضممت الحلقة على الأخرى ، ودارت علينا كئوس شراب الليمون .

وأفعمت الغرفة بعبارات الترحيب ، وخف عقيل إلى ومد يده إلى عقالى وأبعد حلقته العليا عن أختها وقال لى :

ــ شيوخ القبائل لا يرتدون الشطاف إلا هكذا . منظرك رائع الآن .

وتحرك شيطانى فناديت ساميا وقلت له :

ــ انظر ماذا فعل عقيل !

فالتفت سامى إلى عقيل وقال فى حدة :

ــ ما هذا ؟ ما هكذا يلبس الشطاف .

ــ بل هكذا يلبس .

ــ لا يا شيخ .

ــ جميع شيوخ القبائل عندنا يلبسونه هكذا .

وجاء فهد بقامته القصيرة الممتلئة وأنفه الطويل ، ورأيت إدماجه

المناقشة فقلت له :

ـــ اختلفا فى لبس الشطاف ، أتضم حلقتاه أو يفرج بينهما ؟

فقال فهد :

ـــ فى المنطقة الشرقية عندنا يفرج بينهما .

واشترك فهد فى المناقشة ، واحتدم الجدل وإن كان همسا ، وتعصب كل إلى رأيه وراح يدافع عنه دفاع علماء المسلمين فى العصور المظلمة عن رأيه فى المناظرة التى احتدمت فى ذلك الأوان ، والتى كانت تدور حول أيهما أفضل : مكة أو المدينة ؟! وجف حلق فهد فالتفت يقول :

ـــ أما من خادم يأتينا « بجج » ماء ؟

إن الكلمات الإنجليزية دخلت العربية وامتزجت بها ، وأصبح يشتق منها وتصرف . ستسمع (Jug) وهو الإبريق و « غرفة مكندشة » بمعنى مكيفة و « رود واسع » بمعنى طريق واسع ، وأصبح الموضوع « مفنشا » بمعنى منتهيا و « تلهمنى » بمعنى أخبرنى ، واشتقت من (Tell him) » والريل « بمعنى السكة الحديدية ، وتزداد الكلمات الإنجليزية أو الأمريكية انتشارا فى اللغة العربية كلما اتجهت إلى المنطقة الشرقية ، ولا أدرى هل الدولار هو السبب ، أو الحكام الذين كانوا خاضعين للورنس وعبد الله فيلبي وجلوب باشا ؟

وأدرت عينى فى المكان ، فألفيت مصطفى قد انفرد برجل من الباكستان والحديث يتدفق من فمه ، كان يسره أن يتحدث عن ذاته ، ويتلذذ بسماع صوت نفسه . ونظرت إلى شطافته فألفيت حلقتيها مضمومتين ، وفتشت عن ممدوح فوجدته واقفا فى ركن من الغرفة وهو يتحدث بيديه ورأسه فى حركة

دائبة ، ولمحت شطائفه فإذا بحلقتيها منفرجتين ، ولكن انفراجهما لم يلفت نظر أحد من زملائى فما كان محط أنظارهم .

وجاء مجدى وطلب منا أن نتفضل إلى السيارات ، فنهضنا وسرنا فى ردهة طويلة وخدم المطار يحيوننا فى خشوع ، ولو استجابوا لعواطفهم لخفوا إلينا يتمسحون بنا ، فهم يعتقدون فى قرارة نفوسهم أن كل ما يفد من الأراضى المقدسة مقدس .

وبلغنا السيارات وركبنا فيها ، وسرعان ما انطلقت بنا تشق الفضاء .

والتفت خلفى ألقى نظرة على المطار بعد أن ابتعدنا عنه ، فإذا بحظائره ومبانيه تنم عن الطابع البريطانى .

وانسابت بنا السيارات فى صحراء جرداء ، ووقع بصرى على منازل متواضعة أقرب إلى الأكواخ كان منظرها يشوه المكان ، وفطن أحد المرافقين لنا إلى الدهشة التى ارتسمت فى وجهى فقال لى :

— هذه بيوت اللاجئين ، ترك عشرة ملايين من المسلمين دورهم وأملاكهم فى الهند عقب التقسيم ولجئوا إلى الباكستان فرارا من الاضطهاد .

وراح الرجل يتحدث وأنا شارد ، لم أكن أصغى إلى حديثه بل أخذ ذهنى يفكر فى الناس ويتساءل : لماذا لا يعيش البشر متحابين متصادقين ، لا قهر ولا عنف ولا اضطهاد ، يعتنق المرء منهم ما يشاء من الأديان والمذاهب ، ويحترم الآخرون عقيدته ومذهبه . الحياة أقصر من أن تتسع للمشاحنات والإحن والبغضاء ، لماذا لا يعيش الناس كلهم فى سلام ؟ لا أظن أن هناك فردا عاقلا يرحب بالحرب والدمار ، فلماذا تتأهب جميع الدول للعدوان وتتسابق فى إنتاج أسلحة الخراب ؟ علة ذلك أن رؤساء الأمم لم ينضجوا بعد نضجا إنسانيا

كاملا ، قد يكونون ناضجين فى السياسة والمكر والدهاء ، وقد يكونون ناضجين علميا أو اقتصاديا ، ولكن شتان بين النضج السياسى أو العلمى أو الاقتصادى ، والنضج الإنسانى الرفيع .

وراحت الأفكار تنثال على رأسى ، ورحت أتساءل : لماذا لا يثور الذين نضجوا إنسانيا على زعمائهم ويرغمونهم على نبذ التجارب الذرية والهيدروجينية والقذائف الموجهة وأدوات الدمار ؟ ونبت الجواب فى ذهنى : إنهم لا يفعلون لأنهم غالبا يعيشون فى المجتمع بعقلية القطيع ، وإن تساموا على المجتمع وحصنوا عقولهم وصدوا عنها تيارات الدعاية المغرضة ، سلط الزعماء الطبقة المؤمنة بمبادئهم على هذه الصفوة للقضاء عليها .

لا أمل للبشرية فى أن تسود المحبة بينها إلا أن يتولى أمورها قادة تم نضجهم الإنسانى ، ولو ظل زعيم واحد منهم يؤمن بمبادئ الغابة فعلى الدنيا السلام .

ووصلنا إلى كراتشى : الشوارع واسعة والمبانى قلما ترتفع عن طبقتين أو ثلاث ، والسيارات عتيقة ، والعربات التى تجرها الخيل تجرى هنا وهناك ، والصندوق الذى يتسع لراكبين ويسحبه موتوسيكل من طراز « فسبا » هو أكثر وسائل المواصلات انتشارا ، أما الترام فكانت تدرج على قضبانها كامرأة عجوز .

لم تلمح عينى آية من آيات الترف ، حتى السيارات التى كانت تحملنا سيارات أجرة غطيت عداداتها بخرق سوداء ، فالحكومة لا تملك سيارات تضعها فى خدمة ضيوفها ، فأين هذا من السيارات « المكندشة » التى رأيتها فى المملكة ؟

وكان الجمل الشامخ فى كبرياء ذليلا فى شوارع كراتشى ، كان يجر

عجلات فوقها أحمال ثقيلة ، إنه صابر يخفف عنه ما يستشعر من هوان ذكريات أمجاده السالفة .

وبلغنا بيت الضيافة ، وحيانا الحراس التحية اللائقة ، ووقفت السيارات عند باب أمامه مظلة وعمودان من الأسمنت المسلح ، وهبطت من السيارة وأنا ألم ملابسي المبعثرة وأصلح هندامي وأرفع يدى إلى الشطاف أضم حلقتيه ، ولما اطمأننت إلى الوقار تقدمت أصعد فى الدرجات القليلة ، ثم انحرفت يمينا إلى قاعة واسعة ، صفت فيها مقاعد وثيرة ، وجلست أنتظر التعليمات .

وجاء رجل يرتدى عمامة بيضاء وملابس بيضاء تتكون من سروال طويل ضيق عند القدمين وقميص فضفاض وحول وسطه حزام أحمر ، وكان شاربه الكث ولحيته الغزيرة المخضبة بالحناء يستغرقان كل وجهه ، إنه أشبه بصاحب التمثال المحنى الموضوع فى مكاتب الطيران ليرحب بالوافدين إلى الهند .

كان الرجل يحمل أقداح الشاى فراح يدور علينا وأنا أتفرس فيه ، لم يكن غريبا عنى .. رأيته فى جميع روايات السينما التى تدور حوادثها فى الهند ، إنه هو نفسه ولا شك الذى أوحى إلى مخرجى السينما شخصية الساقى الهندى .

وأرشدت إلى غرفتى ، وعلمت أن شريكى فيها مصطفى البديوى ، فالتفت إليه وقلت له :

ـــ تفضل يا شريك الهناء .

ـــ تفضل أنت .. أنتظر أحد أصدقائى وسيحضر الآن .

واتجهت إلى غرفتى ، كان بابها فى نفس القاعة الواسعة ، ووضعت حوائجى وارتميت فى الفراش أستريح .

ومر بعض الوقت ، ونهضت لأدخل الحمام ، وقبل أن أتوجه إليه خطر لى

أن ألقى نظرة على مصطفى ففتحت الباب فرأيته فى القاعة وحده ، فقلت له :

— لم يأت صديقك بعد ؟

— لا . تعال .

— بعد أن أخرج من الحمام .

— تعال . أريدك فى أمر هام .

وانطلقت إليه حافى القدمين حاسر الرأس وجلست إلى جواره ، فدفع إلى إعلانا مكتوبا باللغة الإنجليزية من الإعلانات التى ترفق بالأدوية ، وقال :

— أبغاه ليشترى لى الدواء .

وأخذت فى قراءة الإعلان ، وراح هو يبتسم ثم « كركر » . كان الإعلان عن دواء يقوى الجنس ، فقلت له وأنا أعيد الإعلان :

— أتؤمن بهذا ؟

— هذا دواء مفعوله أكيد ، لا يوجد إلا هنا فى بلاد العطارة والعقاقير .

فقلت له وأنا أبتسم :

— عندى فكرة أفضل .

فقال وقد اتسعت عيناه :

— قل .

— إننا هنا فى بلاد الحواة ، يزمر الحاوى منهم للكوبرا فترفع رأسها . وقد رأيت فى شريط سينمائى هنديا يزمر للحبل فينتصب فى الفضاء ويتسلقه البطل حتى يصل إلى شرفة حبيبته . أظن أنك فى حاجة إلى حاو من هؤلاء أكثر من حاجتك إلى هذا الدواء .

فدفعنى بقبضته فى كتفى وقال :

— دائما تمزج الجد بالهزل .

فقلت وأنا أشير إلى الإعلان :

— أهذا جد ؟

— نهاية الجد . أمل غال .

— أمل المشرف على الموت في الحياة .

وفجأة أحسست قسوة حديثي ، وتقاصرت نفسي ، وهب ضميري يقرعني ويصيح بي لماذا تسخر منه ؟ من حقه أن يتشبث بالحياة . إنه زوج لشابة في السابعة عشرة لها عليه حقوق وهو لا يريد أن يقصر أو يحرمها حقوقها . إذا كانت الستون قد نالت منه فلماذا لا يلوذ بالطب والعطارة والعقاقير !؟

ورأيت أن أمسح وقع سخريتي فعزمت على أن أظهر اهتمامي بما يهتم به ، فقلت له :

— أرجوك أن تريني هذا الدواء العجيب لما يشتريه صديقك .

فأشرق وجهه وقال :

— سأشتري لك منه .

فقلت له مداعبا وأنا أبتعد :

— سيبخل به صديقك علينا ، سيؤثر به نفسه إذا عرف فوائده .

وهدأت نفسي لما عاد الإشراق إلى وجه مصطفى ، وانسحبت لأذهب إلى الحمام .

وتقضى الوقت ، وفتح باب غرفتنا ودخل مجدى وعيناه يتطاير الشرر منهما ، قال :

ـ أف ... أف ... والله العظيم ... والله العظيم ...

ـ ماذا جرى ؟

ـ حسبت أننا سننزل فى المتربول وإذا بهم يجيئون بنا إلى هنا ، وعللت النفس بالذهاب فى الليل لمقابلتها ولكننى علمت الآن أننا مدعوون على العشاء . ضاع كل شيء وتقوض كل تدبير .

ـ إننى لا أرثى لها .

والتمعت عينا مجدى ، ظن أننى أرثى لها لأن شابا وسيما مثله انساب من بين ذراعيها ، فقال والغرور يمشى فى أوصاله :

ـ لماذا ؟

ـ لأنها واعدت الوفد جميعه على أمل أن تضمن بصمة جديدة غريبة ، فهى من هواة جمع البصمات ، ولكن الظروف نقضت غزلها .

ـ ماذا تقول ؟

ـ لم تواعدك وحدك ؛ واعدت مصطفى ، وواعدت ممدوح ، وكان سامى عازما على الذهاب إليها . كان هدفها الأول أن تتاح لها فرصة تقشير أحدكم .

١٧

عقدت اجتماعات بيننا وبين الجانب الباكستانى ، وبرز فيها فهد بن عبد الرحمن بماله . إذا قال الباكستانيون عندنا فائض من الأسمنت بسعر كذا ، قال فهد على الفور : إنه على استعداد لشراء حمولة سفينة ، وإذا قالوا عندنا فائض

من كذا ، أبدى استعداده لشراء ذلك الفائض ، كان إلمامه بالإنجليزية محدودا ، ولكن أرصدة أمواله فى البنوك أمدته بثقة فى نفسه ، فكان يتحدث حديث الواثق ، وكان الباكستانيون يعيرونه سمعهم ، وهم يأملون أن يتحول الحديث إلى دولارات .

وذهبنا لزيارة مصنع ضخم .. كانت الآلات الهائلة تهدر كمارد جبار ، والعمال العجاف يرقبونها وقد تعرت صدورهم . كانت المسكنة فى وجوههم ، وما كانت عيونهم تأتلق بالآمال .

وسار معنا صاحب المصنع مشرق الوجه ، كان فى حجم الثور يتكلم عن ملايينه وآماله فى زهو ، وراح يتحدث عما يصنعه لعماله وعن الحياة الناعمة التى أعدها لهم ، وأراد أن يعرض علينا منته الكبرى عليهم فذهب بنا إلى مساكن العمال .

وخاضت السيارات فى ماء آسن ، وخرج الأولاد من منازل وضيعة عرايا ، وأسرعت زوجات العمال لمشاهدتنا .. كن ذابلات يلوح عليهن سوء التغذية ، وكان على أذرعهن أطفال لفوا فى ثياب بالية ، وملأت أنوفنا رائحة كريهة ، فتقززت نفسى ، ولم أطق أن أفتح عينى على المشاهد البغيضة ، فأغمضت عينى وكتمت أنفاسى .

كان كل شىء بغيضا مقيتا حتى أننى التمست من مرافقنا أن يعود بنا من حيث جئنا ، وأخذت السيارات تخوض فى الأوحال فى طريق عودتها .

وعدنا إلى بيت الضيافة ، ودخلت أنا وممدوح غرفة الاستقبال ، بينا صعد الآخرون إلى غرفهم ، والتفت ممدوح إلى وقال :

— معدتى مرتبكة قليلا .

فقلت له ناصحا :

ـــ تناول غداء خفيفا .

فقال وهو يضع يده على بطنه :

ـــ لا ، إننى أعرف دوائى .

ونادى على الخادم وأسر إليه بعض كلمات ، ورأيت أن أنسحب فاتجهت إلى غرفتى ، وسمعت ممدوح يقول :

ـــ إلى أين ؟

ـــ إلى غرفتى لأصلى الظهر .

ـــ انتظرنى لأصلى معك . لا زلت على وضوء .

ـــ وانتظرته ودخلنا الغرفة معا ، وأقسمت عليه أن يتقدم ليكون لى إماما . وصلينا وقضيت الصلاة ، وخرجنا إلى غرفة الاستقبال ، وأقبل الخادم فى يده كأس بها ويسكى وقدمها إلى ممدوح .

وغيب ممدوح الكأس فى جوفه وهو يقول :

ـــ هذا دوائى .. إنه علاج مجرب .

ورمقت من صليت خلفه برهة ، ثم انصرفت لأعيد صلاة الظهر وحدى .

واجتمعنا حول المائدة نتجاذب أطراف الحديث ، ومال ممدوح على مجدى وأسر إليه النجوى ، فأشرق وجه مجدى والتمعت عيناه ، وفى العصر ظهرت آثار المناجاة .

توجهت إلى القبلة لأصلى واستغرقت فى صلاتى ، وسمعت باب الغرفة يفتح وسمعت صوت مجدى ثم همس مجدى ومصطفى ، ودق الجرس وقدم

الخادم ثم أغلق الباب وما لبث أن فتح .

وانتهيت من صلاتى وسلمت ونظرت ، فرأيت مجدى ومصطفى يتقارعان الكئوس وينظران إلى ويغرقان فى الضحك . أسر ممدوح إلى مجدى بسر الويسكى ، فجاء إلى غرفتى يشربه مع مصطفى الذى يحب أن يجارى الناس .

وقلت لهما :

— ما شاء الله ، هذا تجديد صلاة على قرع الكئوس .

فأقبل مجدى إلى وفى يده كأسه ، وقال وهو يقرب الكأس من فمى :

— اشرب .

فقلت له فى هدوء :

— إننى لا أشرب .

— جرب .

— حاولت فتاة ما تحاوله الآن وأنا فى الرابعة عشرة ، وقد أخفقت .

— لماذا تحرم نفسك ؟

— أجد لذة فى هذا الحرمان قد تفوق اللذة التى تجدها فى الشراب .

— قل إنك تخاف أن يدور برأسك وأن ينطلق لسانك بأسرار أن تنتهك أسرارها .

— ليس فى حياتى ما أخجل من أن يبدو الناس ، وليس فى حياتى ما أريد أن أنساه أو أفر منه وأكتم أنفاسه بالشراب .

واربد وجه مجدى ، واستشعرت من حركة عينيه أنه يكابد قلقا ، فأشحت بوجهى عنه حتى لا أكبده مشقة كبح جماح عواطفه ، وجلست على حافة سريرى ، وجلس مجدى على حافة سرير مصطفى ، وساد الصمت المكان وأنا

أرمقهما بطرف عيني ، وشردت فملأت صورة سائقي اليمني القميء صفحة ذهني ، والسياط تهوى على .

واستشعرت امتعاضا ؛ أوقعته المصادفة السيئة فى يد آمر بالمعروف قد يكون ممن يشربون فى اطمئنان ، دون أن يخشى بطش زملائه الآمرين بالمعروف .

١٨

كنت فى الغرفة وحدى ، كانت هذه أول مرة منذ بدأت الرحلة أنفرد فيها بنفسى ، فرحت أفكر فى زوجتى وابنتى الصغيرة التى غدرت بها وفررت منها ، فخفق قلبى حنانا واستشعرت لهفة وبللت الدموع مقلتى ، فأنا ضعيف وإن حاولت أن أبدو متجلدا ، وإن أية انفعالة حساسة قادرة على أن تسيل عبراتى .

ورأيت بعين خيالى التابعة وهى تتردد إلى الحاج داود ، وأوغل ذهنى فى تصوراته فرأيتها توزع الشربات على أهل البيت جميعا ، ثم تغلق عليها وعلى الحاج داود باب غرفته .

ومشت رهبة إلى صدرى ، ورأيت زوجتى وأولادى الصغار وحدهم فزادت مخاوفى وانقبض صدرى وأرهفت كل حواسى . وأردت أن أنتشل نفسى من تصوراتى فأسرعت أفكر فى فاطمة وأخرج طيفها من كهف الذكريات ، ولكن طيفها عجز عن أن يزحزح الخيالات التى كانت فى رأسى ، وانسل مدحورا ليتوارى تاركا مسرح الخيال لزوجة مريضة وطفلة

حبيبة وتابعة لا يهمها من أمر الدنيا إلا نفسها .

الويل لى من لحظات وحدتى ، إننى لأحس فيها وخزا أليما يحز روحى ، ولقد كان من حسن حظى أن تلك اللحظات نادرة ، فقد كنا مشغولين عن أنفسنا بزيارات وحفلات ورحلات واجتماعات .

وقمت منفعلا أكتب رسالة لزوجتى أوصيها بالأولاد خيرا وأمنيها الأمانى . وكتبت إلى أولادى الذين تركتهم فى القاهرة رسالة أطلب منهم فيها أن يكثروا من بعث الرسائل إلى أمهم يملئوا وحدتها حياة وأملا .

وأقبل سامى وقال :

ـــ سنذهب نجوس خلال الأسواق ، هيا .

فقلت له :

ـــ ألا ترى أن نرتدى بدلنا حتى تسهل حركتنا ؟

فقال فى إنكار :

ـــ لا .. لا . هذا لا يجوز . إننا بعثة سعودية فعلينا أن نبدو دائما فى الثوب العربى .

وارتديت ثوبى العربى وخرجت إلى قاعة الاستقبال ، فألفيت بعض زملائى السعوديين يرتدون الثياب الإفرنجية .

وذهبنا إلى السوق ، وخف الأهالى إلينا يرحبون بنا ، وكان الفقراء يحنون رءوسهم لنا احتراما ويرمقوننا فى إكبار وتقديس .

ودنا منى رجل أصفر غزير الشعر ، ابيضت لحيته وكان بياضها أنصع من بياض ثوبه المغبر ، وأخذ الرجل يتكلم وينظر إلى السماء ويشير إلى صدره ، ولم أفهم كلمة واحدة مما يقول ، ولكن فهمت توسلات عينيه ؟ كان يلتمس

مني أن أدعو الله له ليشفيه من مرضه الذى أكل صدره .

أشفقت على الرجل وارتبكت قليلا ، ولكننى لم أكن قادرا على أن أخيب رجاءه ، فوضعت يدى على صدره وقرأت الفاتحة وأنا أرنو إلى السماء ، وكل حواسى تبتهل إلى الله أن يشفيه .

كنت صادقا فى ابتهالاتى ، أحسست حرارتها فى قلبى حتى إننى كدت أن أتوسل إلى الله بدموعى ، وغبت عن كل ما حولى واندمجت فى الكون كله .

وأفقت من شرودى على ضحكة عقيل ، فالتفت فرأيته يهرع إلى سامى والرفاق ويشير إلى . ووقفوا جميعا ينظرون ويضعون أيديهم على بطونهم ويتمايلون وهم يقهقهون .

ورفعت يدى عن صدر الرجل الهزيل فطفق يتمتم بكلمات ، وملامح وجهه تعبر عن حقيقة مشاعره ، كان يشكر لى دعائى .

وانصرف الرجل الساذج الذى آمن أن كل من يأتى من الأراضى المقدسة مقدس ، وقد انبسطت أساريره وقويت روحه ، وعمر قلبه بالأمل بعد أن كان خرابا قفرا ، فقد ساق إليه حسن طالعه رجلا صالحا من البلدة الطيبة .

آه لو درى أننى لست من الأراضى الطاهرة ، وأننى حديث عهد باللحية والثياب التى خدعته .

وجاء المساء وانطلقنا جميعا إلى حيث دعينا ، واندمجنا فى المدعوين ، كانوا موظفين حكوميين ومن التجار والشعب ودارت الأحاديث بيننا، كانت أحاديث اقتصادية ولكن سرعان ما انزلقت أقدامنا إلى حديث السياسة .

عزمت يوم قبلت السفر فى هذا الوفد ألا أتحدث فى السياسة ، وألا أقدم على ما قد يجرح شعور زملائى ، وأن أسالم من يهاجمنى ، وأن أضع أعصابى فى

ثلاجة . كنت حريصا على أن أبدو رزينا ، فأنا واثق أن أية هفوة منى ستنسب إلى المصريين جميعا .

وأغرانى حديث السياسة على أن أنسى ما رسمته لنفسى ، وأن أخوض فيه ، فأنا فى ثياب عربية ، وإنها لفرصة لن يجود الزمان بمثلها لأعرف حقيقة شعور الناس بالنسبة لوطنى . دون مجاملة أو تزويق .

كانت قناة السويس لا تزال مغلقة بعد الاعتداء الخسيس على مصر ، وكانت مشكلة القناة حديث الساعة فى كل مجتمع ، وسألت الناس رأيهم فى مصر ورجالاتها ، فإذا بهم جميعا يؤيدون مصر ، ويعبرون فى حرارة عن حبهم العميق لها .

وانشرح صدرى وتفتح قلبى ، إن الشعوب عظيمة ، فما من شعب يرضى الهوان للشعوب الأخرى . ولكنهم الحكام يسدلون على عيون الشعوب نظارات حمراء وبيضاء وسوداء فيرون الأحداث الجارية فى العالم خلال اللون الذى يشتهونه .

ورحت أجوس خلال الناس منشرح الصدر ، وأقبل إلى سامى مكفهر الوجه فقلت له :

— خيرا ؟

فقال وهو يفرك يديه :

— وبخت توبيخا شديدا ، بل قرعت تقريعا .

فدنوت منه وقلت له :

— ماذا جرى ؟ أفصح .

فقال وهو يتلفت فى ارتياك :

ـــ وقفت أتحدث مع رجل كبير فقال لى : دعكم من هذه اللحى وهذه العباءات والمظهر الدينى هذه كلها قشور ، وأنا أعرف كل ما تفعلونه مع الفتيات فى بيروت .

فقلت له همسا :

ـــ وكيف عرف هذا ؟

فقال لى وهو يهز يديه فى يأس :

ـــ إنه سفير الباكستان فى بيروت .

ـــ وماذا قلت له ؟

ـــ لم أقل شيئا ، عقد لسانى وأحسست أننى غريق .

ورأيت أن أهون عليه حزنه فقلت له :

ـــ لا عليك ، كل البلاد فيها الصالح والطالح .

فقال سامى وهو يهز رأسه فى أسى :

ـــ والله كشفنا .

وسار سامى مطرقا حزينا ، لم يحرك أساه ما يفعله السعوديون فى بيروت ، وقبض صدره أن هناك من كشف أمرهم . وعجبت للإنسان يفعل المنكر دون أن يحزن ، فإذا انكشف أمر ذلك المنكر غضب وثار . صرنا جميعا إسبرطيين نشجع السرقة ، والويل لمن يضبط متلبسا بها .

وانتهت الوليمة ، وتأهبنا للانصراف ، ونظرت إلى حذائى وأنا أرفع طرف الثوب فلمحت ثنية بنطلون البيجاما ، فقد لبست الثوب ونسيت أن أخلع بنطلون البيجاما !

وكنت أستطيع أن أسدل الثوب وأنصرف بسلام ، فما كشف أحد

أمرى وما كان أحد بقادر على أن يكشفه ، فجلبابى الصوف طويل لا يظهر منه حتى حذائى ، ولكننى عزمت على أن أرى ما يفعل الزملاء لو عرفوا أننى كنت طوال الحفلة أرتدى البيجاما .

ودنوت من سامى وقلت له وأنا أرفع طرف جلبابى :

ـــ انظر !

ولمح خطوط البيجاما العريضة ، فقال فى إنكار :

ـــ لا . هذا لا يليق .

وارتسمت على وجهه امتعاضة ، ورفت على شفتى بسمة وأنا أتطلع إلى سرواله الأبيض الطويل الذى يبدو من تحت جلبابه ، لم أعرف ما الفرق بين سرواله المكوى المشغول طرفه بالحرير وبين بنطلون بيجامتى المستور ، ولا أظن أن أى باكستانى كان بقادر على أن يفرق بين سراويلهم البيضاء وبنطلون بيجامتى لو قدر له أن يراه ، ولكن سامى غضب لأنه اعتبر ارتداء بنطلون البيجاما تحت الجلباب خرقا للتقاليد .

إننا جميعا عبيد الأوهام .

١٩

كنا فى رحلة دائمة ، نقطع عشرات الأميال أو مئات الأميال لنزور مصنعا أو نقابل رجال الأعمال فى منطقة ، ثم نعود إلى الاستراحة الحكومية ، وما نكاد نلتقط أنفاسنا حتى نخرج لنلبى دعوة للشاى أو لعشاء كنت أعود بعدها إلى الفراش ، فأنا لا أطيق السهر . ويذهب رفقائى إلى السينما أو إلى مرقص بعد أن يخلعوا ثيابهم ويرتدوا الثياب الأوربية أو إلى ما يشاءون من أنواع التسلية ، وكانوا جميعا يخفون إلى فى الصباح يقصون على ما فعلوه فى أمسهم .

كان مجدى حليف الشراب ، يشرب فى غرفتى ما شاء له أن يشرب ، ثم ينطلق فى الليل مع بعض رفاقه إلى بيت من بيوت الهوى ، وما أن يستقر به المقام حتى يستأنف الشراب ولا شيء غيره .

وكان سامى لا يشرب ولكنه كان يبحث عن صيد بلا شراب ، وكان ككلاب الصيد دائم البحث عن فريسة ، إنه ومجدى يكونان رجلا كاملا من رجال الليل .

وكان عقيل ينطلق معهما يشاهد الشراب ولا يشرب ، ويجالس النساء يصغى إلى الأحاديث الدائرة وهو يضحك متشهيا ولكنه لا يفعل شيئا ، كان يستشعر فى قرارة نفسه أنه من الأشراف فكان يأنف أن يمارس الإثم علنا .

وكان ممدوح يصاحبهما أحيانا وينفلت وحده غالب الأحايين ، إنه يستيقظ فى البكرة يغتسل ويصلى الفجر حاضرا . وما كان يفوته الفجر أبدا ،

مع أننى قلما كنت أصلى الفجر حاضرا ، وكان لا يجد حرجا فى الشراب ، ويجد متعة فى قضاء الليل فى أحضان غانية .

وكان فهد وصديقه تاجر الرياض قلما يفترقان ، كان فهد ممن جابوا أوروبا وآسيا .. مارس كل ما تمارسه أوروبا من إباحية وانطلاق . لقد مُلىء حتى أنه لم يعد يتلهف على الشراب أو النساء ، أما صديقه المنطوى على نفسه الذى قلما كان يكلم أحدا أو يفتح فمه ، فقد كان رجلا مستقيما حريصا على ماله الذى جمعه بعرق جبينه ، كان لا يشرب ولا يقترف المعاصى ، وكان زملاؤه يغمزونه من بعيد وقلما كانوا يبادلونه الحديث ، ولم أندمج معه ولم نتبادل الأحاديث إلا مرة ، وعلى الرغم من ذلك كنت أفتح له قلبى وإن لم يعلق فى ذهنى اسمه .

أما مصطفى فكان ينفلت وحده يذهب للقاء الوزير ويمضى معه الليل السرمد ؛ فالوزير لا ينام قبل الفجر أبدا ، إنه يمضى الليل مؤرقا .

وكان مصطفى عند عودته يوقظنى من نومى ويأخذ فى سرد ما قال له الوزير وما قال للوزير . وفطنت إلى أن مصطفى يجد لذة فى أن يدس نفسه فى زمرة العظماء ، وأن يسهب فى الحديث عن النوادى التى يشترك فيها وعن المجتمعات الراقية التى يغشاها ، ويتحدث بالفرنسية ، ولا يخاطبنى إلا بالإنجليزية التى ينطقها نطقا فرنسيا . كان فى نفسه شىء وقد عجزت حتى الساعة عن أن أكتشف ذلك الشىء الذى يعكر حياته ، والذى كانت ضحكاته تسفر عنه ولا تلقى ستارا عليه .

كنا ممدودين فى سريرينا وكان الوقت عصرا ، وقام مصطفى من نومه يتمطى ، والتفت إلى وقال :

ـــ داخل الحمام ؟

ـــ « تروشت » وصليت العصر وتمددت فى سريرى لأستريح .

فقال وهو يحمل « الفوطة » على كتفه :

ـــ « سأتروش » سريعا ، لا تتحرك من هنا ، أريد أن أتحدث معك حديثا طويلا .

فقلت له وأنا أنظر إليه من طرف عينى :

ـــ « ستتروش » فقط !

فقال وهو يضحك :

ـــ يا خبيث .

كنت أذيع بين الإخوان أن مصطفى إذا دخل الحمام لا يغتسل كما نفعل ، ولكنه يطلى جسمه كله بالمراهم والأدهان والمساحيق ليبيض جلده الأسود ويزيل الشعر الذى ينبت للرجال وللنساء على السواء ، وكنت أقسم أن بشرته على الرغم من أنها فى لون الشيكولاتة إلا أنها أملس من بشرة البنات البكر ، وكنت أعد زجاجات التجميل المصفوفة على رف الحمام وأبالغ فى عدها وهو يضحك وفى وجهه رضا ، وإن كان لسانه يستنكر ما أقول استنكار من يطلب منى المزيد .

ودلف إلى الحمام وأغلق الباب خلفه ، ورحت أفكر فى كلمة « تروش » التى يستعملونها للدلالة على الاستحمام فلم أعرف من أين جاءت ولا كيف اشتقت ، وفيما أنا فى تفكيرى فتح الباب ودخل مجدى وقال :

ـــ أين مصطفى ؟

ـــ فى الحمام « يتروش » .

واتجه إلى النضد وقلب فى الكوبات بعيون زائغة وقال :

— ألم يطلب شيئا ؟

— لا . قل لى : « من أين جاءت كلمة « تروش » ؟

فقال وهو يضغط على الجرس :

— لا أعرف ، كل ما أعرفه أننى أريد أن أشرب .

وجاء الخادم الباكستانى الشاب ، ولما رأى مجدى فطن إلى ما يريد ، والتفت إلى وقال :

— وأنت هل أحضر لك كأسا ؟

كان يعرف أننى لا أشرب ، ولكن شيطانه أغراه بمشاكستى . كان ينتظر أن يرانى أحوقل وأستغفر وأستعيذ بالله وأنهره فى فزع فيخرج وهو يبتسم ، ولكننى قلت له :

— تعال .

فاقترب منى فقلت له :

— ما اسمك ؟

— محمد .

— مسلم ؟!

— الحمد لله .

— أتعرف أن الخمر حرام ، وأن عليك وزر حملها ، وأن مأواك النار ؟

فقال فى فزع فى إنجليزية ركيكة :

— وما ذنبى أنا ؟ ، إننى أومر وعلى أن أطيع .

وانتظر قرارى كأنما كان لقرارى أهمية ، فقلت كرجال الكهنوت الذين

يفتون فيما بين الخالق والمخلوق :

— يغفر الله لهما ولا يغفر لك .. مأواك النار .

وأشحت بوجهي عنه ، ووقف الشاب برهة ثم انصرف مطرق الرأس ، فقال لي مجدى :

— أفزعت الرجل .

— هذا جزاؤه ، حتى لا يعود شيطانه ويغريه بي .

ودلفت إلى الغرفة الثانية ، ورحت أخلع البيجاما وأرتدى الجلباب الصوفى وأهذب شاربى ولحيتى ، وخطر لى أن أداعب مصطفى فدنوت من باب الحمام وقلت :

— مصطفى ، خطرت لى فكرة الساعة .

— ما هى ؟

— أن أبعث إلى مصر أسألهم أن يرسلوا لك حجر الحمام ، إنه حجر أسود كان النساء يستعملنه لصقل البشرة وتبييضها .

فصاح وهو يضحك :

— يا خبيث .

— احترس أن يصل مسحوق إزالة الشعر إلى حاجبك . إن وصل إلى لحيتك فأمرها يهون .

— إنه دهان وليس بمسحوق .

— وما أدرانى ؟ تزوجت من عشرين سنة ولم أجد عند زوجتى ما وجدته عندك من مراهم وأدهان ومساحيق وسوائل للتجميل .

فقال وهو يقهقه :

ـــ وما وجه الشبه بيني وبين زوجتك يا خبيث ؟

ـــ أعوذ بالله ! لا يوجد وجه للشبه إلا بجامع التجميل في كل .

وتركته وعدت إلى الغرفة الثانية فألفيت مجدي يعب الكأس الثانية وقد احمرت عيناه ، إنه يشرب في شراهة ، وإذا ما اضطرتنا الظروف لأن نمضي النهار كله في تجوال فإن أعصابه تثور ويبلل شفتيه بلسانه ، ويخال لكل من يتفرس فيه أنه يقاسي من الظمأ .

وجلست على حافة السرير وجعلت أرقبه فأحسست أني أتطلع إلى مأساة ، إلى حطام إنسان ، وإن لم يتجاوز الخامسة والثلاثين . وعزمت على أن أجاذبه أطراف الحديث فقلت له :

ـــ متزوج ؟

فهز رأسه أي نعم ، وكست وجهه سحابة من الكدر ، فقلت له :

ـــ وعندك أولاد ؟

ـــ بنت واحدة .

فقلت مداعبا :

ـــ غدا تصبح رب قبيلة . هذا أيسر إنتاج .

ووضع الكأس على النضد وأقبل علي يبثني همومه ، قال :

ـــ زوجتني أمي وأنا طالب في المدرسة ، أرادت أن تفرح بي ، اختارت لي زوجة دون أن تأخذ رأيي ، وفي ذات ليلة وجدت نفسي فجأة مع فتاة لا أعرفها في غرفة واحدة ..

وسمعنا حركة عند الباب فتوقف مجدي عن الحديث ، وفتح الباب ودخل سامي وعقيل وجلسا إلى جواري ، وراح مجدي يستأنف قصته قال :

— حاولت منذ الليلة الأولى أن أتودد إليها ، أن أفتح لها قلبى ، ولكنها كانت تنفر منى ، وراحت الأيام تمر والهوة التى تفصل بيننا تتسع ، وتولد فى قلبى البغض لها حتى أصبحت أمنيتى أن أحطم القيد الذى يربط بيننا .

وظهرت عليها أعراض الحمل فتحملت وعللت النفس أن المولود قد يؤلف بين قلبينا ، وقد يمسح البغض الذى يفيض به فؤادى ، وراحت الأيام تمر وكراهيتى لها تربو والنفور بيننا يزداد .

وجاء ميعاد الوضع وأصدقك القول أننى تمنيت لها الموت ، وزاد ضيقى لما جاءوا إلى يحمدون الله على سلامتها ويهنئوننى بالوليدة .

تفتح قلبى لابنتى ، وأوصدت جميع منافذه فى وجه زوجتى ، صارت كابوسا يجثم على صدرى وستارا أسود أسدل بينى وبين الحياة ، وفاضت كأس آلامى فذهبت إلى أمى أبكى وأتوسل إليها أن تنتشلنى من العذاب الذى أتردى فيه .

وحاولت أمى أن تصلح بيننا ولكن هيهات ، فقد تسربت كراهيتى لها إلى كل خلجة من خلجات نفسى وكل جارحة من جوارحى ، وما أحسب أن إنسانا أبغض شيئا بغضى لها ، حتى خيل إلى أن البغضاء التى تملأ أرجائى حولت دمائى المتدفقة فى عروقى قيحا وصديدا .

وكان لا بد من الفراق فكان الطلاق .

فقال سامى فى لهفة :

— لم ترها قبل أن تتزوج ؟

فقال مجدى :

— لا . زوجتنى أمى منها دون أن أراها .

فقال سامي وهو شارد البصر :

ـــ إنني أتأهب للزواج ولم أر زوجتي حتى الساعة ، أخشى أن أشقى كما شقيت .

فقلت لسامى :

ـــ هون عليك ، المسألة أعمق من هذا .

والتفت إلى مجدى وقلت له :

ـــ هل كانت زوجتك شابة ؟ وهل كان شكلها مقبولا ؟

ـــ نعم . كانت شابة جميلة من الشام .

فقلت وأنا أرنو إلى سامى :

ـــ وهل لو رأيتها قبل الزواج كنت تقبل أن تتزوجها ؟

ـــ ربما .

فقلت وأنا أعبث فى الكوب الموضوع على النضد :

ـــ إنها ضحية أمك .

فقال مجدى وهو يعبث فى لحيته :

ـــ لماذا ؟

ـــ لأنها زوجتك قبل أن تتثقف أية ثقافة جنسية .

فقال لى وقد اتسعت عيناه دهشا :

ـــ كنت شابا ناضجا .

فقلت وأنا أنهض لأدنو منه :

ـــ قد تكون ناضجا جنسيا ولكنك غير أهل للزواج بعد ، هناك فرق بين النضج الجنسى والثقافة الجنسية التى تعاونك على أن تستغل طاقتك استغلالا

يزيد فى توثيق الروابط بينك وبين زوجتك على الدوام .

فقال مجدى وهو يحرك يده كأنما يطرد شيئا يتقزز منه :

ـــ كل رجل ناضج يستطيع أن يتزوج ويسعد .

فقلت له فى تحد :

ـــ إننى أجزم الآن أنك حتى الآن لا تعرف شيئا عن الجنس .

وظن أننى أقصد تجريحه فمد يده وقبض على يدى وأخذ يلوى ذراعى فى قوة ، فقلت له :

ـــ هذه قوة خرقاء تحتاج إلى عقل مثقف يوجهها الوجهة الصحيحة .

وقال سامى فى لهفة :

ـــ بالله دعه حتى يتم حديثه .

وقال عقيل وهو يضحك :

ـــ دعنا نسمع .

وترك مجدى يدى وأعارنى أذنيه ، واستأنفت حديثى قلت :

ـــ زيجات كثيرة قامت على الحب وأخفقت ، وزيجات كثيرة قامت بين زوجين و لم يلتقيا إلا ليلة الزفاف ونجحت ، لأن أهم ما فى الزواج لا يكتشف إلا بعد الزواج .

شابة جميلة شقراء أو سمراء كما يشتهى الرجل ، وهام بها حبا ، وقبل أهلها أن يكون لابنتهم بعلا ، فراح يحسب أنه أسعد مخلوق فى الوجود ، وتم الزواج واكتشف الزوج أن الدمية الجميلة التى عبدها لا تكمل روحه ، إنه يستشعر عند الاندماج أن هناك شيئا ينقصه ، شيئا ينغص عليه حياته ، زواج بدايته مشرقة ، ودوامه تعب وإرهاق .

وشابان تزوجا بلا مقدمات ، وعند الاندماج أحسا كفاية ورضا وشبعا وارتواء ، فراح حبهما ينمو مع الأيام ، ويكتب قصة زواج سعيد .

فقال سامى :

— لم تحدثنا عن الثقافة الجنسية ، ما دورها فيما ذكرت.؟

— هدف الثقافة الجنسية الصحيحة أن تعلمك التعاون الجنسى ، ألا تأخذ حقك الجنسى كاملا وتهجر الطرف الآخر قبل أن ينال حظه . إن الأنانية الجنسية هى سبب تعاسة أغلب الأسرات ، إنها أسس الخيانات الزوجية .

وهناك حالات قليلة تستعصى على الثقافة الجنسية ، ويعبر العامة عن هذه الحالات بقولهم : « الزواج قسمة » ، و « كل فولة ولها كيال » .

ونهضت وقلت :

— انتهت المحاضرة .

فقام سامى وتشبث بى وهو يقول :

— تعال هنا ، أنا رجل مقبل على زواج ، وهذا كلام مقتضب ، حدثنى فى إسهاب .

فقلت له وأنا أرنو إلى عقيل مداعبا :

— تعال نتحدث أنا وأنت على انفراد .

فقال عقيل وهو يضحك :

— أريد أن أسمع .

فقلت له وأنا أسير صوب الباب :

— تعال إلى عندما تفكر فى الزواج .

— وأين سأجدك تلك الساعة . هذه فرصة .

وأقبل مصطفى وهو يضع « فوطة » على رأسه ، فقلت له :

— نعيماً .

— إلى أين أنت ذاهب ؟

— أحدث سامي عن الزواج قبل أن يتزوج ، انتظرني هنا فقد أحتاج إليك في تطبيق بعض النظريات .

فصاح وهو يقهقه :

— يا خبيث .

وجذبني سامي من يدى لنخرج من الغرفة ، فالتفت إلى مجدى وقلت له :

— تثقف وعد إلى زوجتك بعقلية جديدة ، بنت الشام خير لك من بنت الحان .

وتناول وسادة وقذفني بها ، ولكنني كنت قد خرجت وأغلقت الباب خلفي .

وانطلقنا أنا وسامي وعقيل إلى أريكة في غرفة الاستقبال ، وجلسنا نتسامر ، وطفقت أشرح كل شيء في تفصيل ، وقد هالني أن الشابين اللذين أشرفا على الثلاثين لا يعرفان شيئاً عن الجنس .

عرف سامي المرأة في لبنان وفي مصر وفي أوروبا ، وكانت معرفة خاطئة ، فما امتزج إلا ببنات الهوى ، وويل للمرأة التي يعاملها زوجها معاملة خفافيش الليل !

ومرت ساعات والحديث يجر بعضه بعضاً ، وحان ميعاد خروجنا إلى وليمة من الولائم فنهضنا لننصرف ، وقال عقيل وهو يضحك :

— والله لقد حيرتني ؟! أأنت خبير اقتصادى ، أم خبير في الدين ، أم خبير

فى التاريخ ، أم خبير فى الجنس ؟

فقلت له :

— أصدقك القول إنى لست خبيرا فى شيء ، كل ما فى الأمر أننى هاوى معرفة .

وانطلقنا .

٢٠

انتهى جرى النهار وزيارة المصانع والمصارف وتبادل المذكرات ، وأخذنا نتأهب لليل ، فقد كانت أول ليلة فى كراتشي تترك لنا دون دعوة رسمية ، وكثر الهمس بين الرفاق ، وراح هذا ينتقل إلى غرفة ذاك ، وخطر لى أن أصعد إلى غرفة ممدوح لأسأل عنه فقد امتنع عن الغداء معنا لأنه أحس توعكا ، ولكننى آثرت أن أتريث حتى يتم الزملاء تدبيرهم ، وحتى لا أعكر عليهم صفو الأمانى والأحلام .

وخرجت من غرفتى وأنا أرتدى الثوب الصوفى الفضفاض ، وأضع على رأسى الغطرة والشطاف ، فما كنت أستطيع أن أسير عارى الرأس حتى لا أخرق التقاليد وأثير غضب سامى .

لمحت فهد بن عبد الرحمن جالسا فى غرفة الاستقبال وحده ، فألقيت عليه السلام ، ثم اتجهت إلى الباب المؤدى إلى الحديقة الواسعة فقال لى فهد :

— إلى أين ؟

— أسير قليلا فى الحديقة ، بدأت أحس الكسل يدب فى أوصالى من عدم

المشى .

ـــ انتظر . سأسير معك .

وهبطنا بعض درجات ورحنا نجوس خلال الحديقة ، ثم قلت :

ـــ هذا المشى لا جدوى منه ، تعال نمشى مشية عسكرية .

وشددت وسطى ورفعت رأسى ، وفعل فهد مثلما فعلت ، وسرنا نهز أيدينا فى قوة وأنا أنادى :

ـــ واحد .. اثنان .. واحد .. اثنان .

وبلغنا نهاية الحديقة فصحت فى قوة :

ـــ خلفا در .

ودرنا على أعقابنا ، وسرنا فى خطوات عسكرية وأكمامى الواسعة ترفرف فى الهواء ، ومشلح فهد ينتفخ كالبالونة ، وبلغنا نهاية الحديقة من جهة الباب الواقف عنده الحارس فإذا بأحد الجنود يرصد حركاتنا وهو يبتسم ، ولم ألتفت إليه وصحت :

ـــ خلفا در .

ودرنا وسرنا ، وما وصلنا إلى الباب الذى هبطنا منه حتى وجدنا صديق فهد واقفا عنده يرمقنا وهو يبتسم ، ثم قال :

ـــ ماذا تفعلان ؟

فقلت له دون أن أتوقف :

ـــ إننا نتمشى ، تعال . واحد .. اثنان .. واحد .. اثنان .

وصاح فهد به :

ـــ تعال يا حسان .

وخف حسان إلينا واشترك معنا فى سيرنا ، وقد أحسست فى تلك الساعة أننى لا زلت طالبا فى القسم المخصوص ، ونسيت اللحية التى تزين وجهى والشعر الأبيض الذى تسلل إليها فى غفلة منى .

وسرعان ما اختلت خطواتنا ، فقلت لهما ما قاله المسيح لحوارييه فى العشاء الأخير :

— الروح قوى أما الجسم فضعيف .

وعدنا إلى الغرفة ونحن نتحدث ، قال فهد :

— أين تذهب الليلة ؟

— إلى السينما .

فقال حسان :

— وأنا معك .

وقال فهد :

— لا أظن أن أحدا منهم يسره أن يمضى الليلة معنا فى السينما .

فقلت لهما :

— انتظرانى هنا حتى أعود بممدوح وأسأله إن كان يأتى معنا .

وصعدت إلى غرفة ممدوح وطرقت الباب فلم يجب أحد ، فأدرت مقبضه ودفعته فى رفق ونظرت فألفيت الغرفة خالية ، ولكن مس أذنى صوت ارتطام الماء بالأرض ، لقد كان هناك فى الحمام .

ووقع بصرى على بقايا طعام وقشر موز ، فإذا بصورة التابعة تقفز إلى ذهنى ، كان ممدوح من نفس طرازها ، يأكل خفية ويدعى أمام الناس أنه لا يأكل وأن لا شهية عنده ، حتى يتقى الحسد .

يا طالما قاسيت من التابعة ؛ كانت تنساب إلى الجيران وتحدثهم عن الثواب الذى أعده الله للمحسنين ، وتظل تزين لهم الإنفاق حتى يعطوها مما عندهم أو يدسوا فى يدها ورقة من فئة الريال أو بعض أوراق وهى تتمنع تمنع الراغبات ، ثم تطبق يدها على ما بها وهى تؤكد أنها لا تأخذ شيئا لنفسها بل تنفقه فى سبيل الله !

وكانت تكدس الخيرات تحت سريرها ، كان فى صندوقها موز وتفاح وبرتقال وسمك ولحم محمر وبطاطس وحلوى من صنع الشام ، وكانت تقوم فى الليل تأكل مما جمعت . فإذا ما أصبح الصباح وقدمنا لها الإفطار أقسمت أغلظ الأيمان أنها لا تأكل وأنها تعيش على الكفاف ، ثم تقول : أسألوا فلانة وفلانة .

وكانت تنطلق إلى الطريق وتخبر كل من يقابلها أنها لا تأكل ، وأن الله أنعم عليها بنعمة القناعة ، وكانت فى المغرب تغلق بابها عليها لتصلى فتهتبل هذه الفرصة وتخف إلى ما تحت السرير وتملأ بطنها ، فإذا حان وقت العشاء ووضعنا أمامها الطعام تعيده إلى المطبخ وهى تقسم بالله العظيم أنها لن تأكل ، وتستمر فى حديثها عن عدم رغبتها فى الأكل ، وعن القناعة التى أنعم الله عليها بها بصوت عال ليبلغ حديثها آذان الجيران جميعا .

اكتشفت الساعة أن ممدوحا من طرازها ، ولكن ممدوحا يشترى ما يأكله بعيدا عن أنظار زملائه ، أما هى فتحتال على الجيران حتى يعطوها رهبة من لسانها أو رغبة فى الثواب الذى تجيد الحديث عنه . كنت أظن حتى اللحظة أن التابعة نسيج وحدها ، فإذا بها نموذج لأمة من الناس !

ودنوت من الحمام وقد وأدت فكرة السؤال عن صحته فإن فتات المائدة

أجابني عن ذلك السؤال ، وناديت :

ـــ ممدوح سنذهب أنا وفهد وحسان إلى السينما الليلة ، هل تأتى معنا .

فقال فى عتاب :

ـــ أتظن أننى مجنون حتى أمضى ليلة كهذه فى السينما ؟

وفهمت قصده ، وخطر لى أن أسخر منه فقلت له :

ـــ سنصلى العشاء قبل أن نذهب إلى السينما ، فإن شئت أن تصلى العشاء معنا قبل أن تخرج فتعال .

ولم يفطن إلى سخريتى بل قال لى فى لهفة :

ـــ بالله لا تصلوا حتى أحضر .

ورحنا نرتدى الثياب الأوروبية ، وحان موعد الصلاة فجاء ممدوح وانتظر أن أدعوه ليؤمنا ، ولكننى طلبت من فهد أن يقيم الصلاة .

وقضيت الصلاة ، وخرجنا أنا وفهد وحسان إلى السينما ، وانطلق ممدوح إلى علب الليل ليمضى ليلة حمراء .

انسابت السيارة بنا تسير على الشمال ، ووقفت أمام سينمائين إحداهما تعرض فيلما أمريكيا والأخرى تعرض فيلما باكستانيا راقصا غنائيا . كنت أميل إلى مشاهدة الفيلم الباكستانى ، فالتمست من زميلى أن نعبر الطريق لنشاهد صور الفيلم الوطنى .

وهممنا بعبور الطريق فإذا بخطواتنا تضطرب ، اعتدنا أن نعبر الطرق التى تنطلق فيها السيارات والعجلات والترام على الجانب الأيمن من الشوارع ، فألفنا أن نلتفت إلى اليسار حتى إذا قطعنا نصف المسافة التفتنا إلى اليمين لنكشف السيارات المقابلة ونأخذ

حذرنا ، ولكن الأمر كان فى الباكستان على عكس ما ألفنا : نلتفت إلى اليمين أولا ثم إلى اليسار ، فكنا أشبه بالقروى الذى وجد نفسه فجأة فى ميدان المحطة !

وضحكنا من أنفسنا ، فقد كادت السيارات تدهمنا أكثر من مرة . وبلغنا السينما وأخذت أتفرس فى الصور وأنا أستشعر نفس اللذة التى كنت أحسها أيام كنت تلميذا فى المدارس الابتدائية يقف أمام صور الأبطال المعروضة فى ساحة سينما أوليمبيا .

وأبدى زميلاى رغبتهما فى مشاهدة الفيلم الأمريكى الملون ، فعدنا نقطع الطريق فى حذر شديد ، وبلغنا شباك التذاكر بسلام فألفيناه مغلقا ، كان العدد كاملا .

وبدأنا فى الانسحاب ، ولكن شابا أسمر تقدم إلينا وسألنا عن بغيتنا ، فأخبرته أننا فى حاجة إلى ثلاث تذاكر ، فمد يده وأخذ منا الثمن ، ثم سار أمامنا وأجلسنا فى ثلاثة مقاعد دون أن يعطينا أية تذكرة .

وعرضت الرواية الأمريكية ، كانت تدور حول لص باكستانى وضابط بوليس إنجليزى ، كان الباكستانى يمثل الخسة والدناءة ، يعشق زوجة أبيه ويعرض الأبرياء من بنى وطنه للقتل باسم الوطنية ليتمكن هو من السرقة ، بينا الضابط البريطانى يمثل الكفاح فى سبيل القيام بواجبه الشريف النظيف . وأحنقنى الفيلم الاستعمارى ، وزاد فى حنقى أن الشعب الباكستانى يضج بالتصفيق إذا ما كتب على ديكور بوابة « بشاور » أو أى اسم آخر من أسماء المدن الباكستانية .

رأيت بشاور وعشت فيها وتجولت فى أنحائها وزرت قلعتها ، و لم أجد أى

شبه بينها وبين ما تخيله المخرج الأمريكى ، ولكن مجرد ذكر اسمها فى فيلم أمريكى ملون كان يثير حماسة الجماهير وفخرهم ، حتى ولو كان الفيلم استعماريا يسىء إليهم ويجرح شعورهم ، والتفت إلى زميلى وقلت له :

— لو كنت الرقيب الباكستانى لحرقت هذا الفيلم .

وقال زميلى فى إنكار :

— لماذا ؟ إنه فيلم لذيذ .

أعجب زميلى بالممثلة العارية وبالحركة فى الفيلم ، و لم ير السم فى الدسم ، ونظر الباكستانيون إلى الفيلم الخبيث نظرة زميلى السطحية ، وأقبلوا عليه إقبالا منقطع النظير؛ فقد تركت كراتشى وسافرت إلى لاهور ، وحلقت فوق الهند لأصل إلى الباكستان الشرقية ، الجناح الآخر للدولة العجيبة المكونة من جناحين تفصل بينهما دولة الهند ، وهبطت فى بشاور ، وزرت ممر خيبر ، ثم عدت أدراجى إلى كراتشى ، فألفيت الفيلم الاستعمارى لا يزال يعرض .

وخرجت أنا وزميلاى من دار العرض نبحث عن سيارة تحملنا إلى بيت الضيافة ، ولكن لم نعثر على واحدة .

فعرضت عليهما أن نركب حنطورا وأن ننعم بنسيم الليل ، وأسرعت أقفز داخل أول عربة مرت بنا .

وداعب الهواء البارد وجهى فأنعش روحى وأحسست نشوة ، ولما كانت النشوة كالحزن لا بد أن تجد لها متنفسا فقد رفعت عقيرتى بالغناء ، إننى لا أحفظ أية أغنية ، كل ما لصق فى ذهنى أغنية قديمة ، جعلت أرددها طوال حياتى . وجلجل صوتى فى شوارع كراتشى ، وطفقت أصيح فى سكون الليل : « يا نخلتين فى العلالى يا بلحهم دوا ، دا نخلتين مع نخلتين يبقم أربعة

سوا » وسرعان ما انضم إلى فهد فى الغناء . ولما تعب صوتى وما أسرع ما يتعب التزمت الصمت ، وأخذ هو يغنى أغنية بدوية وحسان يضحك لتمايلنا ونحن نسند خدينا بكفينا .

إن صوتى قبيح وصوته أقبح من صوتى ومع ذلك امتلأنا غبطة ، وربت غبطتنا لما أخذنا نشاكس العشاق المتسربلين بالظلام واللائذين بجذوع الشجر ، كنا كسكارى آخر الليل يضحكنا مجرد عبور دراجة أو مواء قطة .

وبلغنا بيت الضيافة فهبطنا من العربة ، وقبل أن نخطو أية خطوة لمحت سامى فقلت له :

— إلى أين ؟

— جئت أبحث عنك .

— لماذا ؟

— اكتشفنا ملهى بجوار بيت الضيافة .

— أريد أن أنام .

— بالله تأتى معنا ، لا تخف إنها جلسة بريئة .

فقلت له وأنا أسير معه :

— ومن قال لك إننى أخاف ، إننى لا أعتبر العاكف فى صومعته عابدا .. لا بد للإنسان أن ينغمس فى الحياة وأن يصون نفسه . العبادة الحقة فى نظرى هى قدرتك على أن تذكر الله وتسبحه ولو كنت فى ماخور .

فقال سامى ضاحكا :

— أين ذلك الذى يذكر الله فى ساعة لهوه ؟!

— أذكر أننى حمدت الله مرة وسبحت له وأنا فى كباريه .

فقال وهو يضع يده على كتفي :

— أنت عابد مودرن .

فقلت له وأنا أبتسم :

— بل قل : عابد مطبوع .

انطلق فهد وحسان فى طريقهما صوب بيت الضيافة ، وسرنا أنا وسامى إلى الكباريه . كان مبنى على الطراز القديم له بابان : أحدهما لدخول السيارات والآخر لخروجها ، وأمامه ردهة ضيقة تقود إلى سلم جانبى مكون من بضع درجات .

وصعدنا فى الدرج ، ودلفنا من الباب ، فإذا بفناء واسع أقيم بار على جانبه الأيمن ، وصفت فيه النضد ووضعت الكراسى حولها ، وفى الصدر فرقة موسيقية تعزف ، وترك أمامها مكان مستطيل للراقصين .

ومددت بصرى فوجدت منضدة خالية قريبة من مكان الرقص ، فقلت لسامى :

— مكان هذه المنضدة أفضل من المكان الذى تجلسون فيه .

وقال الجرسون فى لهجة مصرية :

— هناك منضدة أحسن .

ورنوت إليه .. إنه يونانى يرتدى بذلة سوداء ، فقلت له على الفور :

— من الإسكندرية ؟

— أجل . مكثت فيها تسع سنين .

فقلت له :

— أيوه .

فقال وهو يلتفت نحو البار :

ـــ أنتم ضيوفنا الليلة .

والتفت إلى حيث كان ينظر ، كانت هناك فتاة عارية الظهر تحتسى كأسا ، إنها من بنات الليل ، وكنا قد وصلنا إلى المنضدة التى أشار إليها ، وخف إلينا عقيل وأحد أصدقائه الذين تعرف بهم فى كراتشى ، ووقف الجرسون ينتظر أن أطلب من الصنف الجالس فى البار ، ولكنتى خيبت ظنه فقد طلبت عصير ليمون .

ووقف شاب أنيق أمام الأوركسترا ، كان يرتدى سموكنج وقد سلطت عليه الأنوار ، وأخرج من جيبه ورق اللعب ، وراح يقوم بعرض رائع على أنغام الموسيقى ، يبسط الورق فى رشاقة على طول ذراعه ثم يطويه فى خفة ، وأخذ فى ضغط الأوراق بين كفيه ويبسطها كأنما يعزف على موسيقى اليد ، كان رشيقا فى ألعابه ، فراح الناس يصفقون له طويلا .

وعزفت الأوركسترا موسيقى راقصة ، فقام الباكستانيون يرقصون ، كان الرجال يلبسون الملابس الأوروبية ، أما النساء فكن يرتدين السارى ، فكانت بطونهن وظهورهن عارية .

وراح شاب يتمايل ويضم فتاته إليه ، ويلف ويدور فى نشوة ، ويحاول أن يقلد نجوم السينما ، واقترب صديق عقيل منا وقال :

ـــ هذا دكتور من أشهر أطباء الباكستان .

فقلت على الفور :

ـــ متخصص فى أمراض النساء بلا شك .

فقال الرجل :

— لا . إنه متخصص فى أمراض الأطفال .

— أظن أن النساء يحملن أطفالهن إليه لمهارته فى الرقص .

فقال الرجل مدافعا عنه :

— لا ، إنه ماهر فى علاج الأطفال ، إن زوجتى تفضله على جميع الأطباء .

والتزمت الصمت ، وحمدت الله أن الرجل لم يفهم غمزى .

وقامت فتاة فى الرابعة عشرة من عمرها ، مشرقة الوجه ، فاحمة الشعر ، ترتدى سروالا طويلا من الحرير عليه ثوب يصل إلى ما تحت الركبة ، كانت نامية ، ناهدة الصدر ، يزيدها جمال الشباب فتنة ورواء ، واتجهت إلى حلقة الرقص وراحت تراقص شيخا . كانت حركاتها تترجم عن الثورة الجامحة المتأججة فى الحشايا .

وأنتقل شبابها بالعدوى إلى الشيخ ، وخفت حركاته وترقرق ماء الحياة فى وجهه ، وأشعلت حركاتها نار الحرمان بين ضلوع زملائى . فأخذوا يتأوهون وقد التمعت عيونهم ببريق الشهوة .

ونهضت لأنصرف ، فتشبث بى سامى وقال :

— انتظر .

— أريد أن أنام .

— كيف تنام وتترك هذه المتعة ؟

فقلت له :

— المتعة شىء نسبى ، قد يكون هذا الرقص متعة للمراهقين من أمثالكم ، وقد يكون النوم اللذة الكاملة لكهل مثلى .

وغادرت الملهى وأنا أتثاءب .

٢١

آن أوان أن يكشف لى مصطفى سريرته ، وأن يروى قصته التى تنغص عليه حياته . كانت آخر ليلة لنا فى كراتشى ، وكنا نجمع حوائجنا لنتأهب للسفر إلى لاهور ، وراح مصطفى يطيل النظر إلى وجهه فى المرآة ، ورأيت أن أستحثه على جمع ملابسه المبعثرة فى كل مكان فصحت به :

ـــ دع المرآة يا لكع .

فقال وهو يمرر يده على وجهه :

ـــ حقا أن بشرتى ناعمة ؟

فقلت وأنا أضحك :

ـــ ناعمة يا عبد !

والتفت إلى وهو ساهم ، واربد وجهه ، وفطنت فى مثل لمح البصر أننى أصبت منه مقتلا . وارتبكت برهة ، وهممت أن أعالج جرح نفسه الذى نكأته ، ولكنه قال فى صوت كأنه منبعث من مكان سحيق :

ـــ هل تعرف أنهم باعونى بيع العبيد ؟

فقلت فى صوت خافت :

ـــ لا .

فقال وهو يتجه إلى حافة السرير ليجلس ويسرد على قصته :

ـــ باعونى أنا وأمى .

وصمت قليلا كأنما يستجمع شتات أفكاره ، وقال :

ـــ كانت العادة فى البيوتات الكبيرة إذا بلغ الشاب الحلم زوجوه جارية ليصونوه ، فإذا ما بلغ مبلغ الرجال زوجوه من فتاة من أسرة تتكافأ مع أسرته ، وتبقى الزوجة الأولى فى البيت تدير شئونه وتسهر على أبناء زوجها من زوجته الثانية .

كان جدى من سراة مكة ، فلما بلغ أبى الرابعة عشرة من عمره زوجه من أمى ، كانت جارية ، وقد تحررت بهذا الزواج وإن ظلت أمة وفية لزوجها .

وتقضت سنوات الزواج الأولى فى سعادة : شباب وفراغ وغنى ، وقد ربت تلك السعادة لما أنجبتنى أمى .

قصت على أمى أن أبى كان يحملنى ويضمنى ويقبلنى وهو يدور بى فى أرجاء البيت الواسع ، ولا غرو فقد كنت أول ثمرة من ثمار رجولته .

وتقضت أيام هناء أمى سريعا ، بلغ أبى مبلغ الرجال ، وكان عليه أن يختار زوجة أخرى ، أو بمعنى أصح كان على أهله أن يزوجوه من فتاة من أسرة تتكافأ مع أسرته .

كانت أمى تعلم أن هذا كائن يوما ما ، وكانت منذ أول لحظة ساقوها إلى أبى على يقين من أن حياتها الزوجية الحقة لن تدوم إلا بضع سنوات ، وعلى الرغم من كل ذلك أخذ الحزن ينهش جوفها ، كانت امرأة تجد زوجها الذى تفتح له قلبها وحملت فى أحشائها ابنه الأول ، يتسرب من يديها .

وقررت أمى أن تضحى بسعادتها فى سبيل الرجل الذى أحبته ، أن تعيش على ذكريات الأيام الحبيبة ، وأن تمضغ فى صمت أحزانها ، وأن تخمد النار المتأججة فى جوفها ، وأن تفتح قلبها لغريمتها من أجل أبى .

وذات يوم أطلقت الزغاريد فى بيتنا وجاء الطهاة وأضيئت الأنوار ، ووفدت النساء فى ثياب براقة ، وقامت راقصة بينهن تعرض فنونها ، بينا جاء الرجال أفواجا يتناولون الطعام حول السماط الطويل .

كان الأولاد يجرون هنا وهناك فرحين ، وكنت أشاركهم فى لعبهم وأنا مسرور ، لا أفكر شيئا ، ولا أدرى ما الذى جعل أمى تغلق عليها بابها ، وما دار بخلدى أن كل هؤلاء الرجال والنساء والصبية والأطفال كانوا يحتفلون بمأتم عزى !

واستيقظت من نومى ، وتلفت فى الغرفة بعيون زائغة ، وعلى الرغم من صغر سنى انقبض صدرى .. استشعرت أن شيئا قد تبدل ، ولم أجد أبى وقد اعتدت أن أذهب إلى فراشه كل صباح وأدوس فى بطنه وأقف على صدره ، وإذا اختل توازنى ووقعت أتعلق فى لحيته وآخذ بها وهو يضحك ويضمنى إليه .

وبكيت ، فخفت أمى إلى وحملتنى وضمتنى إليها وهى تمرغ وجهها فى ثيابى ، لم تجرؤ على أن تنظر إلى ، كانت تبكى وهى تتوسل إلى أن أكف عن البكاء ، وارتفع نشيجى فأخذت تدور بى فى الغرفة وهى تمنينى الأمانى .

وقلت وعبراتى تخنقنى :

ــ أريد أبى .

فقالت وهى تقبلنى :

ــ ذهب إلى الدكان وسيعود .

وتبخر قلقى وذهبت ألعب فى البيت ، فوجدت امرأة غريبة بيضاء حسبتها ضيفة ما تلبث أن تعود إلى دارها ، ولكنها بقيت فى بيتنا ، وأحسست بغريزتى

أن سلطانها فيه يفوق سلطان أمي .

وكنت أقابل أبي ، ولكنه لم يعد ذلك الذى أقف على صدره وأجذب لحيته ، أصبح يتركنى وأمي وحدنا فى غرفتنا وقلما يطوف بنا ، و لم أفطن إلى سبب تلك الجفوة وإن استشعرت مرارتها فى أعماق .

وشغلت عن كل ما حولى بنفسى ، كان كل شيء فى الحياة جديداً على ، فكنت أحاول أن أكشف أسرار الكون ، وأنا أعرف البيئة التى أعيش فيها ؛ الحارة والطريق إلى الحرم ، والطريق من الحرم إلى الدكان ، وأجناس الناس الذين يفدون إلى مكة ويطوفون حول الكعبة .

وحدث حادث عظيم فى بيتنا أقيمت له الأفراح ؛ لقد أنجبت زوجة أبى ولدا ، و لم أقدر أثر ذلك الحادث إلا فيما أقبل من الأيام .. فرحت يومها مع الفرحين ، ولعبت مع اللاعبين ، وسعدت يومها بأبى بما لم أسعد به منذ جاءت إلى بيتنا المرأة البيضاء .

كان أبى مغتبطا تأتلق البشاشة فى وجهه ، وقد أجلسنى يومها فى حجره وطفق يداعبنى حتى إننى رحت أجذب لحيته فى فرح وابتهاج .

وراحت أمي تحمل الوليد وترعاه ، وكانت تضعه فى حجرى أحيانا ، وتقول لى إنه أخى ، وتوصينى بحبه ، وكنت أعجب لأخى هذا فقد كان أبيض البشرة ، بينا كانت بشرتى سمراء !

وضعت أمي بنتا ، جاءت سمراء مثلى ، فكنت أحن إليها أكثر من حنينى إلى أخى الأبيض . كنت أناغيها الساعات الطويلة دون أن أسأم ، وإذا بكت أحاول أن أسكتها ، أما إذا بكى أخى الأبيض فقد كنت ألتمس من أمي أن تعيده إلى المرأة الأخرى .

ومرت سنوات وأنا ألعب مع أختى وأخوى الأبيضين ، فقد وضعت زوجة أبى ولدا آخر . وفى ذات يوم بينا كنا نلعب تكشفت ما تكنه قلوب النساء .

جاء أخى الأبيض وفى يده إبرة ، وغرسها فى عينى أختى ، وصرخت أختى فى فزع ، فخفت إلينا أمى ، وحملت البنت وهى تقول لأخى فى غضب :

— ماذا فعلت ؟

فقال الولد فى خوف :

— فعلت ما قالت لى أمى أن أفعله .

ولطف الله بأختى فلم تصب عينها بسوء ، ولكن أمى كشفت البغضاء . كانت غريمتها بيضاء البشرة ولكن قلبها أسود من الليل البهيم .

وسهرت عين أمى علينا ، ولم تكن تتركنا لحظة ، باتت تخشى مكائد زوجة أبى ، وأمست تتوقع أن تدس لنا السم وترتاح منا .

كنا من سراة مكة فكنا نمضى الصيف فى الطائف . وفى ذات يوم من أيام الصيف بينا كنا أنا وأمى وحدنا فى البيت ، أغارت جنود من نجد على الطائف ؛ كان عبد العزيز آل سعود قد استولى على البلاد ، ولم يكن فى حوزة الشريف حسين إلا الطائف ومكة وجدة ، ودهم الطائف عسكر عبد العزيز ، ولم نشعر إلا بالرجال فى الدار . وفزعت أمى وحاولت الفرار ، ولكنهم قبضوا عليها وساقوها أمامهم ، وهرعت إليها وأنا أصرخ أتشبث بها .

وانطلقنا فى الصحراء وأنا أقول إننا لسنا عبيدا ، وأذكر اسم أبى ، ولكنهم وضعوا أصابعهم فى آذانهم ، وانسابوا بنا صوب المجهول .

وبلغنا سوقا لبيع العبيد ، ففصلوا بينى وبين أمى وعرضوا أمى للبيع .

فصرخت وتملصت من قبضة الرجل الذى أمسك بيدى ، وعدت إلى أمى وارتميت فى أحضانها ، وحاولوا أن ينزعونى منها دون جدوى ، وأخيرا قر قرارهم على أن يبيعونا معا .

وباعونا بدراهم معدودة وأمى تطيب خاطرى وتطلب منى أن ندع مقاليدنا لله ، وحملنا مولانا الجديد وذهب .

و لم تطل عبوديتنا .. بلغ أبى كل ما حدث فذهب إلى الملك ، ودارت بينهما مفاوضات انتهت بأن يسلم أبى مكة دون قتال ، على أن يعيدنى الملك أنا وأمى إلى أبى . وهكذا سقطت عاصمة الحجاز .

وعدت أنا وأمى إلى البيت ، واجتمعنا بأختى الصغيرة التى ما إن رأتنا حتى انخرطت فى البكاء ، وبكينا جميعا من فرط الفرح .

واشتد حرص أمى علينا بعد ما كابدناه من هوان ، وعشنا مع زوجة أبى تحت سقف واحد ؛ كنا معسكرين متباغضين ، يعيش كل منا مفتوح العين يخشى غدر المعسكر الآخر ، وما كان أحد منا بقادر على أن يسفر عن مرض قلبه خشية بطش أبى ، فقد كان جبارا .

واشتد عودى ، وأنهيت تعليمى ، وذهبت إلى الدكان أعاون أبى . وتفتحت عيناى ، وبدأت شخصيتى تتكون بعد أن بعدت عن مجال تأثير أمى ، وفكرت فى حالنا فوجدت أن الوفاق بينى وبين إخوتى البيض هو حجر الزاوية فى بناء أسرتنا ، إذا صلب هذا الحجر استطعنا أن نقيم صرح الأسرة شامخا . فوطنت العزم على أن أقرب أخوى منى ، وأن أسبل عليهما عطفى ، وأن أغمرهما بحبى ، فليس فى الحياة ما يستأهل العداوة والبغضاء .

وأغريت أبى أن نوسع تجارتنا وأن نتصل بالعالم الخارجى لنحصل على

وكالات الشركات الكبرى ، وقبل أبى وسافرت أجوب البلاد ، أوطد أسس محالنا وأجمع كل ما أستطيع أن أجمعه من ثقافات .

وازدهرت تجارتنا وزادنا الله من فضله ، وصرت قطب الرحى الذى تدور حوله كل أعمالنا ، وسقط أبى مريضا وما لبث أن مات .

وهرع أناس إلى يوسوسون فى أذنى أن قد حانت فرصتى ، فأنا أكبر إخوتى ، والعمود الفقرى لأعمالنا ، وأن ما حققناه من أرباح إن هو إلا بعض جهودى ، وأخذوا يزينون لى الغدر بأبناء زوجة أبى ، ولكننى أوصدت أذنى عن الهمس المسموم ، فقد قررت أن تظل عروة الأسرة وثيقة ولو كان ذلك على حسابى .

وجمعت إخوتى ، وقلت لهم إننى وإن كنت أكبرهم إلا أننى أدع لهم أن يقرروا ما يرون ، وأنا قابل كل ما يحكمون به .

وتقضت أيام وهم يتشاورون ، ثم جاءوا إلى وعرضوا على ما استقر عليه رأيهم ، وقبلت فى الحال على الرغم من أنهم جاروا على ، وكان جورهم بينا . فضلت أن يقول الناس ظلم من أن يقولوا ظلمهم ابن الجارية .

وصمت قليلا ، ولاح فى وجهه أنه قد بذل جهدا فى نطق جملته الأخيرة .. أراد بنطقها أن يقنعنى أنه لا يخجل من أصله ، ولكن كل جارحة فيه كانت تعبر عن الألم الدفين الذى يقاسيه .

ونهض وذهب يجمع حوائجه المبعثرة وهو يقول :

— إننى أحمد الله أننا الآن عصبة .

وفتح حقيبته وأخذ يلقى فيها ثيابه ، ومرت فترة من الصمت ثم قال :

— إننى لا أستطيع أن أنسى أنهم باعونى فى سوق العبيد .

وأردت أن أنزعه من ماضيه الذى يعيش فيه ، فقلت له :

— أسرع .. هيا .. دنا موعد رحيلنا ، بنات البنجاب ينتظرنك محلولات الشعر باسطات لك أذرعهن البضة .

فقال وهو يبتسم :

— هل رأيتهن ؟

— سمعت عن جمالهن .

فقال فى زهو :

— ليس من سمع كمن رأى .

فقلت له :

— رأيت فقط ؟

فقال وهو يقهقه فى سرور :

— يا خبيث .

وقفزت إلى حقيبته أصف ثيابه فيها ، وأعاونه على إغلاقها وأنا أقول له :

— إلى لابسات السارى ، ذوات الشعر السبط الأسود الفاحم والعيون النجل والبطون العارية .

فقال وهو يبتسم :

— خيال منسرح يصف قبل أن يرى .

— لقد رأيت الجمال الباكستانى فى كراتشى ، ولا أحسب أن الجمال فى لاهور يختلف عنه هنا .

— شتان بين جمال وجمال . غدا ترى .

فقلت وأنا أحمل حقيبتى :

— إذن مرحبا بالغد .

ـــ من يسمعك ولا يعرفك يحسب أنك زير نساء .

ـــ غدا سترى .

فقال وهو يحمل حقيبته :

ـــ ماذا نويت أن تفعل غدا ؟

ـــ كل شيء .

فقال فى إنكار :

ـــ كل شيء .

فقلت له فى عزم :

ـــ كل شيء ما عدا الوصال .

وأصلحت مشلحى على كتفى وانطلقنا .

٢٢

انسابت السيارة فى الطريق الذى يشق الصحراء ويؤدى إلى المطار . وكان الليل قد أسدل ستائره على أكواخ اللاجئين المبعثرة هنا وهناك ، فغيب فى جوفه مآسى البشرية النكراء .

وراحت الكشافات تبدد أمواج الظلام وتفرش أمام السيارات بساطا من الضوء ، كلما انطوى منه جزء انبسط جزء جديد بمقدار ما انطوى ، وظلت سيارتنا تعدو فى إثر الضوء ككلب السباق الذى يعدو خلف الأرنب ولا يلحق بها .

ونظرت من نافذة السيارة إلى السماء الصافية الزرقاء فألفيت النجوم تتلألأ فى كبدها ، وأدمت النظر ، فنجوم السماء وشروق الشمس وغروبها

كل أولئك يهز مشاعرى ويجعلنى أنداح فى الكون العريض .

ولاحظ سامى شرودى فقال لى :

— فيم تفكر ؟

— أقلب وجهى فى السماء .

— تبحث عماذا ؟

— عن النجم القطبى . هل تعرف موقعه ؟

— لا والله .

فقلت فى حماسة :

— أتمنى أن أعيش فى الصحراء وأن أهتدى بالنجوم ، وأن أعرف كل نجم وموقعه ورسالته التى يؤديها ، وأن تتوطد بينى وبين النجوم أواصر الصداقة .

فضحك عقيل وقال :

— أنا بدوى وعشت فى الخلاء طويلا وأعرف منازل النجوم ، ولكن لم ترتبط بينى وبينها أية صداقة ، وما كنت أظن قبل الآن أن الصداقات يمكن أن تتوطد بين البشر والبحار والنجوم والصحارى .

فقلت له فى هدوء :

— هذه الصداقات دليل رحابة القلب ، وقد عبر رسول الله ﷺ عن هذه الصداقات خير تعبير بقوله : « أحد جبل يحبنا ونحبه » .

فقال عقيل فى زهو :

— هذا قول جدى .

— إنه شرف عظيم أن تكون من نسل النبى ، ولكن هذا وحده لا يكفى .

— إنك تصلى وتسلم علينا فى صلاتك ، نحن آل محمد .

— أعتقد أننا نصلى على آل محمد الصالحين الأبرار . وأحب أن أذكرك أن

الإسلام قد جاء ليقضى على العصبية والجاهلية الأولى ، وأن الرسول هو القائل : « لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » ، وعلى ذلك فليس لك أى فضل على أدنى مسلم إلا بالعمل الصالح ، ولو كنت من نسل الرسول حقا .

فقال فى حماسة :

— إننى من نسل النبى فأنا من الأسرة الهاشمية ، وعندنا شجرة النسب .

فقلت له فى بساطة :

— إن شجرة النسب تباع فى مصر بعشرين قرشا لكل من يريد أن يربط الأسباب بينه وبين النبى ، وأظن أنك تذكر أن فاروقا وجد له مكانا فى الدوحة الشريفة .

فقال فى انفعال :

— لن أجادلك بعد الآن .

— لماذا ؟ هل تجاوزت حدودى فى النقاش ؟

— لا . ولكنك تحطم دائما كل ما تريد أن تحطمه .

— والله إنى لا أبغى إلا الحقيقة وإلا وضع الأمور فى نصابها ، فإن بدوت عنيفا أحيانا فأرجو أن يكون حسن قصدى شفيعى .

وساد بيننا صمت ثقيل لم يقطعه إلا بلوغ السيارات المطار ، فرحنا نغادرها ونسير فى الطرقات الطويلة ونحن نتبختر وقد صوبت إلينا العيون ، حتى احتوتنا غرفة الاستقبال .

ونودى علينا لنتوجه إلى الطائرة ، فتحسست حلقتى الشطاف ووضعت أطراف غطرتى الحمراء تحت المشلح ، فقد قيل لى أن ترك الغطرة متهدلة فوق المشلح يمس كبرياء التقاليد ، ولما اطمأننت إلى هندامى سرت إلى الطائرة كالطاووس .

وصعدت فى الدرج ، وتعثرت فى أطراف مشلحي فضممته إلىّ ورفعته حتى تعرت ساقاى ، وتلفت خلفى خشية أن يلمحنى سامى فيسرع إلى غاضبا ويردنى إلى الطريق المستقيم ، ولكن سامى كان قد غاب فى بطن الطائرة ، فعرجت إلى أعلى السلم وأنا مرتاح الضمير .

كانت المضيفة واقفة عند باب الطائرة ترحب بنا ، كانت ترتدى سروالا أبيض فوقه قميص أخضر طويل وعلى رأسها كاب أخضر ، كانت بيضاء البشرة كستنائية الشعر يزين وجهها عينان خضراوان كعيون القطط ، وقد رحبت بمقدمى بابتسامة عريضة فضحت طرف سنتها الأمامية المكسور ، وأحنت رأسها لى فى أدب بالغ وتوقير عظيم .

وتقدمت إلى مقعدى شامخ الأنف مزهوا بنفسى ، أنقل قدمى فى خيلاء . وعجبت لأمرى ، وفكرت ثانية فى مصدر ذلك الكبر فإذا بى أتذكر ما حدث لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب يوم ذهب لتسلم مفاتيح البيت المقدس ، فقد أغراه قواده أن يخلع مرقعته وأن يركب برذونا مطهما ، وما إن انطلق على ظهر البرذون فى ثوبه الفاخر الجديد حتى استشعر كبرا يملؤه ، فصاح فى قواده :

ـــ ثكلتكم أمهاتكم ، دخلنى العجب ، مرقعتى .. مرقعتى .

وخطر لى أن أصيح فى رفقائى كما صاح عمر وأن ألتمس ثيابى البسيطة ، وأن أحلق اللحية والشارب ، ولكننى غصت فى مقعدى ورحت أعبث فى لحيتى ، وأطلق لخيالى العنان يخوض فى الماضى السحيق ويقفز إلى الحاضر ويتطلع إلى المستقبل ويطوف بدول شرقية وغربية ، ويجمع بين المتناقضات يتذكر ويتكر ويؤيد ويعارض ويحيد وينتقد ، كل ذلك فى لمحة من اللمحات أو فى ثانية أو بضع ثوان . إن مخ الإنسان لأعجب ما فى هذا الوجود .

وأغلق باب الطائرة ودرجت على أرض المطار ، وجاءت المضيفة ومالت

علىّ ومدت يدها تبحث عن شيء فى طيات ثيابى ، ورفعت بصرى إليها فقالت فى رقة :

ـــ الحزام .

ـــ ربطته .

وأزلت المشلح عن بطنى فظهر الحزام تحته ، فابتسمت المضيفة وكانت البسمة فى عينيها الخضراوين أروع منها على شفتيها .

وسارت بين صفى المقاعد تتأكد من أن الركاب جميعا قد ربطوا أحزمتهم ، وتتبعتها ببصرى ، كان خصرها دقيقا غاية الدقة حتى إننى أشفقت عليه من ثقل الأرداف الممتلئة ، وكان صدرها بارزا ، وكان نهداه يصرحان أن الفضل لقوامه لما استحدثته بيوت الأزياء من وسائل توحى للخيال بأشياء لا وجود لها . إنها سراب الجمال يحسبه الظمآن لحما فإذا جاءه وجده أسلاكا أو شرائح من الخيزران شد عليها قماش من الحرير الغالى .

وارتفعت الطائرة فى الجو ، وأسرعت المضيفة إلىّ تصب فى كفى « الكولونيا » وتقدم إلى بعض أقراص النعناع ، وعيناها تتحدثان إلى حديثا شهيا أحلى من حديث الشفاه .

وابتعدت عنى قليلا ، وأخذت أقنع نفسى أن غرورى وخيالى هما اللذان أوحيا إلى حديث العيون ، وأنها فتاة تؤدى عملها وترحب بضيوفها جميعا على السواء ، ولكن إحساسا خفيا همس فى أغوارى أن نظراتها تحمل معانى أعمق مما تحمله نظرات الترحيب العادية ، إن فيها نداء صريحا لا يمكن أن تتغاضى عنه أجهزة الاستقبال فى الإنسان .

ومددت يدى لأضغط على اليد التى تحرك المقعد لأضطجع ، فإذا بالمضيفة الفارعة تسرع إلىّ فى خفة وتضغط على اليد ، حتى إذا ما مال المسند أمالتنى

فى حنان وقد دنا صدرها من صدرى ، ثم مدت يدها وجلبت وسادة من على الرف وضعتها تحت رأسى .

وجلست القرفصاء وأخرجت من تحت مقعدى وصلة تضاف إلى المقعد لأبسط رجلى فوقها ويصبح المقعد سريرا ، وأخذت تضع الوصلة فى مكانها ، ثم رفعت رجلىّ فى رفق وأراحتهما فوقها .

وأحضرت من فوق الرف بطانية أنيقة غطتنى بها ، وطفقت عيناها ترويان قصة ، وكانت الجملة الوحيدة التى نطقتها :

ــ أية خدمة أخرى ؟

ــ شكرا .

وانبثقت فى أعماق مشاعر لذيذة ، وأرضى غرورى أن لا يزال فى على الرغم من الشعرات البيض المتسللة إلى لحيتى ما يجذب شابة جميلة أمامها عشرات الرجال لتختار .

كان مقعدى بالقرب من الباب الذى وضع عنده ثلاجة الطائرة والبوفيه ، فكانت تمر على فى غدوها ورواحها ، تحدثنى بجوارحها وإن أطبقت شفتيها لا تنبس بكلمة ، وكانت العينان الخضراوان أفصح جوارحها جميعا .

ووقفت بالقرب منى ، وقد أطفئت الأنوار ولم يبق إلا نور خافت يساعد على انسراح الخيال وتضخم الأوهام ، وظلت ترمقنى وتحرضنى على أن أدعوها .

وطلبت كوب ماء فما أسرع أن جاءت به ، وقلت لها وأنا أتناول الكوب :

ــ من أين ؟

ــ من لاهور .

ــ حقا إنها مدينة الجمال .

و لم تشأ أن تضيع وقتها فى غزل لا طائل تحته ووجهت نفسها وجهتها التى تبغيها ، تعلمت من طول ركوب الطائرات أن الخط المستقيم أقرب مسافة بين نقطتين ، وأن الطائرة إذا وضعت فى الاتجاه الصحيح فإنها تبلغ محطة الوصول ، فقالت :

ـــ إنكم أغنياء . أغنياء جدا . عندكم دولارات كثيرة .

وفهمت كل شيء ، وانهارت أوهامى كما تنهار قصور الحلوى إذا سلطت عليها حرارة النار ، لم تجد فى ما يجذب فتاة جميلة مثلها ، إنها باحثة عن الذهب ، وإن الباحث عن الذهب لا تتقزز نفسه لو غاص فى الأوحال ما دامت تلك الأوحال تقوده إلى منجمه .

وغشيتنى موجة خفيفة من الحزن ولكن سرعان ما انحسرت ، بعد أن غسلت صدرى وأزالت الغشاوة الكاذبة عن عينى .

وقلت لها :

ـــ حقا إننا أغنياء . أغنياء جدا . الدولارات عندنا تملأ الطرقات .

وأشرق وجهها والتمعت عيناها ببريق الطمع ، وفى مثل لمح البصر خطر لى أن أوجه اهتمامها إلى مصطفى ، لعل عطفها عليه الذى لن يعرف سببه ، يزيل رواسب مرارة التفرقة التى ركدت فى أغوار وجدانه السنين الطوال .

زهدت فى عطفها الزائف وعافته نفسى ، ولكننى عقدت العزم على أن أوجهه وجهة صالحة . ورن فى أغوارى صوت يردد : « قليل من الخمر يصلح المعدة » ، و لم أفطن إلى العلاقة بين ما تردد فى نفسى وبين ما أنا مقبل عليه ، وكثيرا ما أشغل نفسى بتحليل الدوافع التى تجعل مثل هذه العبارات ترن فى أغوارى فى أوقات دقيقة ، وغالبا ما أجد رابطة بين حقيقة مشاعرى وتلك الأقوال التى تنبت فجأة فى ضميرى دون أن أحس أن فكرى يفكر فيها ، رابطة

قد تكون أوهى من خيط العنكبوت ، ولكنني لم أجد فسحة من الوقت لأنسق عواطفى وأنقب عن الرابطة التى تربط بينها وبين الخمر القليل الذى يصلح المعدة ، وقلت للمضيفة فى همس :

— أريد أن أفضى إليك بسر .

وشعرت أن حواسها جميعا قد أرهفت ، فقلت لها :

— إننى لم أر دولارا واحدا فى حياتى .

واتسعت عيناها دهشة ، وقبل أن تفيق من وقع المفاجأة قلت لها وأنا أشير إلى نفسى :

— وهذا الرجل الماثل أمامك لم يولد الا من عشرة أيام .

وتبدلت نظرتها إلى .. لاح فيها خوف .. ظنت أننى مجنون ، فولدت فى صدرى بسمة لم ترتسم على شفتى ، وقالت وهى تبتعد قليلا عنى :

— إننى لا أفهم شيئا .. هذا لغز .

— ما أيسر حله .

— كيف ؟

فقلت وأنا أعتدل فى مقعدى :

— إنى لست سعوديا ، أنا مصرى لم ير الدولار يوما ، وهذه اللحية وهذه الثياب عمرها عشرة أيام .

— ولماذا أطلقت لحيتك وارتديت الثياب العربية ؟

— لأننى تابع لهذه البعثة ، فعلىّ أن أرتدى ما ترتديه ، أنا رجل فقير .

فقالت فى أسف :

— حسبتك أميرا سعوديا .

— وما الذى جعلك تتصورين هذا ؟

— طريقة لبسك ومشيتك وحديثك ، إنك تختلف عن الآخرين .

— هذا حق لأنى لست منهم ، لا أعرف كيف ألبس ولا كيف أمشى ولا كيف أتحدث ، لأننى غريب لا لأننى أمير .

والتمعت عيناها ببريق خبيث سرعان ما خبا ، ففطنت إلى ما ستقوله قبل أن تنطق به ، ستستخدمنى أنا الفقير لتكتشف الكنز الدفين بين هؤلاء الرجال الغارقين فى الأسرار .

واقتربت منى وقالت :

— من أغنى رجل فى هؤلاء جميعا ؟

ورن فى أعماق ذلك الصوت الذى يرن فجأة دون مقدمات : « قليل من العطف يصلح القلب » . كان عقلى يعمل دون أن أدرى ليجد العلاقة بين مشاعرى وبين « قليل من الخمر يصلح المعدة » ، وبدأت أنفذ خطتى التى رسمها خيالى ووجدانى ، فقلت لها وأنا أشير برأسى إلى مصطفى :

— الرجل الأسمر الراقد هناك .

— لا يبدو أنه عربى . هل هو عربى ؟.

— إنه عربى صميم .

— ولكنه أسمر .

— العرب بيض وسمر .. إنه يملك نصف مكة ، جميع الدور التى تطل على الكعبة ملكه .

وكان هذا هو القول الفصل ، تركتنى وذهبت إلى حيث يرقد مصطفى وغطته فى حنان ، وتعمدت أن يرتطم مرفقها بذراعه التى وضعها تحت رأسه ، وفتح عينيه فهمست فى سحر :

— آسفة .

وطار النوم من عينى مصطفى وانفرجت شفتاه عن أسنانه البيض ، وقالت فى صوت دافئ :

— عندى شاى ممتاز ، أتحب أن أحضر لك فنجانا ؟

وقال مصطفى فى انشراح :

— إنى أحب الشاى .

ولو عرضت عليه أن يشرب قهوة أو ليمونا أو أى شراب آخر لأقسم لها أنه شرابه المفضل .

وسارت على أطراف أصابعها . وإن من يراها ولا يعرف خبيئة نفسها يحسبها تفعل ذلك خشية أن توقظ النوام ، ولكننى فطنت إلى حقيقة السبب ، فمشيها على أطراف أصابعها يشد جسمها ، ويبرز كل فتنتها فى إغراء فتاك .

وتبعها مصطفى بأنظاره ، وقد سال لعابه ، فأخذ يمسح فمه بظهر يده ويصلح ثيابه ، واعتدل يرقب أوبتها .

وعادت إليه وناولته الشاى ووقفت تناجيه ، لم أسمع الهمس الدائر بينهما ولكننى لمحت إشراق وجه مصطفى وتفتحه على الرغم من الضوء الخافت السارى فى المكان .

وأخذت تغدو وتروح وتمر بى فى ذهابها وجيئتها دون أن تحفل ، حرست نظراتها وحبست رقيق عواطفها عنى ، حتى حقى كراكب عادى سلبته منى ، لم يخطر على بالها أن تقدم لى ما قدمته لسائر رفاق الذين كانوا معى فى الطائرة . إننى رجل فقير وحسان هذه الأيام يفرون من الفقراء فرارهن من الأجرب .

وهبطت الطائرة فى مطار لاهور فخفت إلى مصطفى تعاونه على فك حزامه ، لم يكفها ما أسبغته عليه من عطف طوال الليل ، حتى راح الرفاق

جميعا يتساءلون عن علة ذلك الود العجيب الذى نبت فجأة ، ولكنهم لم يجدوا جوابا .

ووقفت عند باب الطائرة تودع الهابطين ، ولمحت مصطفى قادما فتفرست فيه فأذهلنى التبدل الذى طرأ عليه ، بدا لعينى شابا متفتحا يستقبل الحياة باسم الثغر تملأ الآمال العراض صدره ، وتريثت لأرصد ما يكون بينهما .

ومد يده يصافحها فمدت يدها البضة وصافحته وضغطت يد اليد الأخرى ، و لم أستطع أن أميز اليد الضاغطة أهى اليد البيضاء الرخصة أم اليد السوداء ؟

وقالت له بعد أن ردت على شكره :

— انتظرنى .. إنى قادمة .

وتقدمت لأهبط ووصلت إلى حيث تقف وقلت :

— رحلة جميلة ومضيفة أجمل .

فقالت فى فتور :

— شكرا .

وأشاحت بوجهها عنى فقد صرت فجأة قذى فى عينيها .

وبلغت أرض المطار فوجدت مصطفى منتظرا ، فقلت له :

— هيا .

فقال فى فرح :

— طلبت منى أن أنتظرها .

و لم يمض طويل وقت حتى أقبلت على مصطفى وطلبت منه أن تلتقط لهما صورة معا . ووقف مصطفى إلى جوارها وقد تفتح كزهرة مسها الندى ، وسرت فى الطريق وأنا أغمغم :

— الويل للفقراء .

٢٣

راحت السيارات تشق شوارع لاهور الهادئة النظيفة التى غرست على جوانبها الأشجار الوارفة الضخمة ، وقد أطلت من خلف أسوار الدور الفاخرة الأزهار والورود فأفعم الجو برائحة عبقة .

وكان مصطفى إلى جوارى فى السيارة يتدفق فى الحديث ويقص على فى نشوة نتفا من مغامراته النسائية ، وهو واثق أننى سأصدق كل ما يقول بعد ما رأيت بعينى رأسى المضيفة تركع ساجدة عند قدميه .

وأطل من النافذة ورأى لاهور بأشجارها وبيوتها الأنيقة وحدائقها الخضراء المزدهرة ، فالتفت إلى وقال :

ـــ لا تذكرك لاهور بمدينة عندكم ؟

فقلت على الفور :

ـــ المعادى .

ـــ صدقت .

وطفق يحدثنى عن المعادى ، وعن فتاة المعادى التى أحبته والتى كان يذهب معها فى سيارته إلى الكازينو ، وعما كان يقول لها وعما كانت تقول له ، كان سعيدا غاية السعادة يكاد يطير من الفرح ، فقد لمست المضيفة روحه لمسة سحرية .

وأردت أن أغرقه فى النشوة فقلت له :

ـــ أين ستقابلها ؟

— من ؟

— المتيمة بحبك .

— ما رأيك فيها ؟ جميلة . أليس كذلك ؟

— رائعة ، كان حدبها عليك عجيبا .

— أمضت الليل إلى جوارى تداعبنى وتناجينى .

— سحرتها .

— أعطتنى عنوانها ولكننى لن أذهب .

— حرام أن تحطم قلبها .

— أنا رجل أحب أن أشرب وأضحك ولا شىء غير هذا ، وما أظن أن هذا يرضيها ففى عينيها شبق .

— تغاض عما فى عينيها .

— يا خبيث .

ووصلت السيارات إلى بيت الضيافة ، ودخلت من الباب الأيسر وسارت فى حديقة رائعة ، ثم وقفت أمام باب الدار الفاخرة ، وهبطنا جميعا ، وخف الزملاء إلى غرفة الاستقبال ، بينا وقفت أدير عينى فى الأزهار والورود والأشجار ، وأملأ رئتى بالهواء ، فأحسست الحياة تدب فى أوصالى ، والربيع الجميل يتسرب إلى روحى .

وذهبنا إلى حجراتنا نستريح ونتأهب لدعوة الغداء ، وبعد أن تمددت فى الفراش قليلا قمت أستحم وأهذب لحيتى وشاربى .

وارتديت ثيابى العربية الفاخرة ، وانطلقنا إلى الدعوة ، فلمحت سيدة رائعة الحسن واقفة عند الباب تستقبلنا ، كان شعرها أسود طويلا ، وعيناها واسعتين جدا ، ووجهها مستديرا ، وفمها كأنه خاتم من عقيق ، وبشرتها

بيضاء معتدلة القامة يميل جسمها إلى الامتلاء ، ترتدى الساري الهفهاف ، وقد كشفت بطنها وجزءا من ظهرها ... كانت فتنة .

وتقدمت منها وصافحتها دون أن أجد فى نفسى الجرأة على أن أنظر إليها ، بهر جمالها بصرى حتى لم أقو على فتح عينى . ودلفت إلى غرفة فاخرة ، فرشت أرضها بسجادة كبيرة رائعة ، وانتثرت فيها الأرائك والمقاعد التى تشهد بحسن ذوق صانعها ، وعلقت على الحوائط لوحات فنية أخاذة.واخترقنا الغرفة فإذا بها تؤدى إلى حديقة واسعة ، نصبت فيها خيمة مخططة من القماش الأحمر والأسود والأبيض قد قامت على أعمدة رفيعة كسيت بالقماش المخطط بالأحمر والأبيض والأسود ، وصفت تحت الخيمة مقاعد وثيرة ،وعلى بعد منها انتثرت موائد تظللها مظلات البحر الكبيرة ، وجلست الحسان من حول الموائد وقد تطلعن إلينا .

كان الوزير يتألق فى ثيابه ، ومجدى خلفه كأنه أسطورة عربية تتحرك ، وسار مصطفى يتلفت ، وانطلقت وأنا مأخوذ ، وبالقرب منى عقيل وسامى وممدوح ، وسار فهد وحسان فى المؤخرة .

ودنا سامى منى وقال :

— هذه روعة .. هذه هى الجنة .

فقلت له وأنا أمد بصرى إلى الحسان :

— وهناك الحور العين .

والتفت الوزير إلينا وقال :

— انتشروا فى المكان ، لا يقف اثنان منكم يتحدثان أحدهما مع الآخر .

وانتشرنا ، وقاد رجل مسن عقيل إلى حيث تجلس الحسان فجلس بينهن وهو غارق فى خجله ، وبدأته إحداهن بالحديث فانطلق لسانه ، وسرعان

ما اشترك مصطفى فى الحديث مع رجل يرتدى البدلة وعلى رأسه عمامة زرقاء يرتفع طرفها إلى أعلى كأنه ريشة ، وجلس فهد وحسان إلى أحد التجار وغرقا فى العروض والمساومات ؛ أما مجدى فقد خف إلى سيدة هندية بين حاجبيها دائرة حمراء ، وانغمس فى الحديث معها ، وجلس ممدوح يتجاذب أطراف الحديث مع رئيس الغرفة التجارية بالمدينة ، وراح سامى يجوس خلال الصفوف يتحدث مع هذا وذاك ، أما أنا فقد وقفت شاردا برهة .

إن ما أراه الساعة ليس غريبا عنى ، رأيته فى السينما فى الروايات التى تدور حول قصص ألف ليلة وليلة وتخرج بالألوان ، كنت أظن أن هذا العالم من ابتكار المخرجين الأمريكيين ، فإذا بى أجده نابضا بالحياة فى لاهور ، ولكن كان هناك فرق واحد .. كانت حسان لاهور أروع فتنة من حسان هوليود !

ودنت منى فتاة أمريكية طويلة ترتدى ثوبا أحمر ، فى عينيها جرأة ، وكل لفتة فيها تدل على أنها مرت بتجارب ومغامرات كثيرة ، وأنها على استعداد لأن تخوض أية مغامرة جديدة ، فهى تحس أن الشباب قد بدأ يتسرب من بين يديها ، قالت :

— كيف رأيت لاهور ؟

— جميلة .. رائعة .

— وماذا تفعل فيها ؟

— آكل وأشرب وأنعم بالطبيعة .

فضحكت ونادت على بعض صاحباتها وهى تقول :

— تعالوا انظروا إلى من يأكل ويشرب فقط فى لاهور .

وخفت بعض الفتيات إلينا وهن يضحكن ، وفهمت تعريضها بى ، فقلت متظاهرا بالسذاجة :

— وهل هناك ما يفعله الرجل فى لاهور غير هذا ؟

ورنت ضحكات ناعمة حبيبة ، وأحست الأمريكية الخبيثة أننى سأستدرجها فى الحديث حتى أجعلها أضحوكة ، فقالت لتغير الحديث :

— نزلت فى جدة منذ عشر سنين وأمضيت بها أسبوعا ، كان أسبوعا لن أنساه أبدا ، كنت وقتها طفلة وقد سعدت برفقة محمد وعلى وأحمد ، كانوا كرماء معى غاية الكرم .

فقلت لها :

— تمتعت بالأكل والشرب والطبيعة .

ورنت إلىّ رنوة دلال ورفت على شفتيها بسمة ، وتحرك شيطانى فقلت لها :

— مما لا شك فيه أنك كنت من عشر سنين شابة جميلة .

فغاضت بسمتها وغشيت عينيها موجة من الكدر ، وقالت وهى تنسحب :

— عن إذنك .

وتنفست الصعداء ، كنت أخشى أن يمضى الوقت كله وأنا أتحدث إلى الأمريكية الطويلة التى فاتها قطار الشباب .

وأقبلت نحوى امرأة إنجليزية ترتدى ثوبا عنابيا قصيرا ، وعلى كتفها فراء أسود ، وعلى رأسها قبعة سوداء مزينة بريشة . قد طلت وجهها بطبقة من الأبيض ، وزينت شفاهها وخديها بالأحمر ، ولكن يد التجميل عجزت عن أن تخفى تجاعيد عنقها والعرق النافر فى رقبتها .

ابتسمت عن أسنان انجليزية صميمة ، وقالت فى دلال الصبايا وهى تحنى رأسها فى رشاقة مفتعلة :

ـــ كيف حالك ؟

ـــ شكراً لك .

ووقفت تحدثنى ، وخف مصطفى إلينا ، قالت :

ـــ كيف رأيت لاهور ؟

فقلت فى طلاقة :

ـــ مدينة الجمال : ورد فى الخدود ، وبنفسج فى العيون ... هى ربيع الطبيعة وربيع الشباب .

فقالت وهى تميل برأسها وتتأوه :

ـــ أوه .. أنت شاعر .

فقال مصطفى :

ـــ من كبار شعرائنا .

فقلت وأنا شامخ بأنفى :

ـــ لى قصائد رائعة سار بها الركبان .

ويعلم الله أننى لم أنجح فى نظم بيت واحد طوال حياتى ، ولكن الجمال كان يوحى بالكذب . فانطلق الخيال .. قالت لى :

ـــ إنك تتكلم الإنجليزية بطلاقة . أين تعلمتها ؟

ـــ فى المملكة ، لم أغادرها أبدا .. فى جامعة الرياض .

ـــ رائع .. رائع ..

وسألتنى أن أحدثها عن المملكة ، فرحت أحدثها حديث الخيال ، ووصفت لها الرياض والخبر والدمام وشركة أرامكو ، وما كنت قد رأيت من الجزيرة العربية إلا جدة ومكة . ولم يستطع مصطفى صبرا على حديثى فانفلت .

وانفردت الإنجليزية بى فتلفتت ثم قالت :

— كم زوجة لك ؟

قلت فى تواضع :

— واحدة .

واستشعرت خيبة أمل فقالت :

— قل الحق .

وانسرح خيالى وانطلق لسانى فقلت :

— أربع زوجات من سورية ...

ودار مصطفى دورة ، ووجد أن يعود ليتمتع بالحديث الدائر بينى وبينها ، فسرعان ما عاد يصيخ سمعه دون أن ينبس بكلمة ، وانطلقت فى الخيال :

— وزوجتان من لبنان .

قالت وهى مفتوحة العينين مرهفة الحواس :

— هيه !

— وواحدة من تهامة .. من بلادى .

— هيه !

— غير ما ورثت من جوارى .

وقال مصطفى وهو يضحك :

— الله يلعنك .

ثم هرب وتركنا ثانية وحدنا . ودنت منى وهمست :

— ماذا تلبسون تحت ثيابكم الجميلة هذه ؟

وكشفت عن نفسها ، إنها تشتهى أن تقشرنى ، وتحركت غريزة حب الاستطلاع فيها . وإن أية امرأة لتتمنى أن تتاح لها فرصة إزاحة الستار عن رجل يملك قطيعا من النساء لتعرف سره . وقلت فى بساطة :

— لا شيء .. أقصد لا شيء يختلف عما تلبسون .

— إنك لا تلبس مثلهم ذلك الشيء الطويل .

ونظرت إلى سراويل مصطفى التي لاح طرفاها من تحت الثوب ، وقلت :

— هذه سراويل طويلة تغطي الساقين إذا لفح الهواء الثوب .

— ولما لا تلبسها ؟

— لأنني لا أحفل أن تتعرى ساقاى أو يتكشف أى جزء من جسمي ، قد أكون مريضا بحب الاستعراض .

وفتحت عينيها وتأوهت ثانية وهي تقول :

— أوه ! يخيل إلى أنك مثقف ثقافة خاصة .

فقلت وأنا أخفي ابتسامة ساخرة تريد أن تحتل شفتي :

— إنني ممتاز في الخواص .

ورنت إلى رنوة طويلة ، وتركت عينيها تتحدثان فاللسان يتعثر وهو يلف ويدور ليلمح إلى بعض ما تستطيع العين أن تفضي به في حرية تامة ، وسادت فترة من الصمت المعبر ثم قالت :

— لا بد أن يدعوك زوجي لتناول الشاى عندنا .

وتركتني وذهبت إلى زوجها ، وكان إنجليزيا طويلا ممتلئ الجسم مستقيم القامة ، وقد نبتت بعض شعرات بيض في فوديه ، ووقفت تحدثه برهة ثم عادت في رفقة زوجها وقالت هي تشير إلى :

— إنه رجل هام من رجال الأعمال ، وقد قلت له إن زوجي سيدعوك لتناول الشاى عندنا .

فقال الرجل وهو يقدم إلى بطاقته :

— يسرني أن تشرفنا غدا لتتناول قدحا من الشاى معنا في الخامسة .

— لا أستطيع أن أعد . سأحاول .

وصافحت الرجل ، وصافحت المرأة وهى تمد لى يدها وتلقى برأسها إلى الخلف فى دلال العذارى ، وانصرفت وأنا أدس البطاقة فى جيبى وإن قررت عدم الذهاب .

وسرت فى الحديقة العجيبة التى أنبتت الحسان من كل لون وأنا أفكر فى حالى ، صرت رجل أعمال هام أدعى إلى الشاى دون أن أدرى نوع العمل الذى يراد منى أن أتحدث عنه .

ولمحت شابة جميلة ، لم تكن ترتدى السارى بل كانت فى ثوب أسود ، وكان شعرها وعيناها أشد قتامة من ثوبها ، وكان وجهها بين السواد كهالة من نور ، ودنوت منُها وأحنيت لها رأسى محييا فإذا بها ترفع يدها إلى فمها ثم إلى رأسها . كانت تحيتها أشبه بالتحية الشرقية التى نراها فى الأفلام التى تدور حول الشرق ، وذهلت برهة فلم أكن أدرى هل استعارت هذه التحية من السينما أو أخذت السينما هذه التحية عنها وعن أترابها .

وقدمت لها نفسى :

— جمال عبد السلام ، من تجار الدمام .

ولم تفقه قولى وإن فطنت إلى أننى أعرفها بنفسى ، فقالت جملة فهمت منها « تيرانى » فعلمت أنها من طهران ، قلت لها :

— تتحدثين الإنجليزية ؟

— لا .

— الفرنسية ؟

— لا .

— العربية ؟

ـــ لا .

والظاهر أنه لاحت فى وجهى امتعاضة مضحكة فقد أشرق وجهها ولمعت عيناها سرورا ، ثم ضحكت ضحكة خافتة كان لها وقع السحر فى فؤادى .

وتحركت وخطوت خطوة إلى الخلف ، فأنا لا أستطيع أن أقف ثابتا لحظة واحدة ، فارتطمت بجسم ، فالتفت لأعتذر فإذا بى أكتشف أننى ارتطمت برجل عربى طيب انضم إلينا فى كراتشى ، وانحنى الرجل فابتسم ، ثم قدمنى إلى الرجل الذى كان يحادثه ، وكانت مصادفة سيئة من سلسلة المصادفات التى تكون حياتى ، قال :

ـــ الأستاذ جمال عبد السلام من مصر ، وهو خبير يرافق البعثة .

ولمحت فى وجه الرجل الباكستانى تحفزا ، وقال الرجل العربى الطيب وهو يشير إلى الرجل الباكستانى الذى يرتدى بدلة كحلية وقد ابيض بعض شعر رأسه :

ـــ سعادة سفير الباكستان فى تركيا .

وما إن تم التعارف حتى راح السفير يهاجم مصر وينتقد سياستها فى القناة ، ويتهم قادتها بأنهم قد عادوا بها القهقرى خمسين سنة ، ثم عرج على العلاقات الطيبة بين مصر والهند وسخر منها ، وراح يعجب كيف تشتد أواصر المحبة بين مصر والهند التى اعترفت بإسرائيل ، وتقع النفرة بينها وبين الباكستان التى لم تعترف بإسرائيل !

كنت عازما على ألا أخوض فى السياسة ، وعلى ألا أعادى أحدا ، وأن أفتح قلبى للجميع ، ولكن ثارت دمائى فى عروقى وارتفعت درجة حرارتى ، لقد ألقى القفاز فى وجهى ، فعلى أن ألتقطه وأن أعيد اللطمة لطمتين ما دام حقى ظاهرا وقد هوجمت ظلما .

وسخرت من سعادة السفير ومن عدم اعترافه بإسرائيل ، ودللت بالأرقام على أن حليفته تركيا هى عميل إسرائيل الأول . وأنه حليف إسرائيل وزحفت على حلف بغداد وهاجمته ، وما أيسر تجريحه وتقويضه ودوسه بالأقدام .

ولم يصمد سعادة السفير للجدل فثار وثرت وقلت فى عنف :

ـــ ليسمح لى سعادة السفير أن أقول له إنه لا يفقه شيئا فى السياسة .

وقال والشرر يتطاير من عينيه :

ـــ كيف تقول لى هذا ؟ أنا فى الستين وأنت لا تزال صغيرا . كم سنك ؟

ـــ العبرة ليست بالسنين .. هناك بوابون أكبر سنا من سعادتك .

ووقف كل منا متحفزا . كنا كديكين فى معركة ، وخطر لى أن أخلع الثياب العربية وأن أقف على منصة وأصيح :

ـــ أنا مصرى وأعتز بمصريتى ، وأنا مستعد أن أنازل كل من توسوس له نفسه مهاجمة مصر أو جرح شعورها .

وجاءت زوجة الداعى تقودنا إلى المائدة فانصرفنا وأنا ثائر ، شاءت المصادفة أن أرتطم برجل أحرق وأن أعاديه ويعادينى ، وما كنت من الباحثين عن العداوات ، إننى لأدعو إلى الحب ، وقد أحببت الشعب الباكستانى ، وإننى على استعداد لأن أحب الناس جميعا ، ولكن ما كانت النوايا الطيبة وحدها تكفى ، لا بد أن تضمرها أنت ، وأن يضمرها الأطراف الآخرون الذين تحتك بهم وتعيش معهم .

لن يكون سلام على الأرض ما لم يؤمن به البشر كلهم ، أما إذا أضمر زعيم شعب واحد العداوة فسيذكى نار البغضاء فى الصدور ويعكر صفو الناس جميعا .

والتففنا حول الموائد العامرة بألوان الطعام الهندى ؛ من الأرز إلى السمك

إلى « الكارى » إلى الكباب ، كنت جائعا ولكن المشادة التى قامت بينى وبين السفير أماتت شهوتى للطعام .

وبدأت اليد التى قبضت صدرى ترخى قبضتها ، وتبخر الغضب من جوفى ، والتأم جرح نفسى وإن خلف أثرا ما أهون أن ينكأ ، ورحت أجوس خلال المدعوين والمدعوات أتبختر كالطاووس .

أجسام الحسان الغضة البضة تنثنى كأغصان البان ، والعيون الواسعة التى يغلب فيها السواد على البياض كأنها النبال ، والحرير الهفهاف الملتف حول الصدور الناهدة والمسدول على الظهر لا يغطى الأجزاء العارية ولا يتركها لوخز النسيم يزيد الفتنة والإغراء ، وأخذت النشوة تندس إلى روحى ، فللجمال وقع السحر فى النفوس .

وانتهى الحفل وأخذ الناس فى الانصراف ، فسرنا فى الحديقة واخترقنا الغرفة الأنيقة ، ووقفنا على وصيد باب الدار الخارجى ننتظر سياراتنا .

ووقفت سيارة أمامنا ، فقفزت إليها نشيطا ودخل معى فهد وحسان ، وانطلقت السيارة وعبير الحفل يملأ الجو ، فأخذت أدندن وشعرت برغبة فى الغناء ، ولما كنت لا أحفظ أية أغنية فقد نظمت مطلع أغنية جنسية فاضحة وجعلت أرددها ، وإذا بفهد يغنى معى الأغنية الوقحة وهو يتمايل ويهز رأسه ويرسم بأنفه دوائر فى الهواء .

وقهقه حسان لأول مرة منذ غادرنا جدة .

٢٤

وقفت أصلى المغرب فى خشوع ، كانت الغرفة مظلمة ، وكان السكون يلف بيت الضيافة فى لاهور ، فقد كان الزملاء جميعهم يغطون فى النوم ، حتى يستطيعوا السهر فى الليل .

وفتح باب غرفتى وأضيئ النور ، ولما سلمت وأنا أختم صلاتى لمحت مصطفى ينظر إلى وهو يبتسم ، ثم قال : :

ـــ أنت محير ، من يراك وأنت تصول وتجول بين الحسان يقسم أنك زير نساء ، ولا أحسب أن هناك من يصدق أنك عابد متبتل .

ـــ لماذا ؟

ـــ كيف يمكن أن تجمع بين المتناقضين ، الصلاة ومغازلة النساء فى جرأة .

ـــ لا أرى أى تناقض فى ذلك ، إن مغازلتى للنساء نوع من العبادة .

ـــ بالله دع الهزر مرة وكلمنى كما أكلمك .

ـــ هذا ليس هزرا ، هذا نوع من التصوف ، إننى لا أومن أن العبادة مقاطعة الناس والاعتكاف فى صومعة ، ولا أعتقد أن قصر اليد أو عدم القدرة أو موات الحركة ضرب من التعفف ، إن التعفف الحق أن تكون قادرا وأن توفر لك السبل ثم تترفع ، لذلك تجدنى أسير فى الطريق حتى إذا ما كدت أشرف على نهايته كبحت جماح نفسى وعدت أدراجى .

ـــ هذه تجربة محفوفة بالمخاطر ، هذا لعب بالنار .

ـــ اللعب بالنار يحتاج إلى مران . الحاوى يضع النار فى فمه دون أن تحرقه .

— وما الذى يرغمك على هذا ؟

— قد يكون غرورا وقد تكون لذة الانتصار على النفس . قارفت كثيرا من المذاهب الهندية واعتنقت آراء فى التصوف تلقائيا ، قبل أن أقرأ وأعرف كنه هذه المذاهب والآراء .

كنت منذ صغرى أجد لذة فى القسوة على نفسى وحرمانها ما تشتهيه ، وكنت وأنا غلام صغير إذا ما قرأت القرآن أعتقد أن له معنيين ، أحدهما ظاهرى والآخر باطنى لا يفقهه إلا من أزاح الله الغشاوة عن قلبه ، وكنت أرقب اليوم الذى أتمكن فيه من كشف سره والإلمام بمعانيه الباطنية ، فلما كبرت وعشت بين الكتب عرفت أن ما أحسسته أحسه أناس قبلى ووضعوا فيه مذهبا هو مذهب الباطنية ، وأن الإمام هو من تنقشع الغشاوة عن قلبه وتتفتق أمامه أسرار القرآن .

وبلغت مبلغ الرجال ، وبعد أن مارست أنواعا من الحب اهتديت إلى أن كل حب ما عدا حب الله زائل ، فصرت أحب فى الله ، وأبغض فى الله ، وبدأت دعواتى وصلواتى تأخذ طابعا روتينيا ، ولم ينشرح صدرى لما وصلت إليه ، لذلك عزمت على أن أخوض الحياة وأعيش مع العصاة وأسهر مع السكارى وأجالس البغايا وأن أصون نفسى ، وإذا قالت فتاة هيت لك تعففت تقربا لله .

— هذا تجديد فى العبادة .

— هذا ليس بتجديد ، كان بعض المتصوفين يمارسون هذا النوع من العبادة مع تعديل فى الوسائل. فقد كانوا يراودون النسوة عن أنفسهن حتى إذا ما استجبن لهن تركوهن لوجه الله ، لأن الجوارى وما ملكت أيمانهم كن فى زعمهم حلالا لهم كما تزعمون الآن ، لذلك كانوا يأتون بغلمان ، حتى إذا ما اشتعلوا شوقا إليهم تركوهم ابتغاء مرضاة الله .

— يا شيخ !

— اقرأ سير المتصوفين تجدها زاخرة بهذا اللون من التصوف .

— أنت محير غريب الأطوار .

— أنت على حق ، كثيرا ما أحتار فى تحليل نفسى ، إننى كلما أشرفت على النجاح فى مشروع أهجره وأفر من النجاح وأبدأ مشروعا جديدا ، حتى إذا ما أينع وبدأت تنضج ثمرته أهرب منه إلى مشروع جديد ، بدأت خطواتى تثبت وأنا أسير صوب القمة فى عملى فى مصر ، فأفزعنى ذلك و لم تطمئن نفسى إلا بعد أن قبلت السفر إلى بلادكم .

يهمس فى أعماقى دائما هامس يردد : المولد بداية النهاية ، وقد يكون ذلك هو الدافع لى للفرار من النجاح ، لأننى أفر من نهاية النهاية !

قد أكون مريضا ، وكثيرا ما أقتنع أننى مريض ، ولكننى أصدقك القول أننى سعيد بهذا المرض ، فقسوتى على نفسى وحرمانها ما تشتهيه وفرارى من النجاح كل أولئك يمدنى براحة نفسية عجيبة .

فقال مصطفى وهو يضحك :

— ما رأيك فى أن ترى حسناتك !

فقلت له وأنا أنظر إليه نظرة خاصة :

— على طريقة المتصوفين القدامى !

فابتسم وقال :

— يا خبيث . على طريقتك أنت .

— وكيف ؟

— تأتى معى وترقبنى وأنا أشرب فتزيد سيئاتى وتزيد حسناتك .

فقلت له :

— أريد أن أنام .

وأقبل مجدى وسامى وعقيل ، فقلت لمصطفى :

— ها قد أقبل زميلك فاذهبا معا فى سبيل الشيطان .

فقال مجدى :

— لن أذهب معه ، إنه يعتنق مذهب الشراب ولا شيء غير الشراب .

فقلت لمجدى :

— إنك من حزبه وإن كابرت . الفرق بينكما أنه رجل صريح وأنت تحب أن تدعى ما ليس فيك .

وقبض مجدى على معصمى وجعل يلويه فقلت له :

— ثورتك دليل على صدق ما أقول .

واشتد فى ثنى معصمى فقلت له :

— أقسم بالله أنك لا تعرف شيئا عن الجنس حتى الآن .

فقال له مصطفى :

— اعترف بالواقع وتعال معى .

وجاء ممدوح وقال وهو واقف بالباب :

— هيا .

فقلت :

— إلى أين ؟

فقال سامى وهو يضحك :

— نمضى ليلة فى أحضان الشياطين .

فالتفت إلى ممدوح وقلت ساخرا :

— انتظر حتى تصلى العشاء ثم اذهب .

و لم يفطن إلى سخريتى بل نظر إلى ساعته جادا ثم قال :

— سأصليها فى القهوة ، سنقابل هناك صديقا سيكون الليلة قائدنا .

فقال سامى :

— فرق كبير بين القائد والقواد .

فقلت :

— الهدف واحد ، القيادة إلى النصر .

فقال مصطفى :

— لو استمررنا فى مناقشته فلن نخرج الليلة .

وانسل من الغرفة وتبعه الرفاق وأنا أقول :

— أسمع ولولة الفضيلة وسك الحدود ، بالله أرخوا أسلحتكم وخذ حذرك يا مصطفى .

— من ماذا ؟

— خشية أن يسكر مجدى ويضع خنجره فى غير غمده .

فقال وهو يضحك :

— يا خبيث .

وانصرفوا وبقيت وحدى فإذا بى أستشعر أننى قد تبدلت ، صرت رجلا آخر لا يعرف العبث ولا المزار ، وإذا باللسان الذى ينطق الفواحش فى يسر يدور فى حلقى ويعكف على تسبيح الله والقلب خاشع والدمع فى العين يترقرق ، وحان وقت صلاة العشاء فقمت أصلى فى اطمئنان ، ثم اندسست فى فراشى وأسلمت جنبى للرقاد .

هل أنا صاحب شخصيتين ، دكتور جيكل ومستر هايد ! هذا ما يطوف بذهنى أحيانا ، ولكن يطمئننى أن دكتور جيكل عندى متفوق على غريمه ،

وإن كنت أفزع أحيانا عندما أفكر أنه قد يأتى يوم تتحطم فيه قيود نفسى وينطلق مستر هايد المارد الجبار يعصف بى ويقوض جميع آمالى كما يهشم الطفل العابث دميته .

وأشرقت شمس يوم الجمعة فارتديت ثيابى كاملة لأذهب إلى غرفة الاستقبال أنتظر زملائى ، كنا نتناول طعام الإفطار معا ، وكان كم الثوب الواسع يعوقنى عن أن أمد يدى لأتناول صنفا بعيدا عنى ، وكثيرا ما سقطت أطراف الغطرة فى الأوانى الموضوعة أمامى فكنت آكل بحذر إذا جلست إلى المائدة ، أما إذا كان الأكل ونحن وقوف فإننى أصول وأجول ، وقد عرضت علينا بعض أجزاء من الشريط السينمائى الذى أخذ لنا فلم أظهر على الشاشة أبدا إلا وأنا آكل ، كأنما رسم لى القدر شخصية الأكول فى البعثة .

كنت أول من وصل إلى غرفة الاستقبال فجعلت أنعم بتأمل الأزهار المختلفة الألوان التى وضعت فى أصيص الزهر ، كان توزيع الألوان فى كل زهرة معجزا غاية الإعجاز ، وما تأملت البنفسج أو القرنفل أو الورد يوما إلا اندمجت روحى بالكون ، وراحت كل خلجة من خلجات النفس تسبح الله .

وظللت صامتا ، وإن كانت الأفكار تتولد فى رأسى والرؤى تتخايل لعينى والأنفاس تضطرب لصراع الآراء المتضاربة فى أغوارى ، فما أخلو بنفسى حتى تنشب فى أعماق معارك يغذيها الفكر ، ويمدها دائما بوقود متجدد يؤجج نارها ويزيدها ضراما .

وأقبل سامى مشرق الوجه يبتسم فى انشراح وحيانى فى حرارة ، ثم جلس وهو يقول :

— مدينة جميلة جدا ، تصور أن لاهور بها خمسمائة بيت للترفيه !

— مررت عليها جميعا ؟

فقال وهو يضحك :

ـــ هذا ما قيل لنا ، وقد مررت على بعضها ، ليتك كنت معنا ، لرأيت مصداق ما قلته لمجدى .

ـــ أنا أعرف مجدى أكثر من نفسه .

ـــ جاءت فتاة معنا .. كانت فتاة صغيرة وجعلت ترقص وتغنى ، ومالت على مجدى تداعبه ، ولكنه فر من مداعباتها وأغرق نفسه فى الشراب .

ـــ شكله يغرى من لا يعرفه .

فقال سامى فى عجب :

ـــ لو صنعوا للرجولة تمثالا لكان مجدى .

ـــ فرق كبير بين الرجولة والتماثيل ، لا تغرنك الظواهر ، أستطيع أن أجزم أن هناك ملايين الفتيات فيهن أنوثة تفوق أنوثة مارلين مونرو ، الرجولة والأنوثة أعمق من أن يكشفها الشكل الخارجى .

ـــ كانت فتاة الأمس تتمتع بأنوثة طاغية .

ـــ وماذا فعل ممدوح ؟

فقال سامى وهو يضحك :

ـــ ما يفعله كل مرة .

ـــ أقصد هل صلى العشاء قبل أن ينطلق إلى عبثه ؟

ـــ أبى أن نصعد إلى أى بيت قبل أن يصلى العشاء ، إنه يؤدى جميع الفروض على خير وجه .

ـــ وأنت ؟

ـــ سأصون نفسى بعد الزواج .

ـــ ومتى ستتزوج ؟

— بعد عودتنا من هذه الرحلة مباشرة . بالله لا تذكرنى بالزواج ؟

— أمرك عجيب . الزواج متعة .

— إنك لا تعرف متاعب ليلة الجلوة عندنا .

واعتدل فى جلسته وقال :

— تزوج أحد أصدقائى ، وما إن أغلق بابه عليه وعلى عروسه لأول مرة حتى ارتفعت أصوات من الخارج تحثه على الإسراع . كانت الفتاة غير محنكة وكانت خائفة ترتجف ، فراح يحدثها حديثا ناعما ، ولكن الأصوات المرتفعة فى الخارج كانت تفسد عليه الجو الشاعرى .. وصاح صائح :

— أسرع ، أبوها يغدو ويروح فى قلق ، ارحمه .

وقالت قائلة :

— أمها يكاد يغمى عليها . تحرك .

ولم يستطع أن يصم أذنيه عن الصياح المدوى الذى يمزق أعصابه ، فهجم على العروس يغتصبها ، جرت الفتاة مرعوبة منه ، وجرى خلفها بعد أن أحس أن كبرياءه جرحت ، وقبض عليها ولم يأبه لأنينها وصراخها وتم له افتراسها ، ثم فتح الباب فتدفق الأهل إلى الغرفة يقصون فى حرص بالغ كل ما لوث بالدم ، ودوت الزغاريد ، واطمأنت النفوس القلقة ليلة ، وفى الصباح حملت العروس إلى الطائرة لتنقل إلى مصر لتجرى لها عملية جراحية . لقد انقلب الزوج بسبب الصياح والحث والتقريع إلى وحش كاسر .

— اسمع نصيحتى وفر بزوجك ليلة الدخلة .

— والتقاليد ؟

— ثر على التقاليد البالية ، هذا أمر يتعلق بك وحدك .

— يا ليت .

ـــ كانت هذه هى العادة عندنا ولكنها اندثرت ، لأن شبابا مثلك لم يؤمنوا بها فثاروا عليها .

ـــ إننى أكفر بكل هذه العادات المرذولة .

ـــ لو كنت تكفر بها ما قبلتها . إنك تكفر بها بلسانك ولكنك تؤمن بها فى ضميرك ، قد يتحرر الفكر ولكن الروح تظل ترسف فى أغلال الرجعية !

وبدأ الزملاء يتوافدون على القاعة ، وأقبل عقيل فلما وقعت عيناه على سامى انفجر ضاحكا ، فقلت لسامى :

ـــ ماذا فعل بالأمس ؟

ـــ ظل ينظر إلينا كأنما يشاهد رواية فى سينما .

وجاء مجدى شامخا برأسه ، ويعبث الهواء بمشلحه الأسود فيزيد فى روعته ، ولما وقعت عيناى على البطل الأسطورى ابتسمت ، ولمح ابتسامتى فجاء إلى وقال :

ـــ ما الذى يضحكك ؟

ـــ ما فعلته أمس .

ـــ كانت فتاة لا تطابق هواى .

فقلت وأنا أضحك :

ـــ أنا واثق أن ما من فتاة فى العالم تطابق مزاجك .

فقام ليقبض على معصمى ، ولكن أقبل الوزير فى تلك اللحظة فوقف البطل الأسطورى يحيى الوزير فى أدب وعيناه محمرتان ، وتطلع إليه الوزير مليا ثم قال :

ـــ ما بالك مصفرا ، لا ترهق نفسك .

وكدت أقول :

— إنه مصفر من عدم الإرهاق .

ولكنى كبحت لسانى فقد كان لذيذا أن أدع الوزير يعتقد أن مجدى زير نساء ، فمما يبهج الصدر أن ترى تصرفات رجل مع آخر على وضع ما ، بينما أنت تعرف أن الحقيقة هى الوضع الآخر .

وجاء مصطفى وراح ينقل بصره بين مجدى وبينى وهو غارق فى الضحك ، ودخل ممدوح منبسط الأسارير يشع النور من وجهه ، وجاء فهد وحسان معا فقلما يفترقان .

ونهضنا إلى غرفة الطعام ، وجلسنا نتناول الإفطار ونحن نتجاذب أطراف الحديث . وتصرم الوقت ونحن نعيش فى جو من الود ، ثم نهضنا لنذهب إلى السوق نشترى بعض هدايا من منتجات كشمير .

وعدنا قبل الظهر ، وذهب بعضنا إلى غرفته ، وبقيت فى غرفة الاستقبال . وإذا بممدوح مقبل وهو مكفهر الوجه ، يقول فى لوعة :

— ستفوتنا صلاة الجمعة !

فقلت له :

— نحن على سفر .

— لم تفتنى الجمعة من قبل أبدا .

— إذا شئت أن تصلى الجمعة ذهبت معك .

— هيا ، الله يفتح عليك .

وانطلقنا فى سيارة إلى أقرب مسجد . وأفسح المصلون لنا طريقا وقادونا إلى الصفوف الأمامية وهم يرمقوننا فى إكبار . كنا فى الثياب العربية الحبيبة . وكان إمام المسجد نفسه يرتدى ثيابا تحاكى ثيابنا تشبها بأصحاب الرسالة .

وراح الإمام يشرح الخطبة التى سيلقيها باللغة الأردية وقد تعلقت به عيون

المصلين ، كانوا من الفقراء ، وشتان بين معمرى المساجد والنازلين فى القصور .

وأذن المؤذن وألقى الخطيب خطبته باللغة العربية ، كانت من الكتب الصفراء ولكن إلقاءه كان سليما ، كان من خريجى الأزهر ولا ريب .

وقضيت الصلاة وذهبنا إلى السيارة ، وما كدنا نستقر فيها حتى قلت لممدوح :

ـــ كيف تجمع بين العبادة والنساء ؟

فقال دون أن تطرف عينه :

ـــ هذا فرض وهذا فرض .

ـــ لا خير فى صلاة لا تنهى عن فاحشة أو منكر . أفهم أن يؤمن الإنسان أو يكفر ، أن يسير فى طريق واحد ، أن يكون صادقا مع نفسه ، أما أن يسير ثم ينحرف ثم يعود إلى الجادة لينحرف فهذا ما لا أفهمه ، اختر لنفسك طريقا واحدا واسلكه .

ـــ لى عذرى .

وصمت قليلا ثم قال :

ـــ أنا رجل كامل ، أقصد كامل من الناحية الجسمانية ، وقد أوقعنى سوء حظى فى زوجة تتعبها المعاشرة ، إننى لا أنال حقى منها لذلك أحاول أن أستوفى حقى من الخارج .

ـــ أظن أن لمثل هذه الحالة صرح بتعدد الزوجات . تزوج من أخرى .

ـــ هذا كلام هين . كيف أتزوج من أخرى ؟!

ـــ أنت رجل قادر تستطيع أن تنفق على بيتين .

ـــ المسألة ليست مسألة إنفاق . إننى أحب زوجتى على الرغم مما بها ، إنها

أم أولادى .

— ما دمت تحبها فضح من أجلها ، تسام بعواطفك .

— هذا مجرد كلام . لا أستطيع .

— ما دمت لا تستطيع تزوج .

— زواجى يجرح شعورها ، وأنا لا أحب أن أجرحها .

— وهل ارتماؤك فى أحضان غانية كل ليلة لا يجرح شعورها ؟

— كيف يجرح شعورها وهى لا تدرى ؟

— سواء أعلمت أم لم تعلم فأنت تعرف أنك تهينها بخيانتها ، وما أحسب أن المحب الصادق يرضى أن يهان من يحب حتى فى غيابه .

— لن أتزوج ، لن أقوض هناء بيتى بيدى .

— إننى لا أحرضك على الزواج ، ولكننى أريد أن أكشف لك نفسك التى تخدعك وتزين لك المعاصى .

— نفسى لا تخدعنى ، ولكن الضرورة هى التى تدفعنى لهذا .

— هل الضرورة ترغمك على أن ترتمى فى أحضان غانية كل ليلة ؟ أنت باحث عن متعة .

فقال فى صوت خافت :

— إننى أتخفف حتى أستطيع أن أحتمل شهور الجدب الطويلة .

— خداع آخر ، أخطر ما فى النفس أنها قادرة على أن تخدع نفسها بنفسها .

فقال فى يأس :

— صدق مصطفى ، أخطر ما فيك أنك لا تتعب من الجدل .

وكنا قد وصلنا إلى بيت الضيافة فهبطنا من السيارة ، وانطلق كل منا إلى

غرفته ، وما تمددت فى سريرى حتى رحت أفكر فى ممدوح ، وتساءلت ترى لو نكبت بزوجة كزوجته أكنت أتزوج أخرى ؟ وترددت فى الإجابة وامتلأ قلبى شفقة عليه .

٢٥

وكان مساء لن أنساه .

ارتدينا جميعا المشالح السود ، وهذبنا لحانا وشواربنا ، وتضمخنا بالطيب والروائح والعطور ، فقد كنا مدعوين للعشاء فى قصر حاكم لاهور ، وكان رئيس جمهورية الباكستان مشرفا الحفل .

واجتمعنا فى غرفة الاستقبال فى بيت الضيافة فكنا كأبطال القصص التاريخية ، وجال بخاطرى مرارا أننا واقفون على خشبة مسرح ، وأن الستار لن يلبث أن يرتفع .

ودنا سامى منى وراح يتفرس فى ، كأنما كان مكلفا بمراقبة لبسى ، وخفق قلبى ، انتظرت أن يقول لى : أصلح الشطاف ، أو يسألنى عن سروالى الطويل ! ولكن انبسطت أساريره وقال :

— أنت رائع الليلة .

فالتفت إلى عقيل وقلت :

— زه زه . أعطه ألف دينار .

واقتربت من مصطفى وقلت :

— امسح « الكريم » الذى وضعته على وجهك .

— يا خبيث .

ومرر يده على وجهه وقال :

— حلقت ذقنى الآن .

— بالملقط ؟ أو بمرهم من مراهمك العجيبة ؟ أو بالسكر والليمون ؟

— يا شقى .

ودنا فهد منى وراح يدندن فى أذنى بالأغنية البذيئة التى نظمتها وهو يرسم بأنفه دوائر فى الهواء فدندنت معه ، والتفت الوزير نحونا فلمحنا ونحن نتمايل فابتسم وقال :

— هيا .

فقلت وأنا أصلح مشلحى ، وأضع أطراف غطرتى الناصعة البياض تحته :

— وقار .

وسرت شامخا بأنفى أتبختر ، وهمس عقيل يقلدنى وهو يضحك :

— وقار .

وانطلق وفد الأجنحة السوداء إلى السيارات .

كان القصر قريبا من بيت الضيافة ، وما إن سرنا فى الشارع الهادئ الذى عبق جوه بعبير الأزهار حتى لمحنا القصر يتألق فى النور ، وانسابت السيارات فى طريق يخترق حديقة جميلة ، ثم دارت إلى اليسار دورة ووقفت أمام القصر الكبير .

خدم فى ثياب مزركشة ، وحرس هنا وهناك ، ونعمة وثراء ، وجو شاعرى أخاذ يسلب الألباب ، وزاد فى روعة المشهد سيرنا بثيابنا الخلابة كأبطال الأساطير .

وصعدنا فى درج خشبى غطى ببساط أحمر ، ودلفنا إلى غرفة واسعة ، أثثت بفاخر الرياش ، ووقع بصرى على صورة لإمبراطور إيران كانت فى إطار

من معدن ووضعت على نضد ، وقد أوحت إلىّ طريقة وضعها أن هناك صلة وثيقة بين الإمبراطور وصاحب الدار .

وأدرت عينى فى الوجوه التى غصت بها غرفة الاستقبال فإذا بها نفس الوجوه التى رأيتها فى كل حفلة دعينا إليها ، الأمريكية الطويلة التى فاتها قطار الشباب ، والحسناوات الفاتنات اللاتى يملأن كل مكان ذهبنا إليه بعبير الفتنة والشباب ، ولكن غاب وجه واحد ، وجه البريطانية المتصابية المتلهفة على تقشيرى .

ومر بى سفير الباكستان فى تركيا ، والتقت عيوننا ولم يفكر أحدنا أن يبدأ صاحبه بالتحية ، وسار فى طريقه كأن لم يكن بينى وبينه أشياء ، ولم أحفل بالعداوة التى نشبت بيننا ، كنت سعيدا فى تلك الليلة ، وكنت أستشعر نشوة عارمة ، فما كنت لأسمح لعداوته أن تعكر صفوى .

ودعينا إلى قاعة الطعام فسرت مع التيار المتدفق من البشر ، وبلغت المائدة فألفيت أمامى الفتاة الأمريكية ، فلما لحتنى قالت لى :

ـــ ماذا ستفعل الليلة ؟

فقلت وأنا أبتسم :

ـــ آكل وأشرب ثم أنام ، ولا شيء غير هذا .

وضحكت وضحكْت وما دار فى خلدى أن القدر يخبئ لى مفاجأة .

وتناولت صفحة وملعقة وسكينا وشوكة ، وأدرت عينى فى المكان فرأيت روعة وفخامة : الثريات تتلألأ . . كانت من بلور يأتلق كالماس ، وكانت تتدلى كعناقيد العنب فى كبرياء ، الحيطان تنطق بالبذخ والفن والذوق السليم ، كانت كحواشى طرزت فى دقة ومهارة وأناة ، نقوش فارسية يغلب عليها اللون الأزرق والذهبى ، لا تبهر العين ولكن تهز النفس . وكانت القاعة طويلة مدت

فيها موائد عامرة بالورود والأزهار ، وانتثرت فيها مصابيح ملونة أضفت على المكان شاعرية وجلالا . وكان فى صدر المكان شرفة عالية زينت بالورود والرياحين وانتشرت فيها أضواء خافتة ، واحتلتها فرقة موسيقية يرتدى أفرادها سترا محلاة بقصب مجدول وسراويل غامقة ، وكانت الألحان الخفيفة التى تعزفها تسرى كالنسيم الرقراق .

ووجدت بالقرب منى بعض درجات من خشب البلوط ، ودرابزين من نفس الخشب ، أنيق الصنع ، دقيق الخرط ، وكانت الدرجات تقود إلى داخل الدار .

وكانت على النوافذ والأبواب ستائر هائلة من المخمل الأحمر ، إنها تضفى على المكان غموضا ورهبة وسحرا ، وراح الخدم يغدون ويروحون فى ثيابهم الوطنية المزركشة فى خفة الأطياف .

وتقدمت لأخدم نفسى وأتناول ما أشاء من الطعام المكدس على المائدة الطويلة ، وإذا بالموسيقى تعزف السلام الباكستانى ، وإذا بضابط كان بجوارى يقف مشدود القامة . فوضعت الصحفة على المائدة ووقفت وقفة عسكرية !

وفتح باب الغرفة العالية القريبة منى وظهر عند الباب رئيس الجمهورية يرتدى بنطلونا أسود وجاكتة بيضاء ، وإلى جواره البيجوم فى ثوب أزرق وقد لفت حولها « اسارى » هفهافا من نفس اللون .

استمرت الموسيقى فى عزفها وأنا واقف كالتمثال ورأسى فارغ لا يشغله شيء . وفجأة رن فى أغوارى ذلك الصوت الذى يرن بلا مقدمات وجعل يردد : « ورق العنب سلطان المحشى » .

ورفت على شفتى بسمة جعلت تتسع فى أعماقى حتى خشيت أن أقهقه ، وبدأت أفكر فى ذلك الهمس وما مصدره وما الذى جعله ينبثق فى أغوارى

الساعة ؟ أمامي رئيس جمهورية وزوجه ، فهل يا ترى قد وقر فى النفس أن كل حاكم سلطان ! وما علاقة ورق العنب وسلطان المحشى بالسلطان ؟!

وقبل أن أسترسل فى تفكيرى صمتت الموسيقى برهة ، وتحرك رئيس الجمهورية والبيجوم وهبطا فى الدرج ، وكنت أول من مرا به فحيياني بإيماءة خفيفة من رأسيهما ، ودبت الحركة فى القاعة مرة أخرى ، فشغلت بما يدور أمام عيني عما يدور فى رأسي .

ولمحت الفتاة الإيرانية الجميلة التى لا تتحدث الإنجليزية ولا الفرنسية ولا العربية ، ولمحتنى وارتسمت على شفتيها بسمة فأشرقت روحى ، وتفرست فيمن وقفوا معها فإذا بى ألمح شقيق إمبراطور إيران وزوجته الأمريكية وبعض فتيات إيرانيات . لقد كانت من حاشية الشاب المنطوى على نفسه ، الذى رانت على وجهه مسحة من الحزن العميق .

وشغلت بالطعام عما حولى ، ولما امتلأت عادت عيناى تتجولان فى المكان ، فلمحت مجدى بقامته الفارعة الفخمة يتحدث إلى فتاة ، كان رائعا غاية الروعة ، وقد تخيلت قصور الأوهام التى قامت شامخة فى ذهن الحسناء .

ورأيت الوزير وقد أحاطت به باقة من الحسان ، وخف إلى مصطفى وقال وهو ينظر صوب الوزير :

— لو كنت امرأة لسجدت تحت قدميه ، نظراته أخاذة .

فقلت له وأنا أبتسم :

— أنا الليلة فى ليلة القدر . تمن وأنا أدعو الله معك أن يحقق أمنيتك .

فقال وهو يضحك :

— يا خبيث .

ثم تركنى وانسل ، وبحثت عن الرفاق فوجدتهم قد قبعوا فى ركن القاعة ،

أشفقوا على أنفسهم أن يعيشوا فى الجنة فجلسوا ينظرون إلى الحلم البهيج من بعيد .

ورحت أجوس خلال المدعوين ، وإذا بى أقف فجأة وأرنو إلى فتاة لا تتجاوز السابعة عشرة ، كانت سمراء داكنة الشعر واسعة العينين رقيقة الشفتين دقيقة التقاطيع ، يلف جسمها « سارى » فى لون زرقة السماء . لم يكن جمالها أخاذا ولكننى أحسست قلبى يهفو إليها ويخفق خفقانا لذيذا حرمت منه منذ سنوات طويلة . خيل إلى أنها حبيبة إلى روحى .

وسرت إليها كالمسحور ، وألقيت عليها تحية المساء ثم قلت :

ـــ ليلة رائعة ، ليلة من ليالى ألف ليلة .

فقالت فى بساطة :

ـــ حقا ، إنها ليلة رائعة .

وابتسمت ابتسامة أضاءت روحى ، فقلت فى سرور :

ـــ إنها ليلة أنعشت خيالى ، حتى إننى أطلقت على كل من وقعت عليه عيناى اسما من أسماء ألف ليلة .

فنظرت نحو الوزير وقالت :

ـــ ماذا أطلقت على معاليه ؟

ـــ هارون الرشيد ؟

وأشارت إلى مصطفى بطرف عينها وقالت :

ـــ وهذا ؟

قلت وأنا أبتسم :

ـــ مسرور السياف ، ولكن بلا سيف .

وكأنما أعجبتها اللعبة فالتفتت صوب مجدى وقالت :

ـــ وماذا أطلقت على هذا ؟

ـــ شهريار ، قاتل النساء .

ـــ لماذا اخترت له هذا الاسم ؟

ـــ لأنني أعتقد أنه عدو النساء على الرغم من وسامته .

ودنا ممدوح منا فقالت :

ـــ وماذا أطلقت على صديقك هذا ؟

ـــ أبو قير .

ـــ ولماذا اخترت له هذا الاسم ؟

فقلت وأنا أضحك :

ـــ لأسباب لا يمكن أن أفضى بها إليك الآن .

ووقع نظرها على رئيس الجمهورية فقالت وقد التمعت عيناها بالسرور :

ـــ وماذا أطلقت عليه ؟

فقلت وأنا أتصنع الفزع :

ـــ لا . لا أستطيع أن أقول خشية أن أطرد من البلاد .

فقالت دون كلفة :

ـــ بالله قل .

فقلت فى صوت خافت :

ـــ أبو نواس !

وضحكت ، وعلى الرغم من أننا لم نلتق إلا منذ لحظات إلا أننى أحسست أحساسا عميقا أننى أعرفها حق المعرفة ، وأن حديثى إليها يملأ روحى غبطة . ولو طاوعت نفسى لوضعت ذراعى فى ذراعها وسرت معها أحدثها إلى الأبد دون أن يتسرب الملل إلىّ .

ورمقتنى مسرورة وقالت :

— وماذا أطلقت على ؟

فقلت على الفور :

— بدر البدور . أتعرفين معنى هذا الاسم ؟

— لا .

فقلت لها الترجمة الإنجليزية :

— قمر الأقمار .

وتضرجت وجنتاها بحمرة خفيفة وأسبلت جفنيها ، و لم أطق ذلك الصمت الذى ساد بيننا لحظة فقلت لها :

— أتعرفين قصة بدر البدور ؟

— لا ، وما قصتها ؟

— إنها قصة طويلة لا يمكن أن أقصها عليك الآن .

— أتبخل بها على ؟

— إنى أتمنى أن أكون لك كما كانت شهرزاد لشهريار ، أقص عليك كل ليلة قصة ، لا ألف ليلة وليلة فحسب بل آلاف الليالى .

فقالت :

— لنبدأ بقصة بدر البدور .

— غدا .

— غدا سنشاهد استعراض الخيل .

— وسنشاهد نحن أيضا ذلك الاستعراض ، وما رأيك فى بعد غد ؟

وأحسست أننى أطوقها فى بساطة ، فأرادت أن تغير الحديث فقالت :

— هل شاهدت لاهور ؟

ـــ لم أشاهد إلا القصور التى دعينا إليها .

فقالت فى استنكار :

ـــ لم تشاهد حدائق شالامار ؟

ـــ أبدا .

ـــ إنها إحدى عجائب الدنيا ، لا تستطيع أن تقول إنك رأيت لاهور إذا لم تشاهد عجائبها .

ـــ ومن لى بها !

ـــ أية سيارة تحملك إلى هناك .

فقلت فى اندفاع :

ـــ عندى فكرة : ما رأيك فى أن تكونى دليلى الذى يقودنى إلى حدائق شالمار ، تقصين على قصة الحديقة وأقص عليك قصة بدر البدور ؟

وأطرقت . فخفق قلبى ، خشيت أن أكون قد أسأت إليها باندفاعى . لقد ترجمت عن لهفة فؤادى دون تدبير أو إمعان فكر . كانت الأستار المسدلة بين روحينا قد ارتفعت كلها ، فبدأت أحس أنها أخذت تنسدل ستارا إثر ستار ، وقلت وقد تقاصرت نفسى :

ـــ آسف ، لم أقصد أن أحرجك .

فقالت فى بساطة :

ـــ هون عليك .. كنت أفكر فى قبول دعوتك .

فقلت وقلبى يكاد يقفز من الغبطة :

ـــ وعلام استقر رأيك ؟

ـــ أن ألبى دعوتك .

وارتفعت الأستار التى أخذت تنسدل بين روحى وروحها ستارا إثر ستار

دفعة واحدة .

وانتهت الموسيقى من عزف الدانوب الأزرق وبدأت في عزف الفالس الكبير ، فملت عليها وقلت :

ــ لو طاوعت نفسى لوضعت يدى فى يديك وأخذت أدور أنا وأنت ، إننى لم أحس غبطة من قبل كما أحسها اليوم .

فقالت فى دهش :

ــ أتحب الرقص ؟

ــ الرقص يحلو فى لحظات الصفو .

وصمتّ قليلا ثم قلت :

ــ كنت أتمنى أن أشاهد رقصا هنديا .

فقالت وهى تبتسم :

ــ باكستانيا من فضلك .

ــ باكستانيا .

ــ كانت هناك فكرة أن تعرض عليكم ألوان من الرقص الباكستانى ، ولكن عدل عنها حتى لا يجرح شعوركم .

فقلت فى إنكار :

ــ يجرح شعورنا ؟

فقالت وهى تتفرس فى وجهى :

ــ أجل .

ــ ولماذا ؟

ــ لأن الرقص حرام .

وتذكرت المشلح الذى أرتديه واللحية التى تملأ وجهى فقلت فى

اقتضاب :

ـ آه .

وسرنا فى القاعة والموسيقى تعزف ، ولم أحفل بالموجودين جميعا ، خيل إلى أننا وحدنا فى المكان . قالت :

ـ ما الذى أعجبك فى لاهور ؟

وكدت أقول « أنت » ، ولكننى كبحت جماح لسانى وقلت :

ـ أزهارها .

ـ أزهار لاهور جذابة .

ـ لا أقصد أزهار الحدائق ، بل أقصد الأزهار الدافئة الحنون الرائعة الزاخرة بالأنوثة .

ولم تنبس بكلمة ، وقلت :

ـ رأيت حسانا فى بلاد كثيرة ، ولكننى لم أر الأنوثة الطاغية ولا الروح الشفافة الحبيبة إلا فى مصر وهنا .

فقالت فى لهفة :

ـ هل رأيت مصر ؟

ـ مررت بها .

ـ هل هى بلاد جميلة ؟

ـ نعم أحببتها كما أحببت لاهور .

وتحرك رئيس الجمهورية والبيجوم صوب الدرج وصعدا فيه ، ثم وقفا يواجهان الناس وعزفت الموسيقى السلام الباكستانى ، ثم انسحب رئيس الجمهورية والبيجوم وغابا فى الغرفة المرتفعة ، وسرعان ما اقتفى أثرهما شقيق إمبراطور إيران وبطانته ، وقلت :

ــ بدر البدور ، يخيل إلى أن شقيق الإمبراطور من أهل الدار .

فقالت وهى تبتسم :

ــ هناك قرابة بينه وبين الحاكم .

وبدأ الناس فى الانسحاب ، وانتهت الحفلة ، فقلت لها :

ــ بدر البدور ، سأنتظرك بعد غد فى الخامسة أمام بيت الضيافة ، فلا أعرف فى لاهور مكانا غيره .

ــ سأمر عليك فى ذلك الميعاد .

وسكتت قليلا ثم قالت :

ــ بدر البدور اسم جميل ، ولكن اسمى ياسمين .

وصافحتنى لتنصرف ، فقلت لها :

ــ فى رعاية الله يا ياسمين .

وتحركنا لننصرف ، فإذا بى مفعم بالغبطة أسير فى نشاط ابن العشرين .

٢٦

ملأت ياسمين نفسى واستولت على روحى واحتلت رأسى وشغلت فراغ حياتى ، فقد تلتقى روحان لحظة فتأتلفان وتمتزجان وتكونان روحا واحدة ، وقد تجتمع روحان سنين طويلة فى مكان واحد ولا يزيدهما طول العشرة إلا نفورا .

استشعرت أننى أعرف ياسمين منذ الأزل ، إن روحينا تقابلتا قبل الليلة ، وقد يكون ذلك فى عالم آخر ، أو من زمن سحيق ، وراح فكرى يعمل فى

نشاط وينتقل بى وبها فى عصور التاريخ المختلفة . رأيت نفسى أميرا فرعونيا وإلى جوارى ياسمين ، ورأيت نفسى رومانيا وإلى جوارى ياسمين ، ورأيت نفسى بدويا وإلى جوارى ياسمين .

ترى هل تناسخ الأرواح حقيقة ، كنت أسخر من ذلك المذهب ، فما بال مقابلتى لياسمين تجعلنى أفكر فيه وأنا أميل إلى تصديقه ؟ فى نفسى إحساس عميق أننى التقيت بياسمين من قبل ، لا بذلك القوام المشوق ولا بالعينين السوداوين الساحرتين ولا بالشعر السبط الأسود ، ولكننى التقيت بهذه الروح ، إن روحى لا تخطئها أبدا .

هل كنا قطا وقطة ؟ هل كنا كلبا وكلبة ؟ هل كنا ثورا وبقرة ، لا ، لم نكن شيئا من ذلك ، بل كنا رجلا وامرأة ، وإننى أستطيع أن أجزم أن ياسمين تحب الموسيقى وتعشق الغناء وأنها صاحبة صوت آسر جذاب .

هل كانت جارية من الجوارى المغنيات فى زمن الأمويين أو العباسيين ، وكنت أنا المتيم بالجارية ، لست أدرى . كل ما أستشعر به أن روحينا ائتلفتا من قبل وأننى تلظيت بنار البعد والحرمان ، فإننى أحس فى غمرة فرحى وخزات تخز روحى أشبه بلسع النار .

وراحت الأفكار تتوافد إلى رأسى توافد الموج ، وتصرم الليل وما مس الكرى أجفانى . وغادرت الفراش فى الصباح وأنا نشيط . وذهبت إلى المرآة أتفرس فى وجهى فلمحت الحياة تترقرق فى عينى ، وعاد الشباب يتدفق فى تحد على الرغم من الشعرات البيض التى نبتت فى لحيتى ، لقد مستنى عصا الحب السحرية .

كنا فى فبراير وكان البرد شديدا ، ولكن حرارة مشاعرى جعلتنى أنعم

(وكان مساء)

بدفء الحياة ، فخرجت إلى رفاق منشرحا ، وجعلت أداعب مصطفى وأضع يدى على خدى وأتمايل ، فيضع فهد يده على خده ويدندن ويدير وجهه ويرسم بأنفه دوائر فى الهواء ثم ينفجر ضاحكا .

ولمحنا الوزير مقبلا فقال عقيل وهو يقلدنى :

— وقار .

فقلت له :

— الوقار رواسب الشيخوخة . تبخرت هذه الرواسب فطار الوقار .

وظللت فى دعابتى وعبثى حتى إننى رحت أقص على الوزير قصة مكشوفة وأضحك من كل قلبى . كنت مسرورا ، ولو كان لأحد رفاق نظرة ثاقبة لفطن فى يسر إلى حقيقة ما أنا فيه .

كنت مرحا طوال الرحلة ، ولكن كان يشوب مرحى قبل أن ألقى ياسمين مرارة ، أما مرحى اليوم فكان صافيا تزينه خفة الشباب .

وانقضى الوقت وحان موعد ذهابنا إلى معرض الخيل ، فتأنقت فى ارتداء ملابسى العربية ، وخطر لى أن أدعو سامى ليفحصنى قبل أن أذهب ويستوثق من أن حلقتى الشطاف الأسود قد وضعتا فوق الغطرة كما ينبغى . كنت أضيق بملاحظاته ، ولكننى اليوم متلهف عليها ، لولا بقية من كبرياء لاستدعيته والتمست منه أن يتفضل بتنسيق هندامى .

ووقفت لأول مرة طويلا أمام المرآة منذ بدء الرحلة ، وكدرت الشعرات البيض المتسللة إلى لحيتى صفوى برهة ، فاتجهت إلى حقيبتى وأحضرت المقص الصغير ورحت أجتث الشعرات البغيضة ، ولما اختفت من لحيتى ارتحت لذلك التزييف .

وانطلقنا إلى السيارات التي تنتظرنا ، كنا جميعا فى ثيابنا العربية ما عدا الوزير فقد ارتدى ثيابا أوربية ، وسارت السيارات فى شوارع لاهور . وكان الناس فى عربات أشبه « بالكرتة » ، السائق فى مقعده الأمامى وقد أمسك بعنان الحصان ، والركاب فى مقعد خلفى يواجهون المقبلين فى الطريق .

ولمحت سيدتين متسربلتين بثوبين يخفيانهما من الرأس إلى أخمص القدم ، كانتا أشبه بنساء جدة ، وكانتا فى المقعد الخلفى ، فرفعت لهما يدى وألقيت عليهما التحية . وعاتبنى سامى ، حسب أننى أغازلهما أو أسخر منهما ، ولم يدر بخلده أننى كنت سعيدا وأننى كنت أحس رغبة فى تقبيل البشر جميعا .

وبلغنا الشارع الرئيسى .. كان غاصا بالسيارات ، وكان الناس على جانبى الطريق ينظرون إلى موكب رئيس الجمهورية ، كان الرئيس فى سيارة مكشوفة حولها راكبو الموتوسيكلات ، وحول الجميع الحرس الخاص على ظهور الجياد فى ثيابهم الحمراء المزركشة ، كان أشبه بالحرس الاسكتلندى .

وسرنا خلف ركب الرئيس ، وراحت السيارات تزحف ، ولفتت ثيابنا أنظار الجماهير فأخذوا يحيوننا . وهممت أكثر من مرة أن ألوح لهم بيدى لأعبر عن أحاسيس الحب التى تغمر قلبى ، ولكننى أحجمت خشية أن يغضب سامى أو يلفت نظرى إلى أن ذلك يخالف التقاليد . وعلت شفتى بسمة ، وما أحسب أن هناك قوة فى الأرض تستطيع أن تفرض على العبوس إذا شئت أن يتطلق وجهى .

وبلغنا المكان فهبطنا من السيارات ، ورحنا نرق فى سلم المدرج ، وأشرفنا على الناس فإذا بالأنظار تصوب إلينا ، وإذا بأضواء آلات التصوير تأتلق ، ورحنا نخطر بين الصفوف بينا انسل الوزير دون أن يلتفت إليه أحد .. فقد

سحره بعد أن خلع ثوبه العربى الخلاب ، ذكرنى بشمشون بعد أن حلق شعره .

وفطن أحد الموظفين إلى الوزير فأخذه من يده إلى حيث يجلس رئيس الجمهورية . وتلفت و لم يطل بحثى عنها ، أرشدنى قلبى إليها ، كانت بالقرب منى وكانت بين صديقتين .

التقت عيوننا وانحنى رأسانا ، ورفت البسمات على شفاهنا وتألقت البهجة فى وجهينا ، وخفق قلبى خفقانا لذيذا ملأ جوفى حنانا ونشر حول عقلى ضبابا خفيفا جعلنى فى شبه غيبوبة ذهنية مكنت للنشوة أن تمرح فى كيانى دون رقيب .

وجلست فى مقعدى وأنا أسترق النظر إليها ، ولو طاوعت قلبى لذهبت إلى ياسمين أقص عليها قصة بدر البدور ، وأصغى إلى صوتها الدافئ الحنون الذى يعبث بأوتار مهجتى ويحملنى إلى عوالم رحيبة من الانشراح .

وأقبل ثلاثة فرسان إلى منصة الرئيس واستأذنوا منه أن يبدأ الاستعراض ، فلما أذن لهم عادوا على ظهور جيادهم من حيث أتوا ، وما لبثت فرق الموسيقى أن أقبلت من البوابة الكبيرة القائمة فى نهاية الميدان قبالة المدرجات .

وانتشرت الفرق الموسيقية ، كان الجميع يرتدون الملابس الاسكتلندية وينفخون فى القرب ويقومون باستعراض طالما رأيناه فى الاحتفالات البريطانية ، فقد خرج الإنجليز من الهند والباكستان وخلفوا وراءهم عاداتهم وتقاليدهم ولغتهم وثقافاتهم ، وأذنابا تتحرك إذا أوحى إليها الرأس بالحركة .

وترددت موسيقى القرب فى الميدان ولكن لم تجد طريقا إلى روحى ، فقد أغلقت نفسى دونها منذ كنت طفلا فى القسم المخصوص بالمدرسة الابتدائية ،

وكنت أرغم على أن أرقص رقصا اسكتلنديا حول سيفين مـن الخشب متقاطعين على الأرض أمام مدرجات علية القوم فى الحفلات السنوية .

وأقبل من بعيد فارسان يرتديان ثياب بلياتشو ، و لما أخذا يعدوان أمام المدرج وقفا على ظهرى جواديهما ، ثم جلسا مربعين ، وسرعان ما امتطيا جواديهما وقد أوليا وجهيهما للجمهور ، وأعطيا ظهريهما الجوادين ، وطفقا يقومان بألعاب خطرة غاية الخطورة ولكنها تبعث على الضحك ، والتفتت ياسمين إلىّ وهى غارقة فى الضحك فإذا بى أضحك فى مرح الأطفال .

وأقبل حرس رئيس الجمهورية على ظهور الجياد يعزفون موسيقى إنجليزية ، فوجد ذهنى مجالا للتأمل وكانت ياسمين محور تأملى ، راحت فكرة تتولد فى مكان سحيق من فكرى ، ثم أخذت تطفو رويدا رويدا حتى عامت على سطحه ، ثم أخذت تنداح حتى استولت على رأسى .

ليس هذا أول لقاء بينى وبين ياسمين فى حفل عام ، قابلتها فى مثل هذا الحفل قبل الآن ، إن ذاكرتى تكاد تقسم بأغلظ الأيمان أن هذا حدث ، ولكن أين ؟ وفى أى عصر كان ؟ وماذا كانت تفعل ياسمين وماذا كنت أفعل ؟ وأين كانت وأين كنت ؟ وماذا كان اسمها وماذا كان اسمى ؟ لست أدرى .

وزادنى ذلك الغموض تعلقا بها .

وراحت الاستعراضات تجرى أمامى وأنا مشغول عنها بالخواطر المترادفة فى رأسى ، وكنت كلما أفقت من تفكيرى أجد خيولا وفرسانا ، وتشكيلات متباينة .. طوابير من الفرسان ، ثم صفوفا متقابلة ، وسرعان ما تندمج تلك الصفوف فى صفين ، ثم أغيب عن المشهد جميعا ، وأشغل بالحوادث الرائعة التى يخلقها خيالى وأندمج فيها ولا ينزعنى منها إلا دوى تصفيق النظارة ،

أو نظرة خاطفة من عيني ياسمين .

وصاح المذيع يعلن بدء قفز الحواجز ، وتقدم شاب على صهوة جواده ثم أرخى لجواده العنان وراح يقفز الحواجز حاجزاً إثر حاجز فى رشاقة وخفة ، ولكن حافر الجواد ارتطم بالحاجز الأخير وأسقطه فارتفعت صيحات الإشفاق من الجميع ، حتى ياسمين التفتت إلىّ وهى تشير بيديها فى ضيق .

وصاح المذيع معلنا اسم البطل القادم على اجتياز الحواجز ، ودوى صوته فى المكان :

ـــ أحمد خان .

وراح أحمد خان يخطر على صهوة جواده ويسير فى خيلاء الجبارين . كان مظهره يوحى بأنه فارس لا يشق له غبار ، ففتحت عينى وجلست على حافة مقعدى وجعلت أرقبه وقد طارت الأفكار من رأسى .

وتبهنس الفرس ودار أحمد خان دورة حتى واجه الحواجز ، وجذب عنان الجواد ثم أرخاه وانطلق كالقذيفة .

وارتطمت حوافر الجواد بالحاجز الأول وبالحاجز الثانى وبالحاجز الثالث وارتفعت الضحكات ، وضحكت ياسمين حتى إنها كانت تقوم وتقعد ، وضحكت حتى امتلأت عيناى بالدموع ، أثبت أنه أحمد خان حقا فقد خان جميع الحواجز وطرحها أرضا !

وراحت تطوف بالملعب قطعان الثيران والخراف والحمير والبغال ، كان المعرض للخيول والماشية ، ووجدت فسحة من الوقت لأعاود التفكير فى ياسمين وأنقب عن الحقبة التى عشنا فيها معا . أقنعتنى روحى أنها التقت بروحها ، فراح ذهنى يقدح زناد ذاكرته ليمدنى بالبرهان الذى يثبت ادعاء

روحي ، ووقفت على الحياد أنتظر النتيجة .

لم يكن ذلك جديدا على ، فيا طالما انقسمت ذاتى إلى معسكرات متنافرة ومؤيدة ، فكنت أدعها تتصارع وتتجادل وأنا واقف بعيدا أرصد ما يجرى وأرقب النتيجة ، وما أندر ما تتفق روحي ووجدانى وعقلى على رأى .

وأجهد ذهنى نفسه ، وراح يقلب ذكريات السنين ، وأخيرا عاد إلى يقول إنه من غير المعقول أن تكون أنت الذى تخطيت الأربعين وهذه الفتاة التى لم يكتمل نضجها بعد قد التقيتما من قبل ، إن فكرة التقاء روحك بروحها وهم من الأوهام ، أو خيال من الخيالات التى تدفعنى إلى خلقها ، ثم ترغمنى على أن أخدع نفسى وأقنعها أنها حقيقة ناصعة .

وسخرت روحي من ذهنى وراحت تؤكد التقاءها بتلك الروح . إنها واثقة من ذلك اللقاء ، وهى لا تعرف قيود الزمن ولا حدود الأجسام ولا حدود العقل .

وارتفع صياح من النظارة فانتبهت ونظرت إلى الميدان ، فألفيت رجالا يمسكون بأعنة ثيران ضخمة ثم راح الرجال يحثون الثيران على العدو وقد وضعت فى طريقها حواجز أشبه « بدككك » القهوة البلدية .

وراحت الثيران تتخطى الحواجز فى عدوها والناس يتصايحون فى انشراح ، والتفت إلى ياسمين وأنا أضحك فإذا بها تضحك وترنو إلى .

وجىء بديوك ودجاج ، ومرت أبقار لها أثداء كأنها القرب ملئت لبنا ، وغبت مرة أخرى عما حولى ، وعدت إلى نفسى أعيش فيها فإذا بروحى تسخر بالتقاليد التى تحول بينى وبين الفتاة التى تشتهى أن تصغى إلى وأشتهى أن أناجيها ، وراحت تحرضنى على أن أنهض وأنطلق إليها وأن أسعد باللحظات

القصار التى لن يجود الزمن بمثلها مرة أخرى .

وهب عقلى يزجرنى ويطوقنى بقيوده ، فأحسست كأنما أرسف فى الحديد ، وكأن حملا ألقى فوق فكاد ينقض ظهرى وعاقنى عن أن أنهض أو أنقل قدمى ، إن هذا العقل طاغية مستبد لا يسمح لخلجة من خلجاتى أن تنبض أو تتحرك إلا بمقدار ما يصرح به .

ودوت فى المكان دقات طبول ، فنظرت فإذا بفرسان على ظهور الجياد ، وإذا بقارعى الطبول يدقون طبولهم فى عنف فتقف الجياد على أقدامها الخلفية وترفع أقدامها الأمامية فى الهواء وتأخذ فى الرقص .

كان رقصا مثيرا ، وقد ذكرنى تقدم الجياد على أقدامها الخلفية وهز رءوسها بالنساء اللاتى « يفقّرن » فى الزار ، وبالرجال الذين تأخذهم الجلالة فى حلقة ذكر .

ومرت عربة يجرها جوادان وحولها بعض رعاة البقر ، كان المشهد أمريكيا ، ولم أفطن إلى حكمة عرضه فى معرض الخيل والدواب الأهلى الباكستانى .. ربما كان تحية للمعونة الأمريكية .

ووضعت أربع حلقات على الأرض ، ووقف فى أول الميدان عند طرف المدرجات أربعة فرسان يحمل كل منهم رمحا ، وانطلقوا كالريح ، وحاول كل منهم أن يلتقط أثناء عدوه الحلقة بالرمح ، ونجح بعضهم وأخفق البعض الآخر .

وحاول نفس المحاولة أربعة آخرون وتبعهم أربعة آخرون ، واشتد التنافس بين المتبارين ، ونجح أربعة فرسان فى أن يلتقطوا الحلقات كلها فصفق الناس فى حماسة .

وامتلأ الميدان بفرق الموسيقى مرة أخرى ، وبفرسان الحرس ، وبجميع

الفرسان الذين اشتركوا فى العرض ، وبالأبقار والبغال والثيران والحمير ، ثم بدأت الحشود فى الانسحاب ، وغاب الجميع فى البوابة الضخمة المواجهة للمدرجات .

والتفت فإذا بالحسناء الإيرانية التى لا تتحدث الإنجليزية ولا الفرنسية ولا العربية جالسة إلى جوارى ، والتقت عيوننا فابتسمت وحنت لى رأسها فابتسمت لها ، وسرعان ما نسيتها فقد شغلتنى ياسمين عن كل ما حولى .

ونهض رئيس الجمهورية فنهض الناس جميعا ، وانطلق إلى سيارته .

وانطلقت إلى حيث كانت ياسمين ، كنت كالطالب الذى يلمح حبيبة الفؤاد مع أهلها خارجين من السينما فيشق الجموع ليدنو منها ويسير خلفها يسعد بقربها .

وتلفتت ياسمين تبحث عنى بعينيها فوجدتنى قريباً منها ، فتوجت شفتيها بسمة خلابة والتمعت عيناها ببريق خفق له قلبى وحنت رأسها فى رشاقة ، ثم انصرفت وأنا أتبعها بعينى وروحى أنتظر الغد فى لهفة وشوق .

٢٧

وجاء الغد ، وأمضينا الصباح فى زيارة دارسك النقود والمطبعة السرية . كنت أسير مع الرفاق أينما ساروا ، وأقف وقتما يقفون ، وأتظاهر بأنى أصيخ السمع إلى ما يقوم به مرشدنا من شرح ، وأنا شارد بذهنى أفكر فى ياسمين . وراح الوقت يمر وئيدا وئيدا ، وبدأ الملل يتسرب إلى روحى ، فجعلت أنظر إلى الساعة المثبتة فى معصمى أتعجل الزمن وأتلهف على مروره . أطبقت شفتى ولم أعبث ولم أداعب أحدا من رفاق ، وقد سنحت أكثر من فرصة كنت أستطيع أن أنتهزها لمشاغبة مصطفى ولكننى لم أفعل . وفطن عقيل إلى صمتى فدنا منى وقال وهو يقلدنى :

ـــ وقار .

وضحكت وابتسمت مجاملة له ، ثم عدت إلى العالم القائم فى رأسى ، وجاء إلى ممدوح وقال :

ـــ عندكم دار سك مثل هذه ؟

فقلت فى اقتضاب :

ـــ نعم .

ولم أتحمس ولم أسهب فى وصف دار السك عندنا ، اعتادوا إذا سألونى عما إذا كان عندنا مصنع أو دار كالتى نزورها أن يسمعوا منى وصفا مسهبا للمصانع المصرية المماثلة ، وقدرتها ومدى استعدادها ، ولكننى أقتصر اليوم

فى الردود على كلمة أو إيماءة من رأسى ، وكان سامى إلى جوارنا فقال لى :

— ما بك اليوم ؟ مريض ؟

— متلهف على انقضاء هذه الزيارة .

— ضايقك أن يفترش العمال الأرض وهم يعدون النقود ؟

ولم أنبس بكلمة ، وقال :

— لقد ضايقنى ذلك أيضا .

وأخيرا انتهت الزيارة وعدنا إلى دار الضيافة وتناولنا غداءنا ، وأسرعت إلى غرفتى وتمددت فى فراشى لعل النوم يطوف بى ويريحنى من الساعات الباقية على موعد لقائنا ، ولكن خاصم الوسن جفنى ، وأرهف حواسى ، وراحت دمائى تتدفق حارة فى عروقى ، وأخذ قلبى يرقص بين جنبى فى ابتهاج ، فقد عاد إليه شبابه .

لم يبق على لقائنا إلا ساعتان ، فنهضت ارتدى جلبابى الصوف الرمادى الذى طلبت فى الليل أن يغسل ويكوى ، ووقفت أمام المرآة أشذب شاربى ولحيتى ، وانتقيت غطرة مزركشة من الصوف وضعتها على رأسى ، ثم ثبتها بالشطاف الأسود بعد أن عوجته قليلا زيادة فى التأنق ، كما كنت أفعل فى مستهل شبابى أيام كنت أضع على رأسى الطربوش .

ووضعت المشلح المصنوع من وبر الجمل والمزين بالقصب على أكتافى ، وتطيبت بالطيب الذى أغتصبته فى الليل من مصطفى ، ثم تطلعت إلى صورتى فى المرآة فألفيت نفسى فخما ، كنت أبدو كالشيخ فى الروايات السينمائية .

وجعلت أغدو وأروح فى الغرفة ، وأنا أتطلع إلى الساعة وأرقب فى ضيق عقرب الثوانى الذى يدور ببطء شديد ، وأمضيت الوقت صاعدا هابطا فى

الغرفة ، متطلعا إلى صورتى فى المرآة ، مادا يدى إلى طرف المشلح أو إلى حلقة من حلقتى الشطاف أو إلى الغطرة لأصلح هندامى .

وأشرفت الساعة على الرابعة والنصف فغادرت الغرفة خافق القلب ، وسرت فى الممر الخالى فقد كان الرفاق جميعا يغطون فى النوم استعدادا لليل ، وسرت فى الحديقة واتجهت إلى الباب الأيمن ، و لم ألبث أن تذكرت أن السير فى الباكستان على اليسار فاتجهت إلى الباب الأيسر لأخرج منه ، كأنما كنت سيارة يتحتم على أن أحترم لوائح المرور .

ووقفت فى الطريق فإذا بالمارين والمارات يمدون أبصارهم إلى ، كان منظرى غريبا فى الشارع الهادىء الذى تظلله الأشجار ، والذى تخترقه عربات تجرها الجياد ودراجات « البيتشا » التى ثبتت صناديق الركاب إلى جانبها ، وقلما كانت تجرى فيه سيارة .

وحام حولى بعض فقراء الباكستان وقد خفضوا رءوسهم فى احترام شديد ، ولولا الحياء لتمسحوا بى وقبلوا طرف ثوبى .

وأقبلت سيارة ، وقبل أن تصل إلى خففت من سرعتها فخفق قلبى خفقانا لذيذا ، ووقفت السيارة أمامى ومددت بصرى إلى داخلها فرأيت ياسمين فاضطربت برهة ، ومالبثت أن جمعت شتات نفسى وفتحت الباب ودخلت ، وقبل أن ألقى عليها التحية قالت :

— مساء الخير .

فقلت بالعربية :

— مساء النور ، يا بدر البدور .

— ماذا قلت ؟

فترجمت لها تحيتي بالإنجليزية فابتسمت . وانسابت السيارة وأنا إلى جوارها وقد خيم السكون علينا برهة ، كان كل منا يسعد بالمشاعر اللذيذة التي تمور في أعماقه ، ولمحت شابا راكبا دراجة وقد ركبت أمامه شابة باكستانية فتطلعت إليه . وسبقته السيارة فرحت أرقبهما من الزجاج الخلفي ، والتفتت ياسمين ورأتهما ، ورأت البسمة التي ارتسمت على شفتي ، فقالت :

— هذا شيء مألوف عندنا .

فقلت والبسمة في عيني أوضح منها على شفتي :

— خطر في ذهني خاطر أضحكني .

— ما هو ؟

— تخيلت نفسي راكبا دراجة وأنا بهذه الثياب وأنت أمامي بالساري المزين بالقصب .

فضحكت في طلاقة ثم قال :

— هذا الساري ليس مزينا بالقصب ، إنه منسوج بخيوط من فضة صنع كشمير .

— هل حدائق شاليمار بعيدة ؟

— على بعد خمسة أميال . هل تضايقت ؟

فقلت في حرارة :

— ليتها كانت على بعد خمسة أجيال .. ليت هذه الرحلة لا تنتهي أبدا .

فقالت وهي ترخي أجفانها :

— شكرا .

وساد صمت لذيذ . ثم التفت إليها وقلت :

— لماذا أطلق عليها اسم شاليمار ؟

فاعتدلت وقالت :

— شاليمار كلمة سانكريتية معناها « جنة الحب » .

فقلت فى ابتهاج :

— إننى سعيد ، سعيد جداً .

فقالت مشرقة الوجه :

— وما سر هذه السعادة ؟

— سأدخل الجنة .

فضحكت وقالت فى براءة الأطفال :

— سندخلها معاً .

— كل ما أرجوه ألا نطرد منها .

وحزرت ما أرمى إليه ، ففاضت بسمتها وأطرقت وخيم علينا السكون .

ترى فيم تفكر ، ليتنى أستطيع أن أقتحم هذا الرأس الصغير ، وأرى ما يجرى فيه .

ووقفت السيارة أمام باب ضخم بنى بأحجار كبيرة ، وهبطت ياسمين ووقفت تصلح ساريها وتطمئن إلى أنه يغطى صدرها ، وهبطت خلفهما وأصلحت مشلحى ، وسرنا ندلف إلى « جنة الحب » . كان منظرنا عجيبا فصوبت العيون إلينا ، وقد ارتبكت أول الأمر ولكن سرعان ما أنستنى ياسمين والروعة التى أعيش فيها كل ما حولى .

ونظرت إلى الحدائق فاستولى على ذهول ، كانت أروع ما يمكن أن

يتصوره أى خيال منسرح ، الماء يجرى فى أحواض كأنما صنعت من قوارير ، وعلى جانبيها خضرة من سندس وإستبرق ، وتفجرت النافورات من أواسط الأحواض فكانت أشبه بمظال من أفواف الفضة ، وارتسمت على سطح الماء حول كل نافورة دائرة من الزبد الأبيض ، وانعكست عليه صور المظال الفضية ، والأشجار الباسقة اليانعة ، والجواسق المبنية بالحجر الأبيض والقائمة على أعمدة مستديرة رشيقة ، والعقود التى تنطق بروعة الفن المغولى ، والسماء الموشاة بسحب كأنها الجليد . كانت جنتين : جنة تملأ العين روعة وتأخذ بالألباب ، وجنة فى الماء تعكس الفتنة والإغراء .

وعبق الجو بأريج عطر ، وزقزقت العصافير على الأفنان ، وراح النسيم يداعب الأغصان ، فكان لحفيف أوراق الشجر وزفيف الهواء وقع الموسيقى السماوية التى ترقق النفس وتنعش الروح .

وانتشر فى الحدائق سحر عجيب ، سحر الماضى وروعة التاريخ ، سحر غامض يهز النفوس .

وصمتت ياسمين كأنما تركتنى لنفسى أستوعب الروعة ، وجعلت أقلب البصر فى الحديقة وأنا مأخوذ ، وأسير فى الطريق المعبد بين الماء والخضرة وياسمين إلى جوارى ، فأستشعر كأنما أهيم فى عالم من الأحلام .

ملئت غبطة ، وأحسست خفة تمور فى أرجائى ، فالتفت إلى ياسمين وقلت لها :

— لو كان صوتى جميلا لملأت الدنيا غناء .

فابتسمت وقالت :

— وهل كان الغناء وقفا على أصحاب الأصوات الجميلة ؟ كل النا،

يغنون .

ــ وأنت ؟

ــ بالطبع . وأنت ؟

ــ لا أغنى إلا وأنا فى الحمام .

فضحكت وقالت :

ــ وهل يعجبك صوتك وأنت فى الحمام ؟

ــ إننى لا أحفظ أغنية واحدة وكثيرا ما أغنى كلاما ليس له معنى ، وبعد أن أنتهى من الغناء ألوم نفسى خشية أن يكون أحد الجيران قد سمعنى فيتهمنى بالجنون .

وكنا قد وصلنا إلى سور حسبته من بعيد سور الحديقة ولكن ما إن دنونا منه حتى لاحت تحته حديقة أخرى أروع من الأولى يهبط إليها فى بضع درجات ، ويتدفق الماء من مجراه الأول إلى المجرى المنخفض فى هيئة شلال .

والتفت إلى ياسمين وقلت :

ــ رائع . أبحث عن كلمة أخرى أعبر بها عن حقيقة مشاعرى فلا أجد . إن مشاعر الإنسان أضخم من أن يعبر عنها بألفاظ .

ووقفت أنظر صامتا ، ولمحت فى وسط الماء جوسقا جميلا ، وقد قامت عند تقاطع الممرات أربعة جواسق أخرى ، فقلت :

ــ فهمت أن الجوسق الذى فى الماء للإمبراطور ، ولمن هذه الجواسق الأخرى ؟

فقالت ياسمين :

ــ لفرق الموسيقى .. هل عرفت الإمبراطور الذى عاش هنا ؟

— لا .

— إنه الإمبراطور شاه جاهان ، وقد بنى هذه الحديقة سنة ١٦٤٢ ليستريح فيها إذا ما جاء لزيارة لاهور .

وهبطنا فى الدرج ، وسرنا حتى إذا بلغنا جوسق الإمبراطور قلت لياسمين :

— لو طاوعت نفسى لشبكت يدى فى يدك وجعلت أنا وأنت ندور هنا فى مرح إلى الأبد .

فقالت فى بساطة :

— بلا موسيقى ؟

— الكون كله يعزف : صفير الرياح .. حفيف الشجر .. زقزقة العصافير .. خرير الماء .. هنا الخلود .

ثم صمت قليلا وغمغمت :

— هنا الله .

فقالت ياسمين :

— ماذا تقول ؟

— إنى أرى الله هنا فى كل زهرة ، وفى كل ثمرة ، وفى كل شجرة ، وفى كل نسمة .. فى الخضرة .. فى الزرقة .. فى الماء .. فى السحاب .. إنه الحياة .. الحياة المتدفقة إلى الأبد .

وسرنا هائمين وهاتف فى أغوار نفسى يردد : « رب أوزعنى أن أشكر نعمتك » ، وذابت روحى فى الكون العريض ، وملأت خياشيمى روائح زكية ، وداعبت أذنى موسيقى عذبة سماوية .

وبلغنا سورا ثانيا فإذا بحديقة ثالثة أروع من الحديقتين السابقتين ، فأسرعنا

نهبط إليها فى الدرج وهيام يملأ أقطار نفسى ، وينابيع الحب تتفجر فى أغوارى، فتفيض روحى بمشاعر رقيقة نقية صافية .

والتفتت إلىّ ياسمين وقالت :

— أنسيت ما وعدتنى به ؟

وهبطت من السموات التى كنت أحلق فيها ، وبدأت أفيق من الغيبوبة اللذيذة ، وشعرت بقيود جسمى ، وتنبه ذهنى وصحا بعد أن طغت عليه روحانيتى ، وقلت :

— أى وعد ؟

— أن تقص على قصة بدر البدور .

ونظرت فألفيت مقعدا على الطريق فقلت لها :

— تعالى نجلس هناك وأقص عليك القصة .

وسعت خطاها ، وسارت أمامى وهى تتلفت فى خفة كأنما تستحثنى على أن أسرع ، وبلغنا المقعد وجلسنا وقلت :

— أراد أحد الملوك أن يزوج ابنه من ابنة ملك البلاد المجاورة ، ليضمن بذلك الزواج أن ترتبط الأواصر بين الأسرتين ، فيسيطر على المنطقة السلام ، ولكن ولى العهد رفض أن يطيع أباه ، وقال إنه لا يتزوج من فتاة لم يرها ولم يخفق بحبها قلبه ، فثار أبوه عليه وأمر بحبسه فى برج القصر .

وفى نفس الوقت حدث فى بلاد الصين البعيدة ، أن أراد الإمبراطور أن يزوج ابنته بدر البدور من وزيره الشيخ ، فثارت بدر البدور وأبت ذلك الزواج ، فغضب عليها أبوها وحبسها فى غرفة من غرف القصر .

وجاء الليل ونام ابن الملك فى البرج ، وفيما هو نائم جاءت جنية وجعلت

ترمق جماله فى إعجاب ، وسرعان ما جاء جنى آخر فقالت له :

— سبحان الله . انظر إلى هذا الجمال .

فقال الجنى :

— أين هذا الجمال من الجمال الذى شاهدته الآن ! رأيت فتاة كأنها البدر .

— لا أحسب أن جمالها يبلغ هذا الجمال .

فقال لها :

— سأحضرها إلى ها هنا لتريها .

كانت تفصل بين ابن الملك وبدر البدور بلاد وبحار ، ولكن الجنى أتى ببدر البدور فى لمحة عين وأرقدها إلى جوار ابن الملك .

ونظرت الجنية إليهما وقالت :

— رائعان ، ما خلق هذا الجمال إلا لذلك الجمال . سأوقظ الفتاة لترى جمال الشاب .

وتحولت الجنية إلى ذبابة ، وراحت تقف على وجه بدر البدور وتطن فى أذنها حتى استيقظت ، فلما رأت ابن الملك النائم إلى جوارها خفق قلبها وأشرق وجهها ومالت عليه تقبله ، ولكن الجنية جلبت النعاس إلى عينيها ، فرقدت وراحت فى سبات .

ووقفت الذبابة الجنية على وجه الشاب وطنت فى أذنه حتى استيقظ ، فلما رأى الفتنة النائمة إلى جواره ، شغف بها حبا ، وخلع خاتمه ووضعه فى أصبعها وأخذ خاتمها ووضعه فى أصبعه ، وقبل أن يهم بإيقاظ بدر البدور كان النعاس يمشى إليه ، فراح فى سبات .

ووقف الجنى والجنية يتشاوران ، كان من رأى الجنية أن يترك الجنى بدر البدور للفتى ، ولكنه رفض .

فقالت ياسمين :

ـــ ولماذا يرفض ما دام قد وجد الفتى الصالح للفتاة ؟

ـــ لأنه على الرغم من كونه جنيا كان أعلم بطبيعة البشر . فالعوائق التى تعترض طريق المحبين تزيد الصبابة وتشعل نار الغرام ، فإذا ما حان التلاق بعد الصعاب كان ثمرته شهية ، فالثمرة التى تصعد النخلة لتجنيها ألذ من الثمرة التى تلتقطها من الأرض .

فقالت ياسمين فى لهفة الأطفال :

ـــ وهل التقى ابن الملك ببدر البدور بعد ذلك ؟

ـــ انتظرى حتى أكمل لك القصة .. حمل الجنى بدر البدور إلى غرفتها ، وجاء الصباح فاستيقظ ابن الملك يتلفت فلم يجد بدر البدور ، ففرك عينيه ، إنه لم يكن يحلم ، كانت هنا إلى جواره . ونظر إلى أصبعه فوجد خاتمها ، فهب قائما وطلب من الحارس أن يطلب له أباه الملك .

وجاء الملك فالتمس منه أن يزوجه الفتاة التى كانت معه فى الليل ، وسئل الحارس عن تلك الفتاة فأنكر دخول أحد إلى البرج أو خروجه منه ، ولكن ابن الملك أصر على أن فتاة كفلقة القمر أمضت الليل معه ، وأنه لن يتزوج غيرها ، وعرض على أبيه خاتمها .

واستيقظت بدر البدور من نومها وطلبت من أبيها أن يزوجها الفتى الذى أمضى الليل راقدا إلى جوارها ، وأنكر أبوها قولها واتهمها بالجنون ، ولكنها أبرزت له خاتم الشاب الذى تركه فى أصبعها .

ومرض ابن الملك ، ومرضت بدر البدور واشتد مرضها ، فأعلن أبوها الإمبراطور أنه يزوجها من ينجح فى علاج مرضها .

ودخل الأطباء عليها ، ولكنهم باءوا جميعا بالإخفاق .

وبعثت بدر البدور إحدى وصيفاتها تجوب الأرض بحثا عن صاحب الخاتم ، فطفقت تنتقل من مملكة إلى مملكة حتى وصلت إلى مملكة الحبيب . وسمعت هناك أن ابن الملك مريض ، وأن الملك قد وعد بجائزة ضخمة لكل من ينجح فى علاجه .

أحست الوصيفة بعد أن سمعت أوصاف ابن الملك أنه بغيتها ، فتقدمت إلى القصر وسمح لها بزيارة ابن الملك . فلما دخلت عليه قدمت له خاتمه ، فما إن رآه حتى قام معافى يسأل فى لهفة عن صاحبته ، فقالت له الوصيفة ، إنها فى خدمته حتى تضع يده فى يدها .

واستأذن الفتى من أبيه فى السفر ، فأذن له ، فانطلق على جناح الغرام إلى بلد حبيبة الفؤاد . ودخل الفتى على الفتاة فلما رأته قامت من فراش المرض تقبله وتعانقه . وانتهت القصة بزواج ابن الملك من بدر البدور ابنة إمبراطور الصين .

فقالت ياسمين مشرقة الوجه :

— قصة غريبة !

لم أكن أدرى أقصة بدر البدور هذه ، أم هى قصة نسج أطرافا منها خيالى ، ورحت أقول :

— إنها أمنيات الأجيال الماضية .. ولكنها ليست غريبة الآن . فهى تتحقق كل يوم .

— كيف ؟

— كل يوم يحمل الجنى مئات الرجال والنساء من قارة إلى قارة أخرى ، ويعقد أواصر الصداقات بين أناس ما كان لهم أن يلتقوا أبدا . فأنا مثلا حملنى الجنى من بلاد بعيدة إلى هنا لتتاح لنا الفرصة أن نلتقى فى شاليمار .

فقالت وهى تضحك :

— ولكن لم يحملك جنى ، حملتك الطيارة .

— سمها ما شئت من الأسماء .

وصمت قليلا ثم قلت :

— ألا يوجد عندكم مكان يتمنى المرء عنده فيتحقق له ما يتمنى ؟

— ماذا تريد أن تتمنى ؟

— أن تنتهى قصتنا كما انتهت قصة ابن الملك وبدر البدور ، أن يحملنا الجنى إلى البيت السعيد .

ولم تحفل ياسمين ولم ترتبك .. حسبتنى أمزح ، وما دار بخلدها أننى كنت صادقا فى كل ما أعرض ، قالت وهى تضحك :

— تريد أن تحمل معك تذكارا حيا من لاهور ؟

وهممت أن أبثها لواعج نفسى .. أن أعترف لها أن قلبى خفق لها منذ وقعت عليها عيناى .. ولكننى كبحت جماح رغبتى المتأججة فى صدرى ، فقد كنت مقبلا على قرار خطير يقوض كل ماضى ، ويبنى صرحا جديدا لمستقبلى ، فقلت ملمحا :

— أريد أن أعود بقلبى .

فتلفتت حولها ثم نهضت وهى تقول :

ـــ سرقنا الوقت وهجم الظلام ، هيا نعود .

وسرنا صامتين ، وإن انقلب جوفى إلى بركان ثائر فائر بالمشاعر المتصارعة المتلاطمة المتشابكة المتضاربة . وهب عقلى متحفزا يقبض بيد من حديد على عواطفى المتمردة . . إنه صارم جبار لا يرحم . حتى لسانى ثقل تحت ضغطه ، وعجز عن أن يدور .

وركبنا السيارة وانطلقت بنا ، وراح هامس فى أغوارى يحرضنى على مكاشفتها بحبى فقد يكون هذا آخر لقاء بيننا ، وكدت أستجيب له أكثر من مرة ، لولا ذلك الجبار القائم فى رأسى يزجرنى وينهانى .

والتفتت ياسمين إلى وقالت :

ـــ دعوتنى اليوم وقد استجبت لدعوتك ، وأظن أنه أصبح من حقى أن أدعوك ، هل أنت مرتبط بموعد غدا ؟

فقلت فى لهفة :

ـــ أبدا .

ـــ سأمر عليك غدا فى الخامسة مساء لأحملك إلى البيت .

فقلت وأنا أبتسم :

ـــ البيت السعيد ؟

فقالت متهللة الوجه :

ـــ إلى بيتنا ، ولا أدرى أهو سعيد أم لا . لقد حدثت أمى عنك .

ـــ وماذا قلت لها ؟

فقالت وهى ترنو إلىّ فى مرح :

ـــ أشياء قد لا تسرك .

ـــ أى شيء تقولينه يسرنى .

وخمد البركان الثائر فى أغوارى ، وأرخى عقلى عضلاته ، فأمامنا فسحة من الوقت نفكر فيها وندبر . وأشرقت روحى فقد أضاء منار أملى ، وراح يبدد بنوره الظلمات التى أخذت تتراكم فى نفسى .

٢٨

ووقفت السيارة أمام دار الضيافة فهبطت منها وأنا أودع ياسمين وأذكرها بموعد الغد ، وانسبت فى الحديقة مرحا وصعدت فى الدرج قفزا حتى أوشك مشلحى أن يطير فى الهواء .

ودلفت إلى غرفة الاستقبال فألفيت مصطفى وسامى ومجدى وعقيل ، فدنوت من مصطفى وسألته همسا :

ـــ أين الدواء العجيب ؟

فقال مصطفى وهى يبتسم :

ـــ أخذ الصديق الإعلان وذهب ، فلا عاد ولا أرسل الإعلان .

فقلت له فى لهجة جادة :

ـــ لقد تيقنت الآن أن مفعول الدواء أكيد .

فقال فى لهفة :

ـــ كيف ؟

ـــ جربه صديقك فأفاد معه ، فلم يجد عنده وقتا يأتى إليك فيه .

فابتسم مصطفى وقال :

— كنت أعول كثيرا على هذا الدواء .

— قد تجده عند عودتنا إلى كراتشى .

— بالله لا تجعلنى آمل فيما لا أمل فيه .

— الحياة أمل .

فقال وهو يقهقه :

— الحياة كفاح .

فقلت :

— كفاح إلى الموت .

فقال وهو يعبس :

— بالله لا تذكرنا بالموت فما تزال زوجتى صغيرة .

— كم سنها ؟

فقال بالإنجليزية التى ينطقها نطقا فرنسيا :

— سبعة عشر ربيعا .

— وهل أنجبت منها ؟

— لا .

— وهل لا تزال عذراء ؟

فقهقه وقال وهو يدفعنى فى صدرى :

— يا خبيث .

وقال مجدى :

— بالله تأتى معنا الليلة .

فقلت :

ـــ إلى أين ؟

فقال سامى :

ـــ إلى حيث تعلم . جلسة غير بريئة . . إنك تقول إنك تسبح الله حتى فى ماخور ، فتعال تعبد .

ـــ يا ليت : إنى كلما اقتربت من المعاصى ازددت قربا إلى الله ، ولكننى أريد الليلة أن أنفرد بنفسى .

فقال عقيل :

ـــ ما أكثر ما تنفرد بنفسك ، ألا تضيق بهذه الوحدة ؟

فقلت وأنا أبتسم :

ـــ أبدا ، يسرنى أن أنفرد برجل عاقل .

فقال عقيل وهو يقلدنى :

ـــ وقار .

فنهضت وأصلحت هندامى ثم قلت :

ـــ وقار .

وسرت أغادر الغرفة ، فقال مجدى :

ـــ إلى أين ؟

ـــ إلى النوم .

ـــ ألا تتعشى ؟

ـــ شكرا .

وغبت فى غرفتى ، واستلقيت على السرير وأطلقت لخيالى العنان ، وتأهبت للمعركة الفاصلة التى بدأت طلائعها تزحف إلى جوفى .

اضطرب نفسي ، وخفق قلبي ، واحتلت صورة ياسمين ذهني ، وراحت عواطفي تتحدث فى حماسة ، وتقول إنني عشت السنين الطويلة وأنا محروم . أفنيت زهرة شبابى فى سبيل زوجتى وأولادى ، ضحيت بكل شيء لإسعادهم ، أنفقت عليهم فى سخاء وبخلت على روحى ، تعبت ليرتاحوا ، تألمت لأحمل عنهم الألم ، سهرتليناموا ، تغربت ليستقروا ، أشعلت النيران فى كيانى لأنير لهم ظلام الطريق ، سالت عبراتى فى جوف الليل وأنا أبتهل إلى الله أن تكون دموعى كفارة عن دموعهم .

أحببتهم من كل قلبى ، وما يزالون مهجتى وقرة عينى ، ولكن أما آن لى أن أسعد ، أن أنعم بما بقى من حياتى ، أن أعيش إلى جوار من هفا إليها قلبى . إننى ظمآن والرى قريب ، أسير فى الليل السرمد ومفتاح النور فى يدى ، تنطفئ روحى وزيت الحياة معى ، أموت مقرورا ولا يحجب الشمس عنى إلا ستار رقيق . حرام على أن أحكم على روحى بالعدم ، حرام على أن يضيع ما بقى من عمرى هباء ، حرام على أن أبقى على ظهر الأرض وأنا ميت ، يجب أن أعيش ما دمت حيا ، وأن أعيش كما ينبغى أن أعيش .

خفق قلبى كجناح حمامة بعد أن عكف يدق دقاته الرتيبة كأنه ساعة تحصى على شهيقى وزفيرى سنين وسنين ، وعرفت روحى البهجة بعد أن كانت القهقهات الجوفاء تنبعث منى كقعقعة الصفيح ، وتدفق ماء الشباب فى عروقى بعد أن كادت تيبسها رواسب الزمن .

كنت أشعر أننى وحيد وزوجى وأولادى حولى ، فإذا بها تملأ الدنيا على وتشعرنى حنانا دافقا وعالما متجددا وأملا متفتحا وخلودا ماله حدود . لقد ولدت من جديد .

أحببت ، وإنه شيء جميل أن نحب ، وأجمل ما فى الوجود أن نقطف ثمار ذلك الحب وأن نرشف رحيقه المعسول . سأنطلق فى الطريق الحبيب ولن أئد هناءتى ، ولن أكتم أنفاس سعادتى بيدى .

أريد ياسمين ، أريدها حلالا نقية خالصة لى ، فالحرام ليس لى فيه . لن أرتكب إثما ، ولن آتى أمرا إدا ، ولن أكون أول من اتخذ له زوجة ثانية ، ولن أخدش الناموس .

ضحيت وضحيت كثيرا ، وإنها لأنانية أن يطلب منى أن أضحى وحدى دون أن يضحوا ولو قليلا فى سبيل سعادتى .

تألمت وتألمت كثيرا ، فلماذا لا يتحملون قليلا من الألم قربانا لهناءتى ؟

بكيت وبكيت كثيرا ، فلماذا تجزعنى مجرد فكرة أن تطفر من مآقيهم الدموع ؟

أمامهم آمال عريضة ، وهذا أملى الأخير .

أأضرب فى صحارى الحياة حتى نهايتى وسبيلى مفروش بالورود ؟! أأستقر فى سعير الحرمان وجنة الحب وارفة الظلال ؟! أأئن أنين المجروح وإن هى إلا خطوة واحدة بينى وبين بلسم الروح ؟!

سأتزوج ياسمين ، وإننى لقادر على أن أفتح بيتين وأغذى فرعين ، ولن يخسر أبنائى شيئا فسأمدهم بمال وفير ييسر لهم أن يسيروا فى قافلة الزمان آمنين .

أعلم أنه ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان .. إنهم فى حاجة إلى العطف والحنان .. إلى غذاء الروح ، إنهم يعيشون الآن بعيدا عنا بلا عطف ولا حب ، فإذا ما تزوجت ياسمين وعادت إليهم أمهم فستغمرهم بالحنان وتغذيهم

بالحب . وما أسرع أن يشبوا عن الطوق ويتلفتوا منقبين عمن يغمرونه بالحب المذخور فى الصدور . إنهم كدلاء الساقية يستنزفون حبنا ليرووا به قلوبا غير قلوبنا .

ما بال أمر فروعى يقلقني ؟ ما بال أشباح أبنائى تزلزل كيانى وتهدد الهناء المأمول ؟ لماذا أصيخ سمعى لضعفى وأكاد أستجيب لأوهامى ؟ لا . إن نبع حنانى ليس وقفا على أبنائى وزوجتى . إنه نبع زاخر لن ينضب لو اغترفت منه ياسمين ، بل سيربو ويزداد غنى وقوة بالينابيع الفتية التى سيفجرها الحب الجديد .

من حقى أن أسعد ، أن أهنأ ، أن أحصل على كل لذة تفتق أكمام كيانى وتوسع أمامى آفاق الوجود . آه لو كنت مثل ممدوح أسيغ الحرام إساغة الحلال ، لما ترددت فى أن أروى ظمئى وأستريح .

لا ، ما كان هذا الوصال ليشفى غلتى حتى ولو كنت كممدوح ، فما بمثل ذلك الوصال يطفأ ظمأ الروح .

سأصم أذنى عن همسات الحنان الخوار ، ولن أضحى بهناءتى على مذبح الأوهام ، ولن أحرق حياتى قربانا لمعبود ليس له وجود . سأتزوج ياسمين ... سأتزوج ياسمين .

وزوجتى التى هجرت فراش مرضها واغتربت معى لتمسح بحنانها آلام صدرى ، وتحمل على أكتافها الواهنة نصيبها من عبئنا المشترك . وتساهم معى فى بناء عشنا وتهيئته لتمضى فيه شيخوخة هانئة ، أأطعنها بيدى ؟! أهون عليها أن يحمل إليها نعيى من أن يقال لها تزوج .

أهجرت فراش مرضها لتقوم بنصيبها فى الكفاح حقا؟ أوضعت أبناءها فى

كفة ووضعتنى فى كفة فرجحت كفتى ؟ هيهات أن يكون هذا .. إنها تغار على من النسيم ، خشيت أن أفلت منها فجاءت معى لتقبض على بيد من حديد .

سيجرح نبأ زواجى كبرياءها ، ولكن ما أسرع ما يندمل جرحها ، ولن ينكأه رؤيتها لياسمين فلن تراها أبدا ، ستعيش فى بلد وسأعيش مع ياسمين فى بلد آخر يفصل بينهما بحر زخار .

ما أكثر الرجال الذين يسقطون صرعى فى منتصف الطريق ويتركون أسراتهم بلا عائل ولا نصير فلتحتسبنى زوجتى ولتعدنى فى زمرة الأموات ، وإن كنت ميتا يرتجى خيره فلن أبخل عليها ولا على أبنائها بالمال الوفير .

ليتهم يعرفون فيعذرون .

وياسمين ، أتقبل أن تتزوج من رجل مثلى تجاوز الأربعين لم تمض على معرفتها له أكثر من ثلاثة أيام ؟ رجل له زوجة وأولاد ؟! وإذا قبلت ذلك أتقبل أن تهجر وطنها لتذهب معه إلى بلد ليس بوطنه وكل صلته به صلة عمل ستنفصم يوما ما ؟

قلبى يحدثنى أنها ستقبل ، ولكن أهلها ماذا يقولون ؟ سأسألها غدا هل تقبلنى زوجا لها ؟ فإن وافقت فاتحت أمها فى الموضوع . آه لو تزوجت ياسمين لكنت أسعد رجل فى الوجود .

وهدأت نفسى وصفت روحى وغمرتنى سعادة ، وراح قلبى يخفق فى حب ، وفجأة سرى فى أرجائى صوت حنون يردد :

ـــ من أكل اليان ، وتزوج من بنات الكردستان ، نسى الأهل والأوطان .

٢٩

ووافى موعد اللقاء وأنا واقف بثيابى العربية فى الطريق أمام قصر الضيافة ، وعيون الغادين والرائحين ترمقنى فى إجلال . وأقبلت سيارتها من بعيد فأحسست دبيب النمل يسرى فى بدنى ، وخفقانا لذيذا يتردد فى جوفى ، وينابيع من النشوة تنبثق فى أعماقى ، ودم الشباب الفوار يتدفق فى عروقى ، وغبطة تسرى فىّ من الرأس إلى القدم .

ووقفت السيارة أمامى ، وفتحت بابها ونظرت فألفيت ياسمين فى « سارى » فى زرقة السماء وقد تزينت وأبرزت فتنتها وأسرفت فى تجميل نفسها ، كانت تتألق كأنثى ، وملأ عبيرها أنفى فدار رأسى .

ارتاح فؤادى وامتلأت ثقة بنفسى ، تيقنت أننى كنت فى فكرها طوال الساعات الطويلة التى جلستها أمام المرآة .

وقلت وأنا أصعد إلى السيارة وعيناى ترنوان إلى عينيها :

ـــ مساء الخير يا ياسمين .

فقالت وهى تبتسم :

ـــ مساء الخير يا ابن الملك ، لماذا لم تحيتى التحية العربية ؟ إنها لطيفة .

فقلت بالعربية :

ـــ مساء النور يا بدر البدور .

فأشرق وجهها وقالت :

ـــ فكرت بالأمس طويلا فى قصة بدر البدور فلم أجد لبدر البدور أما تعطف عليها . و لم أجد لابن الملك أما تواسيه وتفهم حقيقة مشاعره وتقف إلى جواره فى وجه قسوة أبيه .

ـــ أظن أنه ليس من كرامة الملك فى ذلك العصر أن تقف الأم فى وجه الملك وتعارضه فى شىء أبرمه حتى لو كان ما أبرمه يتعلق بفلذة كبدها .

فقالت فى امتعاض :

ـــ هذه قسوة أن يفرض الأب أو الأم سلطانه على قلب ابنه أو ابنته ، إنها مصادرة لأقدس حرية ، حرية الحب .

ـــ قسوة يمليها الحنان .

ـــ أى حنان هذا الذى يجبر إنسانا على أن يعيش مدى حياته مع من لم يخفق بحبه قلبه !

ـــ يحسب الأب أو الأم أنه أدرى بمصلحة ابنه أو ابنته من الابن أو البنت ، فيحاول أن يفرض قسرا ما يعتقد أن فيه مصلحة محققة .

ـــ لماذا لا يترك الشاب أو الشابة إلى نفسه ما دام قد رشد ؟.

ـــ يزعمون أن الشباب طيش واندفاع .

ـــ وما رأيك أنت ؟

ـــ رأيى أن الطيش والاندفاع فى الشيوخ وفى الشباب على السواء .

فقالت وهى تشمخ بأنفها الدقيق :

ـــ لا أحسب أننى أغالى إذا قلت : إننى قادرة على أن أعرف أين مصلحتى .

فقلت لها وقد ازداد قلبى خفقانا وتهدج صوتى بعض الشىء :

— لو تقدم إليك شيخ متزوج وله أولاد وطلب يدك ، أتقبلينه ؟

وتعلقت عيناى بشفتيها .. قالت فى صوت خافت :

— لو تيقنت من أنه يحبنى لا أرفضه .

فقلت لأزداد توثقا :

— أترضين أن تكونى زهرة ثانية ؟

فقالت وهى تبتسم :

— أغلب الزهرات التى رأيتهن فى حفلاتنا زوجات لشيوخ سبق لهم أن تزوجوا .. ومع ذلك فهن سعيدات فى زواجهن .

— وإذا طلب منك أن تسافرى معه إلى بلاد بعيدة عن بلادك ، أتقبلين ؟

فقالت دون تردد :

— الزوجة تتبع زوجها أينما ذهب .

وازداد وجيب قلبى .. الثمرة دانية .. كلمة واحدة تتفتح أمامى بعدها أبواب السعادة . وكاد لسانى يتحرك بها ولكن عقلى الجبار المستبد هب يكبح جماحى ويسيطر على ، واستقر رأيه على أن يدور حول الموضوع ، أن يعرف كل شىء دون أن يرتبط بشىء ، فقلت :

— لو تقدم إليك رجل مثلى له زوجة وأولاد يحبهم ، وعرض عليك أن تذهبى معه إلى بلد لا تقيم فيه زوجته ولا أولاده ، أتقبلينه زوجا لك ، ولو كانت معرفتك به لا تزيد على معرفتك بى ؟.

وقالت دون تردد أو تفكير وقد توجت شفتيها بسمة هزتنى هزا :

— لو كان مثلك لرحبت به .

كان حديثها غذاء لروحى فأحسست وأنا إلى جوارها أنى أتبدل ، أن

شبابي يعود إليّ .. وساوس الطيش تنبت فى رأسى .. ذراعى تكاد تتحرك لتلف خصرها ، وقلت :

— ألا يحول بينك وبينه حبه لأولاده ؟

وشردت أفكر ، وكأنما أحست بغريزتها خطورة ما بدأت أفكر فيه فقالت لتنتشلنى من خضم الأفكار التى شرعت أسلحتها فى وجه آمالنا :

— متى ستحملك الجنية من هنا ؟

— بعد يومين .

فقالت وهى تتنهد :

— ما أضيق الزمن !

فقلت وأنا أبتسم :

— ما أكثر الأشياء التى يمكن أن تقضى فى يومين . الأحداث التى تغير وجه التاريخ لا تستغرق لحظات .. كلمة تقال .. رصاصة تطلق .. قنبلة ذرية تلقى على الغافلين .. قدر ينقض .

فقالت وقد اتسعت عيناها وضمت الهواء إلى صدرها :

— أليس هناك مكان لسعادة البشر ؟ رصاص .. قنابل .. قدر منقض ؟

فابتسمت وقلت :

— ثروة تهبط من السماء .. قلب يتفتح للحب .

فعادت الإشراقة إلى وجهها وقالت :

— أجمل ما فى الحياة تفتح القلب .

ودلفت السيارة من باب واسع ، وسارت فى ممر بين الحشائش الخضراء ، ثم وقفت أمام دار بيضاء أنيقة مكونة من طبقتين ، فى الطبقة العليا شرفة فاخرة

كبيرة تطل على الحديقة المنمقة الغناء .

وأسرع خادم يرتدى سروالا أبيض فوقه قميص أبيض طويل ، وقد ارتدى فوق القميص صدارا من صوف أخضر ، وعلى رأسه عمامة مكورة كبيرة ، وطالت لحيته وشاربه ، ومد يده وفتح باب السيارة ، وهبطت ياسمين وأنا خلفها ، وأصلحت ساريها وأصلحت مشلحى ، ثم دلفنا معا من باب الدار :

وصعدنا فى الدرج الأنيق جنبا إلى جنب ، وبلغنا الطبقة الثانية ، وقادتنى ياسمين إلى غرفة استقبال فخمة انتثرت فيها أرائك مذهبة وفرشت أرضها بسجادة عجمية كبيرة رائعة ، وتدلت من السقف ثريا كلها من بلور ، وانبعث النور من مصابيح ثبتت فى أركان الغرفة وغطيت بأغطية زجاجية ملونة ، فانتشر الضوء خافتا شاعريا يعاون على الشرود الحالم اللذيذ .

ووضعت على نضد بعيد بعض صور و « أباجور » مصنوع من جلد الجمل ، وزين الحائط المقابل لى ببعض سيوف وأسلحة نارية قديمة ، وصورة رجل فى ثياب عسكرية هندية .

ولمحتنى ياسمين وأنا أديم النظر فى الصورة ، فقالت فى زهو :

— بابا .

وجلست على مقربة منى ، وطفقت تتلفت ناحية باب يصل غرفة الاستقبال بالداخل ، فحزرت أن أحدا قادم ، فأخذت أجمع شتات نفسى وأتأهب لذلك اللقاء .

ومس أذنى نقر خفيف على الباب ، فالتفت فإذا بسيدة ترتدى ساريا من فضة فى لون الذهب تتقدم منى ، فانتصبت واقفا لاستقبالها ، ولما دنت منى قفز قلبى فى صدرى حتى كاد يفر من فمى ، وتدفقت الدماء حارة فى عروقى ،

وذهبت نفسى شعاعا . كانت مفاجأة لم تخطر لى على بال ، فما وقع فى خلدى أبدا أننى سأجد نفسى يوما ما أمام فاطمة وجها لوجه ، وأين ؟ هنا فى لاهور .. ومتى ؟ بعد عشرين سنة من الفراق .

إن حياتى سلسلة من المصادفات ، ولكننى ما كنت أحسب أن المصادفات قد تنجح فى تدبير مثل هذا اللقاء . إنها قمة المصادفات فى حياتى ، أراد القدر أن ينظم باقى قصيدة حياتى البتراء ، أن يكمل اللحن الناقص ، وأراد أن يدلل على عبقريته فلم تكن القصيدة من بحر واحد ، و لم تكن نغمة اللحن متسقة ، فقد جاء الزمن يتم عمله الفنى الناقص بعد أن شاخ !

من يصدق أن الصدفة حملتنى للسعودية ، وأن الصدفة اختارتنى عضوا فى البعثة الاقتصادية ، وأن الصدفة قادتنى إلى لاهور . وأن الصدفة وطدت الصداقة بينى وبين ياسمين لتدعونى إلى دارها ، لألقى فاطمة هنا ؟

قابلت زهرات أنضر من ياسمين وأشد أسرا ، ولكن روحى لم تهف إلا إليها . لماذا ؟ لأنها ستقودنى إلى فاطمة ، لا . إن مصادفات حياتنا ليست عبثا ، إنها مصادفات عاقلة مدبرة .

تقبت عن فاطمة فى كل مكان دون جدوى ... بحثت عنها هنا وهناك حتى تقطعت أنفاسى ، سألت عنها هذا وذاك ، ولكن لم يشف أحد غلتى . اختفت فجأة كأنما انشقت الأرض وابتلعتها ، لقد آن الأوان لترفع الأسجاف عن السر الوحيد الغامض فى حياتى .

ومدت يدها إلى مصافحة ، ومددت إليها يدى وأنا أرتجف ، حبس صوتى ودار رأسى وأحسست كأنى فى دوامة ، وقالت ياسمين تعرف أحدنا بالآخر :

— ماما .. ابن الملك .

وابتسمت ياسمين وابتسمت الأم ، ووجدت لسانى فقلت :

— بل الملك نفسه .

قالت الأم :

— حدثتنى ياسمين عنك كثيرا .

— ترى ماذا قالت ؟

وقالت الأم ونحن نتأهب للجلوس :

— قالت إنك تجيد الكلام وإن حديثك ينفذ إلى قلوب العذارى .

فالتفت إلى ياسمين فوجدتها لأول مرة تطرق حياء ، وقلت :

— شكرا لهذا الإطراء وإن كنت لا أدرى ماذا يكون رأيها لو كثر ترديد كلامى على مسامعها . لكل جديد لذة ، ومن حسن حظ الشباب أن كل شىء بالنسبة إليه جديد ، كل ما يسمعونه جديد ، كل ما يتفتح أمام أعينهم جديد ، كل من يحسونه جديد .

فقالت الأم وهى تبتسم :

— وما رأيك فيمن يجد جدة فى كل ما يسمع وما يرى وما يمارس ؟

فقلت وأنا موزع النفس أفكر فيما أفعله ، وأساير الأم فى حديثها :

— هذا صاحب شباب متجدد .

وأقبل الخادم يحمل صينية عليها أكواب بها عصير الليمون ، فوجدت فسحة من الوقت لألتقط أنفاسى وأسيطر على أعصابى ، وشربت العصير ومددت يدى إلى جيب جلبابى الصوف وأخرجت قلما وورقة ، والتفت إلى الأم وكتبت فى الورقة اسمها بحروف لاتينية ودفعت إليها الورقة وأنا أقول :

— أهذا اسمك ؟

وأسرعت ياسمين إلى الورقة وراحت تقرأ بصوت عال :

— فاطمة .

وقالت الأم وقد رفعت حاجبها الأيمن :

— لا بد أن ياسمين ذكرت اسمى أمامك .

فقالت ياسمين وقد اتسعت عيناها :

— أبدا لم يحدث شىء من ذلك .

وبدأت أسيطر على الموقف فقلت فى هدوء :

— ورثت العرافة عن أهلى ، كان جدودى من العرافين القدامى الذين عاشوا فى الجاهلية وصدر الإسلام . إننى أستطيع أن أقرأ ماضيك كأنما أقرؤه من كتاب .

فقالت فى إنكار المصدق :

— محال .

كنت واثقا من أن فاطمة لن تستطيع أن تكتشف أمرى ، فما وقع فى خلدها أن ترانى بعد عشرين سنة فى ثياب عربية وقد أطلقت لحيتى وتسلل إليها الشيب . إن زوجتى نفسها أنكرتنى لما رأتنى فى هذه الثياب ، فقلت :

— هاتى كفك وأنا أروى لك كل شىء عن حياتك .

ومدت إلى كفها وأمسكتها بيدى . ولم يخفق قلبى ولم تسر قشعريرة فى بدنى ، وكان مجرد مداعبة شعرها لوجهى يرهف حواسى ، وكان طيفها الزائر يزلزل كيانى ، وتفرست فى كفها ثم نظرت إليها وقلت :

— لست من هذه البلاد ، أصلك من بلاد قريبة من هنا .

وعدت أتفرس فى كفها مرة أخرى وقلت :

ـــ من إيران على التحديد ، ولكنك ولدت بعيدا .. فى قارة ثانية يجرى فيها نهر كبير ... إن مسقط رأسك مصر ، بل القاهرة بالذات .

ورفعت رأسى وقلت :

ـــ ما رأيك ؟

فقالت ياسمين فى حماسة :

ـــ مدهش .. غريب .

وقالت فاطمة وقد بدأ القلق يساورها ، خشيت أن يفضح كفها أشياء لا تحب أن تعرفها ابنتها :

ـــ لعل ذلك مصادفة . لا أصدق أن الكف تروى كل هذه التفاصيل .

فقلت فى خبث :

ـــ إننى أرى فى كفك أدق أسرار حياتك ، ولن أروى إلا الخطوط العريضة ، ولن أتعرض للتفاصيل إلا إذا طلبت منى أن أسهب .

وأفرخ روعها وقلت فى هدوء :

ـــ هويت الغناء منذ نعومة أظفارك ، كنت تلعبين على العود ، لك أذن موسيقية مدهشة ، يكفى أن تسمعى لحنا مرة واحدة لتلعبيه على العود ، وقد أفادتك موهبة الغناء فى مدرستك وفى الحى الذى كنت تعيشين فيه ، كانت الفتيات فى المدرسة يتحلقن حولك يصغين إلى عذب صوتك ، وكان أولاد الحى يتنافسون فى الفوز بك .

ورنوت إليها دون أن أرفع رأسى وقلت :

ـــ ما رأيك ؟

ـــ هذا صحيح .

ـــ أأحدثك عن أسرتك أم أحدثك عن شبابك ؟

فقالت ياسمين فى فرح الأطفال :

ـــ عن شبابها .

وقالت فاطمة فى شوق :

ـــ ابدأ بأسرتى .

فعدت أتظاهر بالتطلع إلى الكف التى ما تزال فى يدى ، وأفحص عن بعض خطوطها باهتمام ، ثم قلت :

ـــ كان أبوك تاجرا ، وكان موسرا ، ولكن أمواله ذابت فترك بلاده وهاجر إلى مصر . وكانت أمك سيدة فاضلة ، كان لها أطيب الأثر فى جيرانها ، وأخذ عنها سيدات الحى كثيرا من عاداتها الطيبة ، كانت هى التى سنت لهن تحديد يوم معين فى الأسبوع لكل سيدة تنتظر فيه زيارة جاراتها ، وأثمر ذلك التزاور محبة وسلاما .

وكان لك أخوان لهما ميول فنية ، فكنتم أسرة تهوى الفن ، كان أخوك الأكبر يهوى المبالغات وقص مغامرات قام بها من وحى الخيال ، فلما اشتد عوده راح يكتب القصص ، وكان أخوك الأصغر يهوى الرسم ، وكنت آخر العنقود وكنت بارعة فى الغناء .

وكتب عليكم الفراق ، سافرت أولا ثم سافر أخوك الأكبر إلى أوروبا ، ورحل الأصغر إلى شمال أفريقية .

فقالت مدهوشة :

ـــ هذا شىء محير ، لا أكاد أصدق أن الكف تروى كل هذا .

ـــ أستطيع أن أنبئك باسمى أخويك .

ـــ هات .

وفحصت عن الكف فى إمعان وقلت :

ـــ الأكبر زين والآخر بهاء .

ورمقتنى فى حيرة وقالت :

ـــ لكأنما كنت تحيا معنا .

واضطربت ، ولكن لماذا أضطرب ؟ إنها لن تستطيع أن تكشفنى ، وما لبثت أن استرجعت رباطة جأشى ، فشتان بين ذلك الشاب الأمرد الذى عرفته والشيخ الجالس أمامها فى ثياب تنكرية ولحية وشارب يعجز عن صنعهما أعظم ماكيير .

وقالت ياسمين فى مرح :

ـــ أنت ساحر .

فقلت وأنا أبتسم لها :

ـــ لننتقل إلى مرحلة الشباب .

فقالت ياسمين فى بهجة :

ـــ حديثا مفصلا :

فقلت مداعبا :

ـــ من عجائب الصدف أن شباب الأم لا يكاد يختلف عن شباب الابنة .

وصمت قليلا . خشيت أن أتدفق فيكشف أمرى ، آه لو قلت إن الحبيب واحد ، إذن ، لهتكت كل الأستار الغامضة الساحرة التى أستغلها للإثارة والإذهال .

وبدأت أتحدث عن شباب فاطمة فتهدج صوتى ، وتدفق الدم حارا إلى

رأسي ، وأحسست كأنما صفت عيناى ، فشباب فاطمة شبابى ، قلت :

ـــ تفتحت وأنت فى المدرسة الثانوية وصرت حلم شباب الحى ، ولكنك كنت غارقة فى نشاطك المدرسى ، كنت عضوا فى أكثر من جمعية ، جمعية الموسيقى .. المرشدات .. فلاحة البساتين .

وصمت قليلا ثم قلت بالعربية :

ـــ وكنت غارقة فى حب ابن الجيران .. لم يكن زوجك أول رجل فى حياتك .. فى حياتك شاب كان رفيق صباك .

وانفعلت على الرغم منى ، وأذهلنى ذلك الانفعال وأحسست جفافا فى حلقى واضطرابا فى أنفاسى ، واكتشفت أننى لو استرسلت لرفعت الغطاء عن نفسى ، وكنت أوثر أن أتريث وأن أنتظر حتى أخلو بروحى وأدبر أمرى .

وأقبلت ياسمين على وقالت :

ـــ ماذا قلت لها بالعربية ؟

ـــ قلت لها إن قراءة كفها اليوم أجهدتنى ، واستأذنت منها أن تعفينى لفرصة أخرى .

فقالت ياسمين فى طفولة :

ـــ ليس هناك فرصة أخرى ، ستغادرنا بعد غد .

فقلت وأنا أبتسم :

ـــ آتى غدا فى مثل موعد اليوم ، إن سمحت يا سيدتى .

فقالت فاطمة فى راحة :

ـــ على الرحب والسعة ، يسرنا أن تشرفنا .

ـــ شكرا .

ودنت ياسمين مني وقالت وهي تبسط كفها :

— وكفي متى تقرؤها ؟

— الآن .

ومدت لي كفها في سرور ، فأخذتها في يدي ، ونظرت فيها مليا ثم قلت :

— كف نقية كقلبك .

فقالت في لهفة :

— ماذا ترى فيها ؟

— طهرا وعفة .

واقتربت مني وملأ عبيرها أنفي ، وقالت وهي تنظر إلى عيني في توسل :

— قل . تكلم .

— لم يعرف قلبك الحب بعد ، إن ما تحسين به أحيانا هو نزوة من نزوات الشباب ، أما الحب العميق الجارف فهو في الطريق ، لن تكوني زوجة ثانية لرجل غريب ، ولن تحملك الجنية إلى بلاد بعيدة ، ستتزوجين هنا من شاب يملأ حياتك دفئا وأملا .

وأسبلت جفنيها ، وعلت وجهها غبرة . وصمت ، وساد السكون وكفها في كفي ، وقد كنت في تلك اللحظة أستشعر أني قابض على كف إحدى بناتي .

وكأنما أحست أني لمحت كدرها ، فقالت في صوت متهدج :

— حدثني عن مستقبلي .. عن كل ما ينتظرني .

— المستقبل بيد الله .

— قل كل ما تراه ، أريد أن أعرف كل شيء ، حتى أحزاني .

ـــ أعدك أن أقرأ كفك .

ـــ متى ؟ غدا ؟

فقلت وأنا أبتسم :

ـــ بعد عشرين سنة ، بعد أن تكتمل خطوط حياتك .

فقالت فى أسى :

ـــ وما جدوى أن تسرد لى ما كان ، أريد أن أعرف ماذا يخبئ لى غدى .

فقلت لها فى إشفاق :

ـــ اسمعى نصيحتى ، لا تحاولى أن تهتكى حجب الغيب ، فجمال الغد فى غموضه ، لو عرفنا ماذا ينتظرنا غدا لعافت نفوسنا الحياة .

ونهضت مستأذنا ، وصافحت فاطمة ومددت يدى أصافح ياسمين ، كانت تضطرب وقد كست مسحة من الحزن وجهها ، فلم أضطرب و لم يخفق قلبى .. خبت جميع عواطفى نحوها . تكشفت الحقيقة أمام عينى وانهارت قصور أوهامى كما تذوب قصور الشمع إذا ما سقطت عليها شمس الصباح .

وتحركت فاطمة وياسمين خلفى فالتفت إليهما وقلت :

ـــ كفى أرجوكما ، إننى أعرف الطريق .

وهبطت فى الدرج مسرعا وفاطمة تقول :

ـــ غدا فى الخامسة مساء ستمر عليك السيارة .

ـــ شكرا .

ووجدت السيارة أمام الباب فاندسست فيها ، وانطلقت بى إلى دار الضيافة وأنا أرجو أن ينتهى الطريق ، كنت متلهفا على أن أنفرد بنفسى لأفكر فى

مصادفة الليلة التى لا تخطر على بال .

وكان مساء لن أنساه !

٣٠

سرت فى حديقة دار الضيافة على أطراف أصابعى ، وانسللت فى الردهة الطويلة أسترق الخطا ، و لم أسمع ركزا فى غرفة الاستقبال .. كان الهدوء يسيطر على المكان . ودلفت إلى غرفتى ، وألقيت مشلحى على مقعد طويل ووضعت الغطرة والشطاف على نضد بالقرب من المدفأة ، وأطفأت النور واستلقيت فى سريرى بجلبابى الصوفى .

وزحفت الأفكار إلى رأسى ، وطفت الذكريات على سطح ذهنى ، ومرت صور الماضى أمام عينى كشريط سينمائى .. رأيت طفولة فاطمة ، ورأيت نفسى وأنا أنطلق بالسيارة أدور بها فى الحى .

وراحت الصور تترى ، وتمهلت أمام ذكريات ذلك اليوم الذى دعتنى فيه لحفلة المرشدات ، ورن الحوار الذى دار بيننا فى ذلك اليوم فى أغوارى :

ـــ ما تزال رجل الغابة ، تفكر بعقلية جدك .

ـــ بالعقلية التى تحبها المرأة ، وإن تظاهرت بإنكارها .

ـــ ليست كل النساء سواء .

ـــ كلهن حواء .

ـــ وكل الرجال آدم الساذج الذى أغرته المرأة حتى أخرجته من الجنة .

ـــ الرجال جميعا يعيشون على أمل العودة إلى الجنة .

ـــ جنة الحب !

ويل لى ، كيف لم أفطن ساعة أن كانت ياسمين تتحدث إلىّ عن شاليمار وجنة الحب أن التى تتحدث فاطمة ؟! كانت روحى على صواب لما أصرت على أنها قابلت روح ياسمين ، لم يخدعها الجسم ولا الملامح المتغيرة ، ولم يشككها فيما أحست فارق الزمن . لقد التقت روحى بروحها حقا ، وهامت بها حبا ، فروح ياسمين قبس من روح فاطمة التى هفت إليها روحى وخفق لها قلبى خفقة الحب الأولى ، وإنها لأقوى خفقة يخفقها الفؤاد .

وجاء يوم ذهابى إلى النادى الأهلى فتأنقت وانطلقت إلى هناك فى سيارة الأسرة ، وجلست فى المدرج أتلفت ، وبدأ الحفل وتقدمت فاطمة تلقى نشيد المرشدات ، خيل إلى أنها تغنى لى وحدى ، وانتهت من إلقاء النشيد فدوى المكان بالتصفيق فاستشعرت زهوا .

وترادفت مشاهد الحفلة وأنا أتبع فاطمة بعينى أينما سارت ، وأرصد حركاتها الرشيقة وهى ترقص كالطيف رقصا توقيعيا بديعا . كانت كملاك .

كانت أوهامى تؤكد لى يوم كنت أشاهد استعراض الخيل وياسمين على بعد خطوات منى ، أننى التقيت وياسمين فى ميدان من ميادين الرياضة ، وراح خيالى يطوف العصور الفرعونية والرومانية والعربية ، وطفقت أفكر فى تناسخ الأرواح وأشطح بعيدا ، وما وقع فى خلدى أننى ألتقيت بياسمين يوم التقيت بفاطمة فى النادى الأهلى .. حقا من ينجب لا يموت !

وانتهت حفلة المرشدات ، وهرعت إلى فاطمة فألفيتها تكاد تطير من الفرح ، فقد حازت جوائز كثيرة ، وسمعت إطراء لصوتها من الجميع . ترى هل فطنت روحى إلى أن ياسمين هى فاطمة لما راحت تؤكد لى أنها تهوى

الموسيقى وتجيد الغناء ؟

وسرنا نشق الجموع ونحن فى طريقنا إلى السيارة ، والأنظار تلاحقنا ، وأصوات بعض الشبان تمزق طبلة أذنى وتثير أعصابى ، كانت عبارات الإطراء المتدفقة من أفواههم تجرح كبريائى وتجعل الدم الحار يتدفق إلى رأسى .

وجلست خلف عجلة القيادة وفاطمة إلى جوارى ، وانسابت بنا السيارة فوق جسر قصر النيل ، وظللنا صامتين وقد أسدل الليل أستاره وسيطر علينا السكون . كانت فاطمة مفعمة بالغبطة تجتر ذكريات اليوم السعيدة ، وكنت أفكر فى فاطمة .

وقبل أن أصل إلى دارها وقفت على ناصية الطريق ، والتفت إليها وقلت :

— لم يبق على تخرجى فى الجامعة إلا بضعة أشهر وبعدها نتزوج .

ولم تنبس بكلمة وملأت مآقيها الدموع ، فضممتها إلى صدرى وقبلتها قبلتنا الأولى التى ظللت أحس طعمها زمنا طويلا .

وتخرجت فى الجامعة ، وتعاقدت أنا وفاطمة على الوفاء وعلى ألا نسمح لأى قوة مهما كانت أن تفرق بيننا ، حتى الموت سيقهره حبنا .

ولكنها اختفت فجأة بعد أن انهارت جميع الحواجز التى كانت تعترض سبيلنا ، وعرفت أنها تزوجت .

وعشت حزينا أطوى نفسى على حطام قلبى وتنز روحى الصاب ، وغفت الآمال ، وسرت أضرب فى بيداء الحياة بلا هدف .

والتأم جرح نفسى على الأيام وبلى حزنى وبدأت أتفتح للحياة ، وعاد قلبى يخفق مرة أخرى فى قوة ويلتمس الغذاء ، فكان أن تزوجت ، وسارت حياتى ناعمة سعيدة لا إرهاصات ولا انفعالات تهز كيانى ، وإن كان يعكرها أحيانا

فكرة أن فاطمة خانتنى وهزأت بى .

ترى لماذا هجرتنى ؟ لماذا حطمت قلبى ، أأرغموها على الزواج من رجل لا تحبه ؟ وإذا كانوا أرغموها على الزواج فلماذا لم تفزع إلى ؟ لماذا لم تهرع إلى تبكى على صدرى ؟ وهذا الرجل الباكستانى أين قابلها ؟ ومتى أحبها ؟ وكيف قبل أهلها أن يزوجوها منه ؟ لست أدرى . سأذهب إليها غدا لأعرف منها ما غمض على .

ماذا سيعود على لو عرفت كيف تزوجت ولماذا زوجوها منه ؟ لقد تزوجت وتزوجْتُ ، وسعدت فى زواجى وأنجبت أبناء ، ولا أدرى إذا كانت سعدت فى زواجها ولكننى على يقين أن ياسمين عندها أغلى من الحياة .

كانت إلى جوارى لا يفصل بينى وبينها فاصل ، وكفها فى كفى ، وعلى الرغم من ذلك لم يخفق قلبى ولم تضطرب نفسى ولم أهف إليها ، بل أحسست إحساسا غامضا يحرضنى على الانصراف .

أحقا أحببتها يوما وحسبت بعد فقدها أن لا حياة لى بدونها ؟

— إنها لا تزال جميلة ، بل قد تكون أجمل من زوجتى ، ولكنها ليست الطراز الذى يستهوينى اليوم ؛ فزوجتى أقرب إلى قلبى منها ، ولو ترك لى أن أختار بينهما ما ترددت لحظة فى اختيار زوجتى ، ولو استقبلت من أمرى ما استدبرت لاخترت ما وقع ، وما رضيت بغيره بديلا .

فرقت بينى وبينها مصادفة وجمعت بينى وبين زوجتى مصادفة أخرى ، أصبحت أومن أن ليس هناك حوادث وليدة الصدفة ، بل هناك حوادث نتيجة تدبير محكم عاقل ، يمد خيوطه الواهية لينسج منها أقدار البشر ، يوجه كل فرد لما هو ميسر له .

أأذهب غدا ؟ ولماذا لا أذهب ؟! لماذا أنكص على أعقابى وأفر .. لا خوف على من الذهاب ، سأصغى إلى تكملة اللحن الناقص ، وأستمع إلى تتمة قصيدة حياتى البتراء .

وفكرت فى ياسمين بعد أن إرتفعت الأسجاف التى كانت مسدلة بينى وبينها ، أأحببتها حقا ؟ أبدا . لم يخفق قلبى بحبها ولكنه خفق للأيام الخوالى . أردت أن أتشبث بشبابى الذى يتسرب من يدى ، وأن أغمض عينى عن الشعرات البيض التى نبتت فى شعرى ولحيتى معلنة راية التسليم البيضاء لشيخوختى الزاحفة .

كيف غاب عن ذهنى فى غمرة النشوة الوليدة أن الشباب لا يعود ، وأن أوان دقات القلب الطائشة قد ولى ، وأن الحب المذخور فى جوفى لم يعد بقادر على إرواء حب جديد شره ، وإنما كان كالندى تتفتح له الأزهار التى سبق أن ارتوت قبل أن تستوى على عودها .

وعقلى الجبار المستبد ماذا دهاه فى هذه المعركة ؟ هل خدع أو أرخى لى العنان وتركنى أجرى وراء الأوهام ، حتى إذا ما لهثت وتقطعت منى الأنفاس كان أمر سيطرته على هينا ، فيا طالما تركنى أهيم فى متاهات الخيال وأبنى قصو الأمانى ، ثم يهب فجأة ينقض غزلى ويقوض كل ما بنيت ويفرض ما سبق أ قرره فى غفلة من عواطفى .

ألا ما أتفه الحقيقة عندما تجرد من تهاويل الخيال !.

واستمرت الأفكار تنثال على رأسى ، وامتزجت ياسمين وفاطمة فى خيالى حتى بت أرى ياسمين عندما أفكر فى شباب فاطمة ، وأرى فاطمة إذا ما قفز خيالى إلى مستقبل ياسمين .

وراح النعاس يداعب أجفانى ، فنهضت وخلعت جلبابى الصوف ولبست بيجامتى ، ولففت نفسى فى « البطانية » الصوف ورقدت ألتمس الدفء ، فقد أحسست قشعريرة برد لاهور تسرى فى جسمى .

ورحت فى سبات ، وترادفت الرؤى والأحلام ، كانت كلها تدور حول زوجتى وأولادى . وقمت من نومى فى الصباح وقد نسيت رؤى الليل كلها ولكننى ألفيت عينى مبللة بالدموع .

٣١

وقفت أمام المرآة أربط كرافتتي وألبس بدلتي ، وأفرق شعرى ثم أرسله إلى الخلف كما كنت أفعل أيام شبابى .

كان شعرى أسود فاحما ناعما غزيرا ، وكانت فاطمة تحسدنى عليه ، ولكنه الآن زحف إلى الخلف ولم يبق منه إلا بعض شعرات سود مشى فيها البياض .

وتأنقت وغادرت غرفتى إلى غرفة الاستقبال ، لقد كانت أول مرة أرتدى فيها ملابسى الإفرنجية فى لاهور . وقابلنى الشاب الباكستانى المرافق لنا ومر بى دون أن يعرفنى ، ولكن لما ألقيت عليه التحية وقف ينظر إلى مدهوشا ويقول :

ـــ أهو أنت ؟ والله لم أعرفك ، من يرك الآن يحسبك فنانا إيطاليا .

وضحك وقال وهو ينقل بصره من رأسى إلى أخمص قدمى :

ـــ شتان بينك الآن وبينك وأنت بالثياب العربية .

وذهبت إلى غرفة الاستقبال أنتظر موافاة الميعاد ، وأنا أتطلع إلى الساعة بين لحظة وأخرى . وأشرقت الساعة على الخامسة فغادرت دار الضيافة ووقفت فى الطريق .

ومرت بى سيارات وعربات أشبه « بالكارتة » ودراجات ومشاة ، ولم يجذب منظرى عينا واحدة . وأقبلت سيارة ياسمين ووقفت بالقرب منى وأخذ السائق يتلفت منقبا عنى ، وتقدمت من السيارة وفتحت بابها والرجل يرمقنى فى شذر ، ثم اتسعت عيناه دهشة وقال :

— آسف يا سيدى . لم أعرفك فى هذه الثياب .

وركبت وانسابت السيارة بى وأنا أضع ساقا على أخرى وأكاد أضطجع فى المقعد الخلفى وحدى . وفكرت فى ياسمين ورحت أتساءل : ترى كيف ستقابلنى اليوم بعد أن قلت لها وأنا أقرأ كفها : إنها لم تعرف الحب بعد ، وأن الجنية لن تحملها إلى بلد بعيد ؟ غضبت ولا شك وأحنقها التبدل الذى اعترانى . لن يدهشنى إذا ازورت بوجهها عنى وتحامت أن تلتقى عيناى بعينيها .

وبلغت الدار فإذا بياسمين تخف إلىّ وتستقبلنى عند الباب ، وهبطت من السيارة وإذا بآهة إنكار تند من بين شفتيها ، ورمقتنى فى دهش ثم قالت :

— أهو أنت ؟

— نعم أنا .

وسرنا نصعد فى الدرج وقد زال الدهش من وجهها ولاحت على محياها خيبة أمل . فقدت سحرى وهتكت بيدى غلائل الغموض المثير التى كانت تلفنى ، كنت شيئا مميزا يشتهى فصرت إنسانا عاديا فى لاهور آلاف مثله ، بل فى لاهور آلاف أكثر منه شبابا وأجمل مظهرا .

وبلغنا غرفة الاستقبال وقالت ياسمين :

— لم يخطر هذا على بالى أبدا . لم أكن أتصور أنك ترتدى هذه الثياب .

— لماذا ؟

فقالت وهى تبتسم فى مرارة :

— لم يقع فى خلدى أن فارسا يلقى سلاحه مختارا .

فقلت وأنا أضحك :

— قص شمشون شعره بيده .

ومس أذنى حفيف ثوب فالتفت فرأيت فاطمة مقبلة ، فنهضت أستقبلها ، ومددت لها يدى ومدت يدها إلى وهى تبتسم ، ولكن لما وقعت عيناها على وتفرست فى اضطربت وغاضت بسمتها وتمتمت فى صوت خافت فيه دهشة وإنكار :

— جمال !

— نعم جمال .

وقالت بالعربية :

— ما الذى جاء بك إلى هنا ؟

— قدرى .

فقالت ياسمين فى لهفة :

— ماذا حدث ؟ ماذا تقولان ؟ إن شيئا غير متوقع قد وقع ، ما هو ؟ قولى يا ماما .

فقالت أمها بالإنجليزية فى اضطراب :

— لا شىء .. لا شىء .

ولوت ياسمين شفتها فى ضيق ، وزاد فى ضيقها أننا أخذنا نتحدث بالعربية ، فدارت على عقبيها غاضبة وغادرت الغرفة .

قالت فاطمة فى صوت متهدج :

— أنت ها هنا فى لاهور ؟ شىء عجيب .. شىء لا يصدق .

فقلت فى هدوء :

— شىء عادى أن أكون هنا فى لاهور ، فأنا فى زيارة للباكستان أمر ببلادها

ثم أعود إلى بلادى ، أما أن تكونى أنت هنا ومن أهل هذه البلاد فهذا هو المحير .
ما الذى جاء بك إلى هنا ؟

فقالت وهى تبتسم :

— قدرى .

— وما الذى يسر للقدر أن يوجهك هذه الوجهة ؟

— أنت وهتلر .

— كيف ؟

— ذهبت يوما إلى شارع النزهة لأزور إحدى صديقاتى ولأراك ، وقبل أن أصل إلى مدخل الشارع وقعت عيناى عليك وإلى جوارك فتاة بيضاء البشرة شقراء كانت ترتدى بالطو أزرق ، وكنت مقبلا عليها تحادثها مغتبطا ، ولما كنت أعرف كل قريباتك ، ولما لم تكن واحدة منهن ، فقد تحركت عقارب غيرتى وأحسست كأن خنجرا طعن فؤادى ، وأظلمت الدنيا فى عينى وعدت أدراجى وقد وقر فى ذهنى أنك تعبث بى .

كانت الحرب مشتعلة فى تلك الأيام ، وكانت القاهرة غاصة بالفرق الهندية ، وكان ابن خالى ضابطا فى إحدى هذه الفرق ، فجاء لزيارتنا ، ولما رآنى تودد إلى .

كان قلبى مجروحا وكبريائى تدمى ، فأسلمت له أمرى ليمسح جرح نفسى ، وتقدم إلى أبى يطلب يدى ، وترددت أمى ولكنى أوحيت إليها أننى راضية بهذا الزواج ، فقبلت وهى تبكى ، وبعد شهرين حملنى زوجى إلى هنا .

فقلت دون أى انفعال كأنما كنت أقص قصة رجل آخر :

— لو التقينا يوم الخميس كما كنا نلتقى لما كان ما كان ، لقلت لك إنها

صديقة أختي طلبت مني أن أوصلها حتى دارها ، ولأقسمت لك أنه ليس بيني وبينها ما يثير غيرتك أو يغير على قلبك .

انتظرتك طويلا ، وبحثت عنك فى كل مكان ، فى شارع الملك ، فى محطة الدمرداش ، فى النادى الأهلى ، فى شوارع الجزيرة كلها ، وقفت أمام دار كم الساعات فى الليل والنهار ، ولم أكف عن بحثى إلا بعد أن عرفت أنك تزوجت .

— عرفت ممن ؟

— من زين يوم موت أبيك .

— وعرفت أننى جئت إلى هنا ؟

— كل ما عرفته أنك تزوجت ، ثم دارت بى الدنيا .

— وماذا فعلت ؟

— مضغت أحزانى ، ثم كان ما لا بد أن يكون .. تزوجت .

— ممن ؟

— من نفس الفتاة التى رأيتها معى ، من صديقة أختى ، ظلت أختى تزين لى الزواج من صديقتها حتى قبلت .

فشردت فاطمة قليلا ثم قالت :

— هناك قوة عليا أقوى من كل رغباتنا ، تسيرنا إلى حيث تشاء .

— كل خطوة نخطوها لحكمة تخفى علينا ، تكشفها الأيام .

فقالت فاطمة وهى تهز رأسها :

— لولا أن رأيتك مصادفة مع تلك الفتاة ما أحببت ياسين .

فقلت وأنا ابتسم :

ـــ ولولا تلك المصادفة ما تزوجت من صديقة أختى .

فقالت فاطمة وهى تشرد ببصرها :

ـــ إننا لا ندرى إلى أين نسير .

ووقعت عيناى على صورة زوجها المعلقة على الحائط ، فقلت :

ـــ يبدو لطيفا .

ـــ إنه رجل فاضل رقيق ، أنسانى أهلى .

ـــ وأين هو الآن ؟

ـــ فى رحلة تفتيشية .

ـــ كان يسرنى أن ألقاه .

فقالت وهى تضحك :

ـــ فى المرة القادمة .

ـــ عندما تأتون إلى القاهرة ، لقد جئت إليكم وعليكم أن تسعوا إلينا .

وضحكت فاطمة ثم قالت :

ـــ أسعيد فى زواجك ؟

فأشرق وجهى وقلت :

ـــ أكثر من سعيد ، لم يخطر ببالى قبل أن أتزوج أننى سأسعد فى زواجى كما سعدت .

ـــ وهل أنجبت ؟

فقلت وأنا أضحك راضيا :

ـــ أنجبت قبيلة .

فضحكت وقالت :

— لم تشذ عن الأسرة .

— وكيف أشذ وقد بارك الله لنا فى الذرية .

— حدثنى عن أولادك .

وتحركت عواطفى ، وانبثقت ينابيع الحنان فى أغوارى ، وسرت فى جوف مشاعر هادئة رقيقة ، وتدفق الحديث وقد حمل صوتى شحنة الحنان المتدفق ، فحديث أبنائى أحب حديث إلى قلبى ، وقلت :

— كانت باكورة إنتاجى بنتاً ، إنها فى مثل سن ياسمين .

— جميلة ؟

— الجمال شىء نسبى ، ولكنها تمتاز بخفة المصريين .

فهزت رأسها وقالت :

— أنت أصبح لك بنت فى سن الزواج ؟!

فقلت وأنا أضحك كأنى ألقى نكتة :

— وقد خطبت .

فقالت فى دهش مشوب برهبة :

— ستصبح جدا عن قريب ؟!

— وماذا فى ذلك ؟ هذه سنة الحياة .

— عقلى لا يستطيع أن يتصور أن الشاب الأمرد المنفوش كالديك ، والذى يغار من ظله ، والذى إذا تذكرت الشباب تمثلته ، يصبح جدا !

— ومن كان يتصور أن الفتاة المرشدة التى دوت لها جنبات النادى الأهلى

بالتصفيق تصبح أما لزهرة يافعة تنتظر صاحبها .

فقالت وهى تهز يديها كأنما ترتجف :

— جنيت علىّ بحضورك .. جعلتنى أستشعر دنو الشيخوخة .

فقلت وأنا أبتسم :

— إننا لا نشيخ أبدا ، نتجدد فى أبنائنا ، فما ياسمين إلا شباب فاطمة ، إنى أرى نفسى فى أولادى ، أرى عنادى وأرى طيشى وأرى رعونتى وتسرعى ، وأرى اندفاعى وشقاوتى ، فأبتسم وأمتلىء رضا ، وإن كنت أزجر أبنائى وأنهاهم عن هذه الرعونة والشقاوة والطيش .

إنى سعيد بهذا اللقاء ، أزاح الغشاوة عن عينى وزادنى علما .

وقالت فاطمة :

— أنجبت بنين بالطبع ؟

— كنت عادلا فى إنتاجى ، نصف قبيلتى بنين ونصفها الآخر بنات .

— وكم سن أكبر البنين ؟

— خمسة عشر عاما ، إنه نفس الشاب الأمرد المنفوخ كالديك ، الذى يغار من النسيم ، والذى يحسب أن العالم ما خلق إلا له ، إلا أن غرورى يوسوس إلى أحيانا أنه أشد منى غباوة .

وابتسمت فاطمة وقالت :

— عيبنا أننا نحكم على أولادنا بعقولنا التى نضجت وحنكتها التجارب ، ونتغافل عما كنا نرتكبه من حماقات لما كنا فى مثل سنهم .

— والله إنى أغمض عينى عن حماقاتهم ، وكثيرا ما يقلقنى ذلك الغمض حتى أتهم نفسى بالإسراف فى تدليلهم .

ـــ وماذا تتمنى لهم ؟

ـــ تعلمت ألا أسرف فى التمنى ، فما أصعب تحقيق الأمانى ، ولكننى أتقى الله وأسأله اللطف فى قضائه .

ـــ يا إلهى ! تدين الفتى الماجن !

ـــ لما رأى برهان ربه . ما اخترت لنفسى شيئا واختار الله لى غيره إلا كان ما اختاره الله لى خيرا مما اخترته لنفسى .

وأطرقت فاطمة ، خدش كبرياءها قولى ، ولكننى كنت مؤمنا بما أقول فلم أحاول أن ألطف عبارتى أو أنتقى الألفاظ التى لا تسىء إليها ، وسرعان ما انقشعت السحابة التى لبدت صفحة وجهها وعادت إليها اشراقتها ، واندفعنا فى الحديث عن فلذات قلوبنا .

وكان لا بد من الانصراف فنهضت مستأذنا ، وقالت فاطمة :

ـــ بدرى .

ـــ سنسافر غدا ولم أرتب حقائبى .

ـــ ومتى تتحرك الطائرة ؟

ـــ فى الثامنة صباحا .

وتلفت وأنا أقول :

ـــ أين ياسمين ؟ ضايقناها الليلة .

فقالت فاطمة وهى تضحك :

ـــ لا بأس . ستستمتع بسماع قصة رائعة .

فقلت وأنا أتأهب للانصراف :

ـــ قصة الشاطر حسن ؟

فقالت وهى تضحك :

— لا ، قصة ابن الملك المزيف .

ومددت يدى وصافحت فاطمة مودعا ، ودرت على عقبى وانطلقت لا ألوى على شيء .

يا للزمن ! أكنت أصدق أننى سأقابل فاطمة بعد عشرين عاما ثم أودعها دون أن يخفق قلبى أو يجف حلقى أو تضطرب أنفاسى ؟!

٣٢

بعثنا بحوائجنا إلى المطار ثم رحنا نتجمع فى غرفة الاستقبال ، حتى إذا ما اكتمل عقدنا انطلقنا إلى السيارات المنتظرة عند باب دار الضيافة ، وانساب الركب فى الطرقات الهادئة المفعمة بعبير الأزهار . كانت أوبتنا تختلف عن إقبالنا ، كنا نتلفت نستطلع كل ما تقع عليه عيوننا عندما وطئت أقدامنا لاهور أول مرة ، أما الساعة فقد استرخى كل منا ينبش ذكريات المدينة المتألقة بالجمال .

وزادت أوزاننا ، وانتفخت حقائبنا بالهدايا واشترينا حقائب أخرى ، وزدنا حكمة وعلما ، وزادت خطايا بعضنا ، وخلفت لاهور ورائى وقد ازددت قربا من الله .

وبلغنا المطار فى البكرة فألفيت أناسا كثيرين قد خفوا لتوديعنا ، وسرنا إلى غرفة الانتظار الداخلية ، وقبل أن ندلف إليها رأيت المضيفة الباكستانية ذات العينين الخضراوين والقامة الممشوقة تلوح لنا بيدها ثم تهرع إلينا ، ومرت بى دون أن تلتفت إلى أو تلقى على تحية ثم راحت تصافح زملائى فى السوق .

واتجهت إلى مصطفى وراحت تحادثه فى حنان وتحدب إليه فى عطف فتطلق وجهه وتألق وتدفق وخف ظله ، ونظر إلى سامى وعقيل وفهد ، وارتسمت بسمات عريضة فى وجوههم ، بينما كان ممدوح غارقا فى التسبيح .

ولمحت المضيفة آلة التصوير فى يد عقيل فطلبت منه أن يلتقط لها صورة مع

مصطفى تذكارا لهذه المناسبة السعيدة . ووقف مصطفى إلى جوارها يرنو إليها في وله وأنا صامت ، حتى إذا ما التقطت الصورة صحت :

— وقع الفأر في المصيدة ، لقد اشتريت هذه الصورة .

وأخرجت من جيبي عشرة روبيات ودفعت بها إلى عقيل ، وتظاهر عقيل بقبضها ، وقال مصطفى :

— وماذا ستفعل بهذه الصورة ؟

— سأبعث بها إلى زوجتك .

فقال في فزع :

— يا خبر أسود .

ودنوت منه وقلت :

— تستطيع أن تشتريها مني وأن تدرأ الفضيحة .

فقال بنبرات جادة :

— بكم ؟

— هذا يحدده مقدار غناك ، لن أحدد السعر قبل أن أعرف كل أملاكك .

— لا . هذا كثير .. هذا .. هذا ..

— هذه تجارة ، أحدث أنواعها ، ولا تختلف كثيرا عن أساليب التجارة في عصرنا هذا .. الغاية الآن الغنى من أي طريق وقد وجدت السبيل .

فقال عقيل وهو يضحك :

— وقعت بين براثن خبير .

وخف مصطفى إلى الوزير وقال :

— أنا فى عرضك .

فقال الوزير وهو يبتسم :

— ماذا جرى ؟

— أستجير بك من جمال وعقيل . سيخرب جمال بيتى ، تآمر مع عقيل على أن يلتقط لى صورة مع المضيفة وسيبعث بها إلى زوجتى .

فقال الوزير وهو يضحك :

— لماذا تغارون منه ، ألانه أخفكم جميعا ؟!

فقلت فى هدوء :

— دخول الجمل سم الخياط أيسر من دخول الغنى ملكوت الله . إننى سأؤدى له خدمة جليلة بتخليصه من أوضار المال حتى يتخفف منه ويصبح أمر دخوله الجنة سهلا .

فقال لى من بعيد :

— يا خبيث .

ووقعت عيناى وأنا ألتفت على فاطمة وياسمين ، كانتا مقبلتين نحوى فارتبكت قليلا وأصلحت مشلحى ، ولاحظ عقيل ما ارتسم على وجهى فصاح وهو يضحك :

— وقار .

وتقدمت إليهما وصافحت فاطمة وأنا أقول بالعربية :

— أهلا وسهلا . خطوة عزيزة .

ومددت يدى إلى ياسمين وأنا أقول :

— صباح الخير يا بدر البدور .

فقالت بالإنجليزية وهي تبتسم :

— صباح الخير يابن الملك المزيف .

فقلت وأنا أسير إلى جوارها :

— إن كان هناك تزييف فهو من صنع خيالك .

— لقد اشتركنا فى صنعه معا .

— هل أنت نادمة على ذلك ؟

— أبدا . إن أسعد لحظات حياتنا هى التى ينجح فى تزييفها الخيال .

— إنها اللحظات التى نعيش لها وعليها .

ونظرت إلى ساعتى وقلت :

— لا يزال أمامنا وقت طويل .

فقالت فاطمة :

— تعالوا نجلس فى البوفيه .

وصعدنا فى الدرج وجلسنا إلى نضد بالقرب من نافذة تطل على حديقة صغيرة ومسجد بنى حديثا ، ودار الحديث بيننا ، قالت ياسمين :

— قصصت على أمى كل شىء أمس ، إنها لا تخفى عنى شيئا ، ولا أخفى عنها شيئا ، هزتنى حتى بكيت ، مصادفة سيئة حطمت قلبين وفرقت أليفين .

ولم أنفعل ولم تطفر الدموع من عينى ، بل قلت فى هدوء :

— هذه ليست مصادفة ، إنها أقدارنا ، فلولا ذلك التدبير ما جئت أنت إلى الوجود ، أو لكنت ابنتى .

وتلفتت فاطمة فى ارتباك ونادت الجرسون وطلبت منه أن يحضر لنا شايا . ورأيت المضيفة الباكستانية على نضد بالقرب منى ومعها رفيقاها فى الطائرة ،

كانت تسترق النظر إلى فى دهش ، فما كانت تتصور أن فقيرا مثلى يجد زهرتين من أزهار لاهور تهتمان بأمره .

وقالت فاطمة :

— متى تعود إلى مصر ؟

— بعد بضعة أشهر .

— هل تتكرم أن تمر على زين وبهاء وتطلب منهما أن يكتبا إلىّ ؟ إننى فى شوق إليهما وإلى أخبارهما ، تقضت سنوات ولم أتلق منهما كلمة واحدة .

— سأفعل .

وقالت ياسمين :

— أتكتب لنا ؟

— يبهجنى أن أكتب لأصدقائى أينما كانوا .

وحان موعد الرحيل ، فناديت الجرسون وهممت بأن أدفع له الحساب ، ولكن فاطمة قالت بالعربية :

— لا تحرمنى هذا الشرف ، هذه أول مرة منذ التقينا أدفع ثمن مشروب شربناه معا — أنت هنا ضيفنا .

وتركت حافظة نقودى فى جيب جلبابى ودفعت فاطمة الحساب ، وقالت ياسمين فى مرح :

— فهمت حديثكما وإن كنت لا أعرف كلمة عربية ، كنتما تتحدثان عن الشيكولاتة التى كنت تشتريها لها من محل ألف صنف .

وضحكنا وانطلقنا إلى المطار .

ووقفت أصافح فاطمة مودعا ، وصافحت ياسمين ، وألفيت الهواء يعبث بشعرها فمددت يدى فى بساطة أصلح لها وضع الخصلات المتطايرة .

وانسبت إلى الطائرة وأنا أضم مشلحى حولى ، وصوت ياسمين يرن فى أذنى :

— مع السلامة يا عمى جمال .

ورأيت بعين خيالى فاطمة الصغيرة وهى تنادينى « عمى جمال » .

وصعدت فى الدرج ، وقبل أن أغيب فى جوف الطائرة التفت خلفى ولوحت بيدى مودعا ... وسرت فإذا بالمضيفة ذات العينين الخضراوين ترقبنى فى اهتمام .

وجلست أنظر من الشباك القريب منى إلى حيث وقفت فاطمة وياسمين : فاطمة شاردة وإن رفت على شفتيها بسمة ، وياسمين تلوح بمنديلها فى مرح الأطفال .

وعلانى سهوم ، وبدأ فكرى يعمل ويتعجل الزمن ويعود بى إلى جدة ، إلى حيث تركت زوجتى وأولادى الصغار .

رأيت نفسى أضغط جرس باب شقتى .. الباب ينفتح .. زوجتى يأتلق وجهها ويضيء بهجة لعودتى .. أولادى يخفون إلى يتصايحون فرحين .. البنت الكبيرة تلف ذراعيها حول وسطى .. ابنى الصغير يتعلق بساقى ... ابنتى الصغيرة ترفع يديها فى الهواء لأحملها وهى تصيح فى فرح : « بابا .. بابا » .

إننى أميل عليها وأحملها على ذراعى ، وأميل على ابنى وأحمله على ذراعى الأخرى ، وأسير بهما وابنتى الكبيرة تتعلق بوسطى ، وزوجتى خلفنا فى صدرها سعادة عارمة .

وانبثق الحنان فى جوفى ، وملأت صورة زوجتى وأولادى الصغار صفحة ذهنى ، ودوى فى أذنى صوت الصغيرة حتى غطى على أزيز المحركات ، والطائرة تدرج على أرض المطار لتحلق بنا فى الجو ، وتردد فى جنباتى يهتف :

— بابا .. بابا ..

وأحسست جفافا فى حلقى ، وحنينا يتدفق فى جوفى حتى يغرق مشاعرى جميعا فلا يجد له متنفسا إلا عينى يطفر منهما ويسيل على خدى ، فهتفت فى لهفة :

— إنى قادم .. إنى قادم .

مؤلفات الأستاذ عبد الحميد جودة السحار

— أحمس بطل الاستقلال	
— أبو ذر الغفارى	ترجم إلى الاندونيسية
— بلال مؤذن الرسول	
— فى الوظيفة	(مجموعة أقاصيص)
— سعد بن أبى وقاص	
— همزات الشياطين	(مجموعة أقاصيص)
— أبناء أبى بكر الصديق	
— فى قافلة الزمان	(رواية)
— أميرة قرطبة	(قصة)
— النقاب الأزرق	(قصة)
— المسيح عيسى بن مريم	
— أهل بيت النبى	
— محمد رسول الله	تأليف: مولاى محمد على ترجمة بالاشتراك مع مصطفى فهمى
— قصص من الكتب المقدسة	(مجموعة أقاصيص)
— صدى السنين	(مجموعة أقاصيص) ترجمت إلى الاندونيسية
— حياة الحسين	

— الشارع الجديد	(رواية)
— وكان مساء	(قصة)
— أذرع وسيقان	(قصة)
— المستنقع	(قصة)
— ليلة عاصفة	(مجموعة أقاصيص)
— الحصاد	(رواية)
— جسر الشيطان	(قصة)
— النصف الآخر	(قصة)
— السهول البيض	(رواية)
— أم العروسة	(قصة)
— قلعة الأبطال	(قصة)

— وعد الله وإسرائيل

— عمر بن عبد العزيز

— هذه حياتى

— الحفيد

— ذكريات سينمائية

— كشك الموسيقى

— خفقات قلب

— صور وذكريات

— الإسراء والمعراج

— القصة من خلال تجاربى الذاتية

— عدو البشر

— أبطال الجزيرة الخضراء

— الثمر

— الله أكبر
— ثلاثة رجال فى حياتها
— مسجد الرسول
— فات الميعاد
— آدم إلى الأبد
— العرب فى أوربا
— الدستور من القرآن العظيم

السيرة النبوية فى ٢٠ جزءًا

١ — إبراهيم أبو الأنبياء
٢ — هاجر المصرية أم العرب
٣ — بنو إسماعيل
٤ — العدنانيون
٥ — قريش
٦ — مولد الرسول
٧ — اليتيم
٨ — خديجة بنت خويلد
٩ — دعوة إبراهيم
١٠ — عام الحزن
١١ — الهجرة
١٢ — غزوة بدر
١٣ — غزوة أحد
١٤ — غزوة الخندق
١٥ — صلح الحديبية
١٦ — فتح مكة
١٧ — غزوة تبوك
١٨ — عام الوفود
١٩ — حجة الوداع
٢٠ — وفاة الرسول

رقم الإيداع ١٥٤٠
الترقيم الدولى ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه

الثمن ٥٠٠ قرش